مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ آلِ عِمْرَانْ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة آل عمران

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة آل عمران

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

ابتدأت ثالث سور القرآن الكريم بِمَا بدأت به سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي. مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

وبعد الحروف المقطعة الكريمة، أوضح اللهُ تبارك وتعالى: توحيده، وألوهيته، وصفاته العظيمة في جملة كريمة قائمة بذاتها ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فابتدأت بلفظ ودلالة الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ وهو اسم خاص بالباري سبحانه وتعالى، ثم بيان انفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه المعبود وحده لا شريك له، وفي ذلك حصرٌ للعبودية فيه

عَزَّ وجل، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل.

ثم تقرير صفة الحياة الدائمة التي لا تنقطع له عَزَّ في علاه ﴿ٱلْحَيُّ﴾ فربكم هو المنفرد بكامل وكمال الحياة، فكل ما عداه يموت ويزول. وتُفيد وتُعَلِّمُ صفة انفراده سبحانه وتعالى بالحياة الكاملة ﴿ٱلْحَيُّ﴾ أن حياة المخلوقات ناقصة، بما يعتريها وبما تنتهي إليه من الزوال والفناء، وهي عدمٌ قبل وجودها، ثم موت وعدم بعد وجودها، وأن الله تعالى حيٌّ، حياة كمال كاملة، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

ثم تقرير صفة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه، والمستغني عن غيره، والقائم بأحوال مخلوقاته تبارك وتعالى، إيجاداً وتدبيراً ورعاية وتربية وحفظاً. وبالتالي فإن غيره غير قائم بنفسه، بل مُفْتَقِرٌ إليه عَزَّ وجل في وجوده، ابتداء، ونمواً وحركة وحياة، وموتاً وانعداماً، وإعادة ورزقاً، وعافية وصحة، وفي كل أمرٍ من أمور المخلوق، ظاهراً وباطناً. وبالتالي فهو سبحانه وتعالى الرب الْمُوجِدُ، الخالقُ لكل مخلوق، والْمُمِد له بما يحتاجه لقوامه. وهذه الصفة تُعلم الإنسان أن الله تعالى مُستغنٍ عن خلقه، فلا ينتفع بطاعتهم وعبادتهم، ولا تضره معصيتهم، لأنه هو القوي والغني بِقَيُّومَتِه، فيكون هو الملجأ، وبه المنجى سبحانه وتعالى.

ثم يقول تبارك وتعالى مخاطباً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا تقريرٌ من الله تعالى بأنه نزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. الذي لا شك فيه ولا ريب. وفي هذا من الفوائد أن الله تعالى وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، كونه المعني، وأمته تابعة له، وفي هذا تعزيزٌ وزيادة توثيق لما نزل، من أنه من الله تعالى، وأن نزوله ومضمونه صِدْقٌ وحقٌ وحجةٌ على الْمُخَاطَبين به، فينتفي الشك والريب بإثبات ضدهما وهو الحق، وهذا تنويع بلاغي عظيم، إذا قُورِنَ بقوله تعالى

في سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ حيث نفى سبحانه وتعالى الشك والريب عن القرآن، ليثبت الصدق والحق.

ثم يبين الله تعالى أن من صفات القرآن الكريم أنه ﴿ **مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ** ﴾ فهو مصدق لِلْكُتِبِ الْمُنَزَلَة قبله من الله تعالى على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فهو يُصَدِّقُها، وهي تُصَدِّقُهُ، لأنه طابق ووافق ما أخبرت وبشرت به من الوعد بإرسال محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وإنزال القرآن العظيم عليه.[١] فتضمنت جملة ﴿ **مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ** ﴾ دلالات مترابطة ومتعاضدة في أربع كلمات تامات. وهذا من عظيم بيان وبلاغة القرآن الكريم.

ثم قال جَلَّ جلاله ﴿ **وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ** ﴾ فأنزل الله تعالى ﴿ **ٱلتَّوۡرَىٰةَ** ﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ **وَٱلۡإِنجِيلَ** ﴾ على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ﴿ **مِن قَبۡلُ** ﴾ أي: من قبل هذا القرآن، ثم بين تبارك وتعالى مضمون ما نَزَّلَ من التوراة والإنجيل بأنه ﴿ **هُدٗى** ﴾ فهو هدى في زمانهما، وكذلك بينت الْمُسْتَهدَفِين من مضمون ما نَزَّلَ سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ **هُدٗى لِّلنَّاسِ** ﴾ وفي لفظة ﴿ **لِّلنَّاسِ** ﴾ دليل على أنها شاملة لجنس الإنسان عموماً، فكل من اتبع فقد اهتدى، وذلك قبل الناسخ لهما وهو القرآن الكريم، ببعثة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله، وتصديق رُسُلِه، ونعتك يا محمد بأنك نبيّي ورسولي.[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/١٨١)

ومن فوائد الدلالات اللفظية عن نزول القرآن الكريم أنه ورد بصيغة ﴿ نَزَّلَ ﴾ بينما عن التوراة والإنجيل ورد البيان بصيغة ﴿ وَأَنزَلَ ﴾ وهذا من الإعجاز البياني، لأن دلالة ﴿ نَزَّلَ ﴾ تفيد التتابع في النزول، مرة بعد مرة، بينما ﴿ وَأَنزَلَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ تفيد النزول دفعة واحدة.[١] وهذا من دقائق دقة الإعجاز البياني في القرآن العظيم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن ما أنزله فارقٌ بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، لما فيه من الحجج والبراهين، والدلائل الواضحات القاطعات. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ أي: القرآن الكريم. وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره من العلماء عن قتادة أنه: هو القرآن، أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفرق به بين الحق والباطل، فأحل فيه حلاله، وحرَّم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه، وحدَّ فيه حدوده، وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته.[٢]. وهذا دليل على منزلة القرآن الكريم، وعظيم ما تضمنه من العلم، الذي تزكوا به العقول والنفوس، وترتقي به الناس في أخلاقها، وفي علاقاتها، وفي فهمها للحق والخير، وما يضاد ذلك من الباطل والشر والفساد، وأن القرآن هو الهدى الْمُوصِل لسعادة الفرد، والبشرية في دار الدنيا والآخرة. مما يفيد أن معرفة هذه الخصائص للقرآن الكريم داعمة لتأمله والتمسك به، وموجبة لتعلُّمِه ونشره.

وذكر الزمخشري رحمه الله تعالى أن في إعادة ذكر القرآن الكريم مرة أخرى بما هو نعت له ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ هو مدحٌ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله[٣] وهذا يفيد أن في إعادة ذكر الجنس بالنعت، التي هي الصفة، ما يزيد بيان الجنس المذكور بما اختص وانفرد به، وهذا يعطي مزية فضل وبيان، وإظهار خصيصة.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٩/١) والقرطبي، اجامع لأحكام القرآن (٥/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٣/٥)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣٤٩/١)

ثم بعد هذا البيان العظيم للقرآن الكريم، وما تضمنه من دلالات الهدى، والفرقان، والحجج البالغة، ذَكَرَ سبحانه وتعالى من يُكابر على هذا الكتاب، فيكفر به، وبما تضمنه من الآيات فإن كفره يكون معاندة، ومحادة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فأي حُجة بعد هذه الحجة المتعاضدة مع ما أنزل الله تعالى من قبل: وهي التوراة والإنجيل.

ثم يبين الله تعالى جزاء من يكفر بآياته الباهرات الظاهرات بالحق الْمُبين. فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ فهؤلاء توعدهم الله تعالى بالعذاب الشديد يوم القيامة. لأن الحجج والبراهين قد دلت على أن القرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الحكيم، ولينتهي البيان بالتحذير المُهيب المُخيف ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فهذا بيان لمقامه الكريم تبارك وتعالى، بأنه عزيز ومنتقمٌ ممن يكفر به، ويُعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان سبحانه وتعالى. وصفة العزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. وأيضاً ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فينتقم ممن يكذب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم.

وفي العلم بأنه عزيز ذو انتقام ما يُوجب الامتثال لأمره ونهيه عَزَّ في علاه، وعدم الزلل عن طاعته، فالعزيز كل شيء ذليل له، والعزيز يقهر ولا يُقهر، والعزيز قوي في انتقامه، والعزيز مقام كريم رفيع، يحمل الرفعة والقوة والعلو والقدرة المطلقة. فلا عزيز إلا الله تعالى. وهذا أسلوب يستثير الخوف، ويَشدُّ عوامل الانتباه، والحيطة والحذر من الزلل.

ومن الفوائد: أن في ربط هذا الوعيد بأسباب النزول معالجة وتعريضاً بجحود أهل الكتاب، تخويفاً لهم وتحذيراً لكل كافرٍ إلى قيام الساعة، وأَنَّ الذين جحدوا وأنكروا آيات وحُجَجِ وأَعْلَامِ الله تعالى وأدلته على توحيده، وألوهيته، وجحدوا أن عيسى عبدٌ له، واتخذوا المسيح إلهاً ورباً، أو ادَّعَوهُ وَلَدَاً لله تعالى، لهم من الله عَزَّ وجل عذابٌ شديد. مما يفيد بتميز التوجيه في القرآن الكريم، بمعالجته الواقع من خلال امتداد سلطان النص وتجاوزه سبب النزول إلى عموم اللفظ ومقصده العام، فسبحان من استوعب كلامُهُ مُرَادَهُ بأقل الألفاظ، وأدق البيان في الخطاب.

ثم يُخبر الله تعالى عن دقة علمه، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إن إحاطة علم ربكم سبحانه وتعالى بجميع خلقه تنفي أن يخفى عليه أي شيء من أمر مخلوقاته، فكل شيء عنده عَزَّ في علاه معلوم بكل دقة. ودلالة لفظة ﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾ تفيد الانتفاء، فينتفي أن يغيب عن علمه سبحانه وتعالى شيء. ودلالة لفظة ﴿شَيۡءٌ ﴾ من قوله تعالى ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ ﴾ تُفيد أنه ينتفي بها التبعيض وينتفي بها الجزء والصغير والدقيق، وما لا يراه المخلوق، ولا يحسه بحواسه، وما لا تدركه العقول، وما لا يعرفه حتى المخلوق عن نفسه، فضلاً عمَّن سواه. فتكون قد استوعبت وجمعت وأوعت كمال العلم والإحاطة، بما لا يفوت منه شيءٌ البتة.

ومن الفوائد أن مَجِيء وورود كلمة ﴿شَيۡءٌ ﴾ بصيغة النكرة، تفيد العموم، ليشمل كل شيء، كما جاء البيان بصيغة نفي خفاء العلم ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ ﴾ ليثبت نقيض الخفاء كاملاً، وهو العلم والإحاطة بأجزائه، وأسراره ودقائقه، فهو كمال العلم لله سبحانه وتعالى. فهو عالم بالأشياء على التفصيل، بما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وسواء كان في الأرض أو في السماء، وذلك لعلمه الشامل الكامل بما يقع في ملكوته سبحانه وتعالى، وجاء في تفسير الجلالين أنه سبحانه وتعالى خص السماء والأرض بالذكر لأن الحس لا يتجاوزهما[1] مما يبين دقة البيان في القرآن الكريم.

وفي معرفة العباد لدقة علم الله تعالى ما يؤسس عند المؤمن الرقابة الإلهية لتصرفاته، مما يُعزز لديه جانب الاستقامة والانضباط، حتى في الخلوات، فيتحقق له قدرٌ كبيرٌ من الرقابة الذاتية، مما يفيد أيضاً، أهمية البناء التربوي للإيمان بعلم الله تعالى، الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى ما يخفى على غيره من مخلوقاته، فكل سرٍ عنده علانية.

ومن فوائد تفسير هذه الآية الكريمة أنها إذا ارتبطت بأسباب النزول يكون وجه دلالتها متعلق بخصوص السبب، ويمتد سلطانها للعموم، كما ورد في تفسير الإمام الطبري رحمه الله تعالى،

(١) جلال الدين، تفسير الجلالين (٥٠)

أي قد علم الله تعالى ما يريدون وما يكيدون، وما يضاهون بقولهم في عيسى. إذ جعلوه رباً وإلهاً، وعندهم من علمه غير ذلك.[١] وهذا تأكيد لما سبق بيانه آنفاً عن خصوص السبب وعموم البيان. فهي تعالج خصوص ما أنزلت فيه، ومع ذلك تعالج غيره. فإذا ارتبطت بعموم اللفظ فإن سلطانها يمتد للعموم، فهي تبين للناس علم الله تعالى الشامل، مما يستوجب الحذر من معصيته وإن خفيت على بعضهم البعض، فإنها لا تخفى على الله تعالى. فيستوعب نص الآية العظيمة مراد الله تعالى في توجيه عباده على الوجهين: الخاص والعام. وهذا من الإعجاز الإرشادي والبياني والبلاغي للقرآن الكريم، فسبحان من أعجاز بكلامه خلائقه، فكان آية إعجاز للعباد.

وبعد أن بين تبارك وتعالى سعة علمه، وإحاطة علمه بكل شيء، تأتي الآية التالية لتبين وجوب التأمل في قدرته سبحانه وتعالى في خلق الإنسان داخل الأرحام، بالصورة التي يشاء، فقال عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إن ربكم سبحانه وتعالى هو الذي يخلقكم بالصور التي يردها. فإن الله تعالى يخلق الإنسان ويصوره بالصورة التي يُرِيدُها تبارك وتعالى، من ذكر أو أنثى، وأسود أو أبيض، وقصير أم طويل، وصحيح سليم، أم عليل مريض. ودرجة لونه وجماله. فلا اختيار لأم حملة وليدها في بطنها، ولا لأب هو أصل له، مما يدل على أنه هو الخالق المصور، المنفرد بالخلق والتصوير، وأن كل مخلوق عاجز ومفتقر إلى ربه في كل أمر، حتى في صورته وهيئته، مما يدل على أن كل شيء غير الله عبدٌ لله تعالى.

وفي مضمون هذا ما يقرر أن عيسى ابن مريم ما هو إلا عبدٌ في رحم أمه مريم عليها الصلاة والسلام، قد صوره الله تعالى بالصورة التي أراد سبحانه وتعالى، فكيف يكون عيسى إلهاً؟ وقد تَقَلَّب في رحم أمه أطواراً. فلو كان إلهاً لما كان مثل غيره قد احتوته رحم أمه، ومُصَوَّراً بما صوره رَبُّه سبحانه وتعالى، وهو العزيز الحكيم. فكانت الآية الكريمة بياناً للناس عموماً، وحجة على من ادعى أن عيسى عليه السلام أو غيره إلهاً.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٥/٥)

ومن فوائد البيان الكريم حصر السياق تصوير وخلق الإنسان له وحده تبارك وتعالى، فلا يشاركه فيه أحد ﴿ هُوَ ﴾ اسم إشارة عائد على الله تعالى، ليفيد التخصيص والتعيين، ثم يليه اسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ فأفاد تأكيد وتعيين وتخصيص الفعل ﴿ يُصَوِّرُكُمْ ﴾ بأنه لله جَلَّ في علاه، بما ينفي أن يكون للأبوين أية مشيئة في ذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وقد وردت مشيئته عَزَّ وجل مطلقة، لتبين وتُظهر اختلافكم في الصورة، بل وصلت إلى درجة التباين الذي يميزون بعضهم من بعض على كثرتهم.

فقد تضمنت الآية الكريمة بهذا السياق البديع إثبات الخلق والتكوين لله تعالى ﴿ يُصَوِّرُكُمْ ﴾ وأنه هو المصور سبحانه وتعالى. وأنه يخلق عبده بالكيفية والشكل الذي يشاء ﴿ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وإثبات أن تصويره عَزَّ وجل للإنسان كائن في رحم أمه ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ وكذلك من الفوائد اشتقاق الرَحِم من الرحمة. وفي ذلك من الدلالات والفوائد النفيسة ما يمكن أن تستنبطه وتستخرجه العقول والأفهام بتوفيق العليم الرحمن.

ومن الفوائد: التتابع البياني الإيضاحي، لمطلع هذه السورة المباركة، من تقرير توحيد الله تعالى، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتقرير إنزال الكتب، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإحاطته سبحانه وتعالى علماً وقدرة، وبياناً وتوجيهاً عاماً لكل أحد، ورداً خاصاً بالحجج والآيات الباهرات، والدلالات الواضحات على النصارى، وعلى كل مخالف.

ثم تُختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بإثبات توحيده عَزَّ في علاه، فقال جَلَّ شأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وفي هذا تأكيد لما في صدر السورة العظيمة، من بيان وتأكيد توحيده عَزَّ وجل، وتنزيه ذاته سبحانه وتعالى من أن يكون في ربوبيته وألوهيته وعزه وحكمته مثيل له عَزَّ وجل، أو أن تجوز لغيره الألوهية، وهذا يرد به على من اتخذ إلهاً غير الله تعالى، سواء ما زعمت به النصارى لعيسى عليه السلام، أو غيرهم. فإنه هو الموصوف عَزَّ وجل بكمال

العزة والحكمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فإن ربكم الله تعالى هو العزيز الحكيم، والعزيز غالبٌ لا يُغْلَبُ، وكذلك العزيز يكون عزيزاً في نقمته ونصرته. وهو الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة.

وكذلك قد وصف ذاته سبحانه وتعالى بأنه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو حكيمٌ في أمره، وحكيمٌ في ملكه، كما أنه أحكم مُلْكَهُ إيجاداً وتدبيراً وعلماً وقدرة، فلا مساغ أن يكون غيره معه، أو معه إله. فسبحان الله الواحد الأحد، العزيز الحكيم. وأنه عَزَّ وجل هو الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما تفيد دلالة ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

وهذا يفيد أهمية أن يتقرر في قلب كل مسلم وحدانية الله تعالى، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فلا يتوجه بعبادته إلا له سبحانه وتعالى، من غير رياء ولا سمعة، وألا يستعين ولا يستغيث ولا يستجير ولا يتوكل إلا على الله تعالى، وأن يقرر في قلبه وفعله أن الله هو العزيز، وبالتالي لا يتعزز ولا يتكبر بنعمة خاصة أو عامة، فهو الذي أعطى بحكمته سبحانه وتعالى، وهو الذي ينتزع ما شاء، إذا شاء بقدرته وحكمته. ومن الفوائد كذلك أنه قد تقرر في هذا المقطع من الآية الكريمة أنواع التوحيد.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني المبارك إلى مضمون محتوى القرآن المجيد، وأحوال الفهم فيه، وأحوال المرجفين من أصحاب الزيغ والضلال. فقال جَلّ شأنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ فهذا تقرير وبيان رب العالمين عن مضمون كتابه العزيز. فابتدأت الآية بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، باعتباره هو المعني أولاً بالتلقي من جبريل عليه السلام، ولأنه نَزَّله تبارك وتعالى على قلبه صلى الله عليه وسلم. وكذلك يشمل الخطاب جميع المؤمنين باعتبارهم تبعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم، ولأنهم مخاطبون به. والتخصيص يُفيد التكريم في هذا المقام.

ويفيد هذا الأسلوب القرآني الكريم في منهجية تحرير الخطاب للغير: أن في تخصيص ذي المقام الكبير بالتوجيه تكريم له، وأن من معه تبعٌ له، وذلك بحسب المقام وموضوع الخطاب. كما يفيد أن صاحب الشأن هو المعني بمراده فيما يقول، وأن له أن يبين مقاصده، وألا تُحَمَّل مقاصِده ومضمونه على غير مراده. فالله تبارك وتعالى تفرد بإنزال القرآن العظيم، وهو الذي يُرَدُّ إليه العلم في فهم كتابه الكريم ومراده العظيم.

وقد تضمنت الآية الكريمة: أن مضمون القرآن الكريم نوعان من الآيات الكريمة ﴿ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ فكتاب ربنا العظيم يشتمل على ﴿ ءَايَٰتٞ

مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ وهي ما عُرف تأويله، وفُهِمَ معناه وتفسيره[١] وهي بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، فهذه كما قال تعالى ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الذي يُرجع إليه عند الاشتباه[٢] والمحكمات كذلك هُنَّ اللواتي قد أُحْكِمْنَ بالبيان والتفصيل، وأُثْبِتَت حُجَجُهُنَّ وأدلَّتُهُنَّ على ما جُعِلْنَ أدلة عليه، من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومَثَلٍ، وعِظة وعِبر، وما أشبه ذلك.[٣] والمحكم أصلٌ تُرَدُّ إليه الفروع[٤]

والنوع الثاني من آيات الكتاب العزيز، كما قال تعالى ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ وهي الفروع التي تُفهم بِرَدِّهَا للأصول من الآيات المحكمات. فمن رَدَّ المتشابهات إلى الواضحات منه، وحَكَّمَ مُحْكَمَهُ على متشابهة فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الذي يُرْجَع إليه عند الاشتباه.[٥] وللعلماء تفصيل في دلالات ومعاني المتشابه. وهذا التفصيل هو من عظيم فوائد هذا العلم القرآني، لاستثارته عقول العلماء، واستحثاث أفكارهم، لبذل الجهد في تقصي معرفة العلاقة بين المتشابه وغير المتشابه، فيتميزون عن غيرهم بما حَصَّلُوا من العلم، فيرفع الله درجات ثوابهم، ومنزلتهم ومكانتهم بفضله ومنِّه، ويزدادون بذلك علماً، وقدرة علمية عظيمة، لا يدرك قيمتها عليهم إلا من جالسهم، وحضر دروسهم ومجالسهم، ونظر كيفية استنطاقهم للمعاني والدلالات.

ومن فوائد المتشابه: حصول الفحص والتأمل، من النظر والاستدلال، ولما في المتشابه من الابتلاء والاختبار، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٢/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٨/٥ ــ ١٨٩)

(٤)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٤)

(٥)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٢/١)

القرائح في استخراج معانيه، ورَدِّه إلى الْمُحْكَم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله تعالى.[١]

ثم يبين الله تعالى أن الناس نوعان حيال الْمُحْكَم والْمُتَشَابِه، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ فأهل الزيغ، الذين هم أهل الضلال، والشك، يخرجون بالمتشابه عن الحق إلى انحرافهم، فينحرفون به عن مقاصده إلى مقاصدهم الفاسدة، ويُنَزِّلوه عليها. بهدف الفتنة والتحريف ﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ فَيُضِلُّون به أتباعهم، ويُهِمُونهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة، الْمُصَرِّحَة بأن عيسى خَلْقٌ من مخلوقات الله، وعبده ورسول من رُسُل الله تعالى.[٢] وأما النوع الثاني حيال المحكم والمتشابه، فهم الراسخون في العلم ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وأما الراسخون المتضلعون في العلم فإنهم يؤمنون به، ويردونه إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بردهم المتشابه إلى المحكم.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ ﴾ أن مكان الزيغ ومحله القلب، وهذا يتوافق مع قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ وقوله تعالى في سورة الحج ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ وغيرها من الآيات الكريمات. وهذا يدل على أن القلب هو الْمُنَاطُ به الفكر والعلم، والمرض والإيمان والكفر والزيغ. اللهم أصلح قلوبنا.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٥١/١)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٣/١)

ومن الفوائد كذلك بيان الهدف، وهو ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ مما يفيد كذلك أن الأهداف ذات ارتباط وثيق بالنوايا، وهي المؤثر في السلوك، فأدى زَيغُ قُلُوبِهِم إلى انحرف الهدف نحو البحث عن دعم الفتنة ونشرها والاستدلال عليها، لقلب الموازين والحقائق. مما يوجب أن يلوذ المسلم بالله عَزَّ وجل من الزيغ والضلال، والفتنة والافتتان بأي وجه كان. ومعنى ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ طلب الشبهات، واللبس على المؤمنين وغيرهم، حتى يُفسدوا ذات بينهم، ويردوا الناس إلى زيغهم، ويُثَبِّتُوا الذين معهم على الانحراف.

والهدف الثاني: هو تحريف القرآن الكريم ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي تحريفه على ما يُريدون. وقيل يبتغون أن يَعْلَمُوا ما سوف يكون، وما عواقب الأشياء من القرآن.[١] ويفيد هذا: أهمية الحذر ممن مسلكهم ومنهجهم ابتغاء التحريف، لأن هذا البيان الرباني فيه تحذير لهم، وكشفٌ لمقاصدهم السيئة، وكذلك تحذير للمؤمنين منهم ومن مسلكهم ومنهجهم الخبيث.

وهذا يفيد الحذر من الهوى، ومن النوايا الفاسدة، في التعامل مع القرآن الكريم على غير مراد الله تعالى، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وهذه الآية تَعُمُّ كُلَّ طائفة من: كافر، وزنديق، وجاهل، وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.[٢] وقد كان الأئمة من السلف يُعَاقِبُونَ من يسأل عن تفسير الحروف في القرآن[٣] وذلك لمنع الفتنة وحدوث البدعة، وأن لا يسأل الإنسان إلا فيما يحقق النفع. تأدباً مع كلام الله تعالى، من أن يتجرأ عليه. وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا عائشة: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عَنَاهم الله، فاحذروهم)[٤]

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٣/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٤)

(٣) المرجع السابق (١١/٤)

(٤) ابن ماجه، المقدمة. باب: اجتناب البدع.

ثم بين الحق تبارك وتعالى المخصوصون بمعرفة تأويله، فقال تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ فالراسخون هم المؤمنون، الثابتون، المتمكنون، الذين يقولون بما قال الله تعالى عنهم ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وجاء في التفسير: وما يعلمُ تأويله الذي أراد ما أراد إلا اللهُ تعالى. والراسخون في العلم يقولون آمنا به، ثم رَدُّوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمات، التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصَدَّق بعضُهُ بعضاً، فنفذت به الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودُمِغَ به الكفر.[١] فأهل العلم، الراسخون فيه، هم الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف، فيعلمون أن القرآن كله من عند الله تعالى، وأنه كُلُّهُ حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المتشابه الذي يحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم فيعودُ كلُّه محكماً.[٢] ويقولون ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أي الْمُحْكَمِ والْمُتَشَابه كله من عند ربنا. وتسميتهم بالراسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم، الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب. والمتشابه منه لا يعلمه أحد إلا الله تعالى، كأمر الروح والساعة مما استأثر الله تعالى بغيبه.[٣]

ومن فوائد عظيم تفسير أهل العلم، هو ربطهم بين المعاني ودلالاتها، وبين الوقف على الآية، قال الامام ابن كثير رحمه الله تعالى: أن التأويل يُطلق ويُراد به في القرآن معنيان. أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ وقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢١/٥) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٥/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٣٠/١)

(٣)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/٤)

تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ أي حقيقة ما أُخْبِرُوا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة. لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عَزَّ وجل، ويكون قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ مبتدأ ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ خبره. وأمّا إنْ أُرِيدَ بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء، كقوله تعالى في سورة يوسف ﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ ﴾ أي بتفسيره، فإن أُرِيد به هذا المعنى، فالوقفُ على ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ لأنّهم يعلمون ويفهمون ما خُوطِبُوا به بهذا الاعتبار. وإن لم يُحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كُنْهِ ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قولُه تعالى ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ حالٌ منهم(١). فيكون تناسق الوقف، متوافق مع دلالة تفسير ما قبله أيضاً. فالذين في قلوبهم زيغ يريدون تحريفه على ما يريدون ﴿ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ أي تحريفه على ما يُريدون، فيبتغون التأويل للعلم بما سيكون، وما عواقب الأشياء وكنهها، وهو الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. فيكون الوقف عند لفظ الجلالة هو الأنسب ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

وفي هذا الفهم من العلماء ما يفيد ويبين فضلهم، وفضل بعضهم على بعض، وأن الراسخين في العلم يستنبطون ما يتوصلون به إلى الحق بما حباهم الله تعالى من الإلمام بآيات القرآن الكريم، وما تفتقت عنه عقولهم من العلم الذي وفقهم الله تعالى إليه. فجمعوا بين دلالات التأويل والمراد بها، ومن ثم رَدُّها إلى دلالة الوقف في كلا الوجهين بالدليل من دلالات آيات القرآن الكريم.

وهذا فيه إعجاز بياني للقرآن الكريم، إذ أنه إذا وُقِفَ على لفظ الجلالة ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فالمعنى أنه لا يعلم تأويل ما تنتهي وتؤو إليه الأمور إلا الله سبحانه وتعالى.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٥/١)

وإن أُريد بالتأويل التفسير والبيان ومعرفة معنى الكلام، فيكون الوقف على قوله تعالى ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ لأنهم يعلمون كيف يُنَزِّلون نصوص الكتاب والسنة، ومحكمها ومتشابهها، ويكون هذا مدح للراسخين في العلم، بما حباهم الله تعالى من العلم والفهم، والتزكية لهم في فهم كتابه سبحانه وتعالى. مع ما قبله من توجيه العلماء للوقف، وما يترتب عليه من دلالات، كما يُفيد بأن لا يتجرأ الإنسان على كتاب الله تعالى خاصة، وعموم شريعته عامة بتأويل وتفسير وتوجيه إلا بعلم، كما هو شأن العلماء الذين ظهرت قدرتهم العلمية في تأويل دلالات القرآن الكريم، بما حباهم الله تعالى من القدرة على استجماع آيات الله تعالى، الْمُقَيِّدَةُ للمطلق، والناسخة للمنسوخ، ومعرفتهم بمعاني اللغة، وجمعهم للسنة النبوية المباركة، وما قاله الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وما قاله من سبقهم من العلماء. وهذا لا يملكه كل أحد من الناس، إلا الراسخون في العلم.

ومن الفوائد في فهم القرآن ما ذكره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى[1]

ثم بين الله تعالى فضل العلماء والعقلاء الْمُتأدبين مع كلامه تعالى، فقال عَزَّو جل ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ فما يتذكر ويتعظ وينزجر عن أن يقول في متشابه آي كتاب الله تعالى بما لا علم له به، إلا أولو العقول والنهى. فما يَذَّكَّر في مثل هذا، بِرَدِّ تأويل المتشابه إلى ما قد عُرِف من تأويل المحكم، حتى يَتَّسِقَا على معنى واحد، إلا أولو الألباب.[2] فالْمُتَّعِظون الواقفون عند حدود الله تعالى بلا تجاوز، هم الْذين مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم، أما السفهاء من الناس فيتجرَّؤون بما يشاؤون، لسفه عقولهم، فانتفى المدح عنهم. وهذا يقتضي أن يجعل المؤمن هذا التوجيه الرباني، ضابطاً لعلمه وسؤاله، وتعامله مع كتاب الله تعالى، وعموم شريعته.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٤/١)

(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٧/٥)

ثم كان الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بأن يثبتهم ولا يزيغَ قلوبَهم بعد أن تبين لهم الحق، فيقولون ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ فلا تجعلها تميل عن الحق إلى الباطل. مما يدل ويفيد حاجة وافتقار الإنسان إلى ربه قبل الهداية وبعد الهداية، وألا يغتر بما هو فيه، بل يسأل الله تعالى الثبات، كما ثبت قوله صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)(١) وكذلك يقولون ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ فيسألون الله تعالى باسمه الوهاب، أن يعطيهم من رحمته ما تَثْبُت به القلوب على الحق، فلا تزيغ عنه. وهذا باعتبار أن الدعاء جاء في سياق سؤال الثبات وعدم الزيغ. ولكنه أعم باعتبار عدم التخصيص في طلب الرحمة، فطلبوا من الله تعالى عموم الرحمة ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ فكانت عامة، لعلمهم بأن الله تعالى وهاب، واسع العطاء. فتشمل الثبات والزيادة على ذلك.

ثم من الفوائد أن قالوا ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ أي تفضلاً من عندك، لا بسبب مِنَّا، ولا بعمل مِنَّا. وفي هذا تذلل لله تعالى، واستصغار ما يقدمون، وما يقومون به من طاعة، مما يُوجب على العبد المؤمن أن يستفيد من هذا الأدب في السؤال، وألا يرى أن طاعته مُوجبة لعطاء الله تعالى، إلا كرماً وجوداً منه عَزَّ وجل. ومن الفوائد أن سألوا الله تعالى باسمه الوهاب﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ أي: الكثير الفضل والعطايا والهبات. وهذا يبين ويفيد عظيم هذا الدعاء، والسؤال بالاسم الذي يناسب مقام الدعاء.

ثم يقررون لربهم إيمانهم بيوم البعث والجزاء ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ومعنى الكلام كما قال الإمام ابن جرير الطبري: ربنا إنك جامع الناس ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذ، واعف عنا، فإنك لا تُخلف وعدك، الذي هو: أن من

(١) الترمذي، الجامع الصحيح (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

آمن بك واتبع رسولك، وعمل بالذي أمرته به في كتابك، أنك غافر ذنبه يومئذ.[١] اللهم يا ربنا، إننا نؤمن ونقر بأنك جامع الناس في يوم لا شك ولا ريب فيه، وتفصل وتحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وتُجازي كلاً بعمله. وإنك يا ربنا لا تُخلِف ما وعدت به، فاللهم ثبتنا وارحمنا.

ومن الفوائد: أنهم قد أثبتوا إيمانهم بيوم الفصل ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ لأن في الإيمان بيوم الفصل ما يتقرر به الحقائق الغيبية في قلب المؤمن. كما تقرر عندهم صدق وعد الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ اللهم اكتبنا مع المؤمنين المتقين الأبرار بفضلك يا وهاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

ابتدأت الآيات الكريمات في هذا المقطع ببيان انقطاع الناصر والمعين من الأموال والأولاد للكافر، فإنها لن تنجيهم من عقوبة الله تعالى إذا أحلَّها بهم عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ فليس الأمر كما يتصورونه في الدنيا من الأسباب التي ينتصر ويتقوى فيها الإنسان بماله وولده على غيره من البشر، فليس الأمر كذلك أمام أمر الله تعالى، فلن تدفع عنهم أموالهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٣٣)

وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً. وهذا النفي هو أسلوب بياني، ينفي به المقاييس الدنيوية أمام إرادة الله تعالى.

ويُستفاد من ذلك أن المؤمن إذا أراد اللهُ تعالى نُصرتَه، نفعه في الدنيا بالأسباب، ونفعه في الآخرة بما قَدَّمَ وأبقى من خير في الدنيا، كالولد الصالح يدعو له، أو مال طيب أنفقه في سبيل الله تعالى، أو وقف أوقفه لله عَزَّ وجل، فيجد المؤمن ثوابه أمامه يوم القيامة. فنفى الله تعالى صورة القوة والنصرة الدنيوية عن المال والأولاد للكفار سواء في الدنيا، أو يوم القيامة. فلا نفع لهم بها في الآخرة البتة، وإن أراد الله تعالى بالكافر عقوبة في الدنيا، فلن يستطيع ماله ولا ولده نصرته، وربما كانوا نقمة عليه. بل إن الكافرين وقود النَّار يوم القيامة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ نعوذُ بالله من النار. وفي هذا تحذير من الانخداع بالمال والأولاد والجاه، وكل قوة مادية ومعنوية أمام عقوبة الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى منهج الكافرين، وسيرتهم المتتابعة والمتعاقبة ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فتكذيبهم كمثل وعادة تكذيب آل فرعون والذين من قبلهم في الجحود والإنكار والتكذيب بآيات الله تعالى وبالرُّسُل، وما معهم من الحجج والبراهين. مما يدل على أن منهجية الكفر واحدة في تعاقبها وتكرارها. وهذه فائدة عظيمة يبينها الله تعالى للمؤمنين، من أن منهج الكفر واحد.

ويقول الله تعالى عنهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ فأهلكهم الله تعالى بسبب ذنوبهم، مما يدل على خطورة المعاصي والذنوب، وأن الكافر قد تتصل وتتواصل عقوبته الدنيوية بعقوبته في الآخرة، وهذا تحذيرٌ للكافرين من عقوبة الله تعالى، ومن الاستهانة بها. فإن عقاب الله تعالى شديد، كما بين سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فعقاب الله تعالى شديد لمن كفر به وكَذَّب رُسُلَهُ، بعد قيام الحجة.

وهذا الوعيد الشديد للكافرين، هو من وجه آخر بشارة للمؤمنين بنصرهم على أعداء الدين، وأن الله تعالى منتقم من الكافرين، وأنهم غالبون ومنتصرون بنصر الله تعالى لهم، وقد

انتصر المسلمون في بدر على الكافرين، مع قلة عددهم، إذ كان عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، حيث بلغ عددهم ألف رجل، بينما كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

وقد جاء في الآية التالية ما سيحصل للكافرين في الدنيا والآخرة ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ وجاء في التفسير أنه لما أصاب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فَقَدِم المدينة، جمع يهود في سوق بني قينقاع، فقال: (يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يُصيبكم مثلُ ما أصاب قريشاً) فقالوا: يا محمد لا تَغُرَّنَّك نفسُك، أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً، لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفْتَ أنَّا نحنُ الناس. وأنك لم تأت مثلنا. فأنزل الله عَزَّ وجل في ذلك ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[١] وقيل نزلت في قريش، قبل وقعة بدر، فحقق الله وعده يوم بدر.[٢] وسواء كانت قبل بدر أو بعدها، فالهزيمة قد وقعت وتحققت بالمشركين في بدر وغيرها، وكذا اليهود في غزوة بني قريظة، وخيبر.

وفي هذا ما يدل على فائدة نزول القرآن منجماً، ليعالج واقع ما كان يحدث، ولتسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتثبيتاً لهم، إذ يرون تحقق ما وعد اللهُ تعالى به أمامهم. وليكون لمن بعدهم عِظة وآية، وأيضاً يستمر عموم اللفظ عن خصوص السبب، فيما يراه المؤمنون عبر التاريخ من هزائم الكافرين أمام المؤمنين حتى يكون آية ودليلاً.

وفي ذلك بيان للمؤمنين بحال الكافرين، من أنهم مهزومون أمام المسلمين في الدنيا، وأنهم سوف يُحشرون إلى جهنم في الآخرة. وأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله تعالى شيئا. وفيه كذلك بيان للكافرين بحالهم في الدنيا والآخرة. ليكون نذيراً لهم، وحجة قائمة عليهم، بل وفيه تقرير هزيمتهم قولاً ووعداً من الله تعالى، ثم تقريره واقعاً وفعلاً، ليكون آية ونذيراً، وحجة قائمة

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٩/٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٠٤/١)

عليهم، وبياناً واضحاً من أن القرآن الكريم حقٌ وصدقٌ، وأن محمداً حقٌ وصدقٌ، وأنه رسولٌ ونبيٌ، صلى الله عليه وسلم.

ثم تأتي خاتمة الآية الكريمة بوصف مآلهم، بأشنع الوصف ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ولفظة ﴿ وَبِئْسَ ﴾ مستوفية لكمال الذم، كما أن "نعم" مستوفية لكمال المدح. فبئس المأوى والمفترش من جهنم، وبئس ما مهدوا لأنفسهم حتى كانت جهنم هي المصير لهم. فنسأل الله تعالى العافية. وفي هذا ما يفيد التحذير لهم من المآل، والتحذير لغيرهم من مسلكهم الكفري العنادي. وأن فيما وقع لهم عبرة لغيرهم ولكل مُعْتَبِر.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى معجزة ربانية عظيمة، وهي انتصار المؤمنين على المشركين في غزوة بدر، مع قلة عددهم وتضاعف عدد عدوهم وعتادهم بثلاثة أضعاف، قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾

فابتدأت الآية الكريمة بلفت وشد الانتباه إلى آية وبرهان في فئتين التقتا، وبأسلوب غاية في شد الانتباه. قال عَزَّ وجل ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ فانطلق مطلع الآية الكريمة بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ قَدْ ﴾ ثم تلاه التوجيه بالاعتبار منهما قبل التصريح بالنتيجة لشد الانتباه ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ فدلالة ﴿ ءَايَةٌ ﴾ أنها علامة واضحة وحجة قاطعة، تدل على وجوب الاعتبار بهذا البرهان الواضح. ليأتي بعد ذلك البيان لهما.

وقد تضمن هذا الأسلوب القرآني جذب الاستماع، والمتابعة المتواصلة لما بعده من البيان، مما يفيد أهمية الأسلوب في التوجيه والبيان، وتحرير الخطاب والمقال، وفي كل موقف يحتاج لمثله. وفي لفظة ﴿ ءَايَةٌ ﴾ التي هي العلامة، استثارة دقيقة للمتابعة، من أجل معرفة هذه الآية من

الفئتين. وكذلك في لفظ ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ مزيدٌ من شد الانتباه لمعرفة علة هذا اللقاء، إذ لم يتبين ماهية لقاء الفئتين ابتداء.

ثم بين الله تعالى هدف كل فئة منهما ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي فئة المؤمنين، هدفها أن تنصر دين الله تعالى، لأنها تقاتل في سبيل الله تعالى. وأما الفئة الثانية، فهي كافرة، وهدفها مناصرة الكفر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ ثم بين الله تعالى التباين في تكافؤ الأسباب المادية، وكيف كانت الأسباب الربانية التي خرجت بالأسباب المادية عن طبيعتها وسُنَّتِها، لتكون آية وعلامة بأن هذا الدين حق، وأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حق، وأن هذا القرآن الكريم حق، فيقول تبارك وتعالى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي ترون أيها المؤمنون المشركين مثليكم في العدد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلل الله تعالى المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إياهم، مثلي عِدَّتهم، لتقوى أنفُسُهُم، ويقع التجاسر، وقد كانوا أُعْلِمُوا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار. وقلل المسلمين في أعين المشركين ليجترئوا عليهم، فَيَنْفُذُ حُكْمُ الله تعالى فيهم.(١) وعن أبي عبيدة، عن عبدالله، قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً(٢)

وهنا تظهر المعجزة في الرؤية البصرية، فما يراه المسلمون بقدرة الله تعالى من المشركين، أقل مما هم عليه، فكأنهم ضعف عدد المسلمين. أي كأن عددهم ستمائة، فتقوى نفوسُهم على المقاتلة لعدوهم، وهذا يدل على أن قوة الله تعالى قد تكون في الأمر الذي لا يمكن أن يقرره أو يُحْدِثُهُ بشر، بل ولا يمكن له أن يتصوره أبداً، إذ تَحَكَّمَت قدرة الله تعالى في الرؤية البصرية التي أثرت في القلوب، فكانت من أسباب النصر. إذ انقلبت كفة الموازين، بمجرد تغيير الصورة البصرية، وقد يكون التأثير بما يقذفه عَزَّ وجل في القلوب من الخوف، مع قلة إمكانات المسلمين، كما قال تعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/٤)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥١/٥)

في سورة الحشر ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ والذي يأتي بيانه في مكانه إن شاء الله تعالى. فهو الذي ينصر من يشاء بتدبيره، سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فإن الله تعالى يؤيد، فَيُقَوِّي ويُعِين من يشاء. بما يجعل تكافؤ الأسباب يضمحل أمام إرادته عَزَّ وجل إذا أراد أمراً، فهو الذي خلق الأسباب، وهو الذي يسلب الأسباب قوتها وخواصَّها، كما سلب خاصية النار عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وهذا يحقق في قلب المؤمن التوكل على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها من غير الله تعالى، وهذا يكون في شأن المسلم عموماً، فسبحانه وتعالى هو الذي يسخر لعبده ما يشاء، ويدفع عنه ما يشاء. سبحانه مالك الملك، وله مقاليد الأمور، ويُصَرِّفُهَا كيف يشاء.

وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وتأويل الكلام، قد كان لكم آية، يا معشر اليهود، في فئتين التقتا، إحداهما تُقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، تراهم المسلمة مثليهم، رأيَ أعينهم، فأيَّدنا المسلمة وهم قليل العدد، على الكافرة وهم كثير العدد، حتى ظفروا بهم.(١) فهذا مُعْتَبَرٌ ومُتَفَكَّرٌ لكم، لتعتبروا بما حصل للمشركين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فما حصل عبرة لكل بصير، وفي قوله سبحانه وتعالى ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ استحثاث للتفكر والتأمل، لأن هذا لا يغيب عن عقل العاقل، الذي رأى انقلاب الأسباب رأساً على عقب، لتكون موقعة بدر، آية من آيات الله تعالى في نصر المسلمين بثلث قوة عدوهم. فسبحان الله القوي العزيز، ينصر من يشاء بعزَّته، ويُذل من يشاء بقدرته.

ومن فوائد دقائق جهود العلماء في فهم دلالات آيات كتاب الله تعالى، هو قدرتهم بما وفقهم الله تعالى من تمحيص الدلالات القرآنية، وربط دلالات الآيات بعضها ببعض، وهذا علم عظيم، وحظ من الله تعالى لهم أيضاً عظيم، مما يجب ألا ينازعهم غيرهم فيه، ممن لا حظَّ له في ذلك، أو يتجرأ عليهم، وعلى كتاب الله تعالى. فمن دقة فهمهم في هذه الآيات، ربطهم بين قوله

(١) المرجع السابق (٥/٢٥٣)

تعالى ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ إذ بتمحيصهم لآيات القرآن الكريم وربط بعضها ببعض، تبين لهم أن دلالة لفظ الآية، يدل على أن المسلمين هم الذين رأوا الكافرين مثليهم في العدد، أي ضعف عدد المسلمين، وليس ثلاثة أضعاف عددهم كما هو الواقع. وذلك بما يتوافق مع قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ فأخبر أن كلاً من الطائفتين قليلٌ عددُها في مَرْأى الأخرى.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى ما يفتتن به الإنسان في الدنيا، وما يلزم أن يكون عليه تجاه الآخرة، التي هي خيرٌ وأبقى. فابتدأت الآية العظيمة ببيان حقيقة حُب الإنسان للشهوات، وما يجهله عن سر حُبّه للشهوات، كما بينت أنواع تلك الشهوات، ثم بينت في الختام ما عند الله تعالى، مما هو أحسن من تلك الشهوات. وهذا هو مُجْمَل محتوى الآية الكريمة.

وفي صياغة محتواها يظهر الإعجاز البياني في الأسلوب الذي استهل به البيان ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ فأورد الله تعالى التزيين بصيغة حذف فاعل التزيين ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ليتحقق به أن ليس الإنسان هو الفاعل الأصلي ولا الْمُوجد لها، وإنما هو المستخدم لهذه الخاصية. فالتزيين ليس من الإنسان، بل الذي زينها هو الله تعالى لهذا الإنسان، ثم جعل للإنسان حيالها ضوابط شرعية لينضبط مسارها في الاتجاه الصحيح لهذا الإنسان، ولكن الشيطان فاعل لتزيين هذه الشهوات بطريق وطريقة مغايرة لمراد الله تعالى، أي: ليسير بها الإنسان على غير ما فطرها الله تعالى وأرادها، فإن تزيين الشيطان للإنسان بما يدفعه لمجاوزة الضوابط الشرعية. وأمَّا تزيين الله تعالى للإنسان حُب الشهوات والميل إليها فهو لغاية عظيمة وهدف قويم، حتى يمارس الإنسان بها حياته وفق الضوابط الشرعية، إذ لو لم تكن هذه الشهوات موجودة في الإنسان لتعطلت حركته. وأما الغاية الأخرى لها فهي لتكون هذه الشهوات ابتلاء لهذا الإنسان، من حيث التزامه للحدود والضوابط الشرعية التي حَدَّها وشرعها الله عَزَّ وجل في شرعه الحكيم، والتي ضبط الله تعالى بها التعامل مع هذه الشهوات، وكذلك حتى تتحقق الحكمة من وجود هذا الإنسان على هذه الأرض.

وتُعْرَف حقيقة الحكمة من تزيين الشهوات للإنسان، من أنه لو فقد ميله وحُبَّه لهذه الشهوات، فإنه لن يكون له تفاعل معها ولا انجذاب، ولتعطل حال الحياة وحاله معها على الدوام والاستمرار. فلو أن الإنسان فقد شهوته للنساء، فلن يندفع للزواج ولتعطل الإنجاب، ولو فقد شهوته للبنين، لتوقف النسل، وانحصرت شهوته للنساء في الجماع فقط، وعطَّل الإنجاب. ولو فقد شهوة حُب المال، لتوقف سعيه وبيعه وشراؤه، وتعطلت مصالح الناس فيما بينهم، بما يمتهنون من أعمال وتصنيع وإنتاج وتجارة وخدمات لبعضهم البعض، ولأصبح مَثَلُ الإنسان كمثل البهائم في كسب الرزق والمال، واكتفى بما تُنْبِته الأرض من نبات، دون أن يكون له شأن في إعمارها بما هو عامر اليوم. وهكذا في بقية ما يشتهيه.

وسُمِّيت شهوات، لكونها أصبحت مُشْتهاه عند الإنسان، بما وضع اللهُ تعالى من حب وميل لها، فأصبح يشتهيها، ويحرص عليها وعلى الاستمتاع بها. فأصبح حُبُّ الإنسان لها حُبُّ شهوة طلبية لها. وهذا الحب يدفع الإنسان لتلك الشهوات، التي ضبطها الله تعالى بشريعته، وذلك

بما بينته الشريعة الغراء، مما نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فتم ضبط العلاقة بين الرجل والمرأة بضوابط عقد الزواج، وبتشريع العلاقة عندما تكون زوجة، وعندما تكون في غير ذلك بحسب العلاقة، وكذلك ضبط العلاقة الأبوية، والمعاملات في البيوع والشراء والادخار، وكل ما يتعلق بالمال.

وأما فعل الشياطين فهو تزيين مخالفة الضوابط، فَيُزيِّن العلاقات المحرمة بين الرجل والمرأة، والطمع والجشع في المال، بما يجعل المرء يرتكب المحرمات في جميع ذلك، وهكذا في كل أبواب الشهوات.

وبالتالي فَتَزْيينها نعمة من الله تعالى، لتستقيم أمور الحياة، وفي نفس الوقت تكون ابتلاء للإنسان، بين جذب الشهوات الشيطانية والانضباط بضوابط الشريعة الغراء، فكانت هذه الشهوات نعمة من وجه وفتنة للإنسان من وجه آخر، فالمال الصالح ممدوح في شريعة الله تعالى، والزواج والتكاثر ممدوح في شريعة الله تعالى، وعناية الزوجة بزوجها والزوج بزوجته ممدوح ومثابٌ عليها في شريعة الله تعالى. فلم تكن تلك الشهوات بابٌ للفتنة واختبار للإنسان فقط، بل أيضاً لتكون باباً للخير والثواب من عند الله تعالى، إذا سار بها المؤمن كما يُحبُّ الله تعالى ويرضاه. وكذلك في الولد الصالح، وفي الأنعام والإحسان إليها، وفي نعمة الاستطعام بها، وفي الحرث وما يتعلق به من أجر وثواب، ولمن طَعِمَ وأطعم منها. والأحاديث النبوية كثيرة في بيان ثواب من استثمر تلك النعم العظيمة، التي ذكرها الله تعالى في النساء والبنين والمال والأنعام والحرث. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (إذا مات الإنسان انقطع عنه عملُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(١)

ومن الفوائد أن التزيين متعلق بمحبة تلك الشهوات ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ فتلك الشهوات قد تكون طبيعية في ذاتها، وليس فيها قوة الجذب، أو أن غيرها أكثر جاذبية منها، ولكن التزيين متعلق بمحبة الإنسان لها، حتى أن الإنسان يحب أن يستكثر منها، مع أن ما عنده قد يكفيه، ولا حاجة للزيادة منها، كما قال صلى الله عليه وسلم (لو كان لابن آدم واديان من ذهب

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (١٦٣١) صحيح ابن حبان (٣٠١٦)

لابتغى إليهما الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب)(١) فالتمني متعلق بالإنسان.

ومن الفوائد ما يتعلق بترتيب تلك الشهوات، فكان بحسب قوة الجذب والاندفاع لها: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ من النساء، ثم البنين، وما يحصل بهم من الرغبة في الاستكثار منهم، والمحبة لهم صغاراً والاعتزاز بهم كباراً، كما جاء في الحديث (اطلبوا الولد والتمسوه، فإنه ثمرة القلوب، وقرة الأعين)[٢] ثم الذهب والفضة، ومحبة الاستكثار منها، وقد جاء وصف محبة الاستكثار منها بالقناطير ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ الكثيرة المجمَّعَة.

والقنطار المال الكثير، وقيل مائة ألف دينار، ولفظة ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مبنية من لفظ القنطار للتوكيد. كقولهم: ألف مؤلفة. ثم ذكر تبارك وتعالى: الخيل التي وصفت بقوله عَزَّ وجل ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي الْمُعَلَّمَة، وهي العلامة، حتى تعرف من غيرها.[٣] وهي الراعية في المروج، والحسنة، والمعدة للجهاد[٤] والتامة الخلق. فاشتمل وصف الله تعالى لها بالمسومة، ما جمع لها أوصاف تكامل المطلب. ثم ذكر تبارك وتعالى المواشي ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي كل ما يرعى من الإبل والبقر والغنم، وإذا قيل: النَّعَم، فهي الإبل خاصة. ثم ذكر سبحانه وتعالى الزرع ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ ويُطلق على كل ما يُحرث ويُبذر من الزروع بأنواعها.

---

(١) ابن حبان برقم (٣٢٣٧) واللفظ له. الهيثمي، مجمع الزوائد (١٤٤/٧)
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٢٥٣/٩)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣٥٥/١)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/٤)

ثم وصف الله تبارك وتعالى تلك المذكورات بالمتاع ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهذا وصف لحقيقة تلك المذكورات، بأنها متاع يتمتع بها الإنسان في الحياة الدنيا، يتزود بها في حياته، ولم يأت هنا لها مدحٌ ولا ذم في ذاتها، ولا في استخدامها، غير أن الله قارنها بما هو أحسن منها، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ فما عند الله تعالى خير وأفضل من ذلك. مما يُحفز المؤمن على أن يأخذ من متاع الدنيا ما يبلغه ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ عند الله تعالى، فيستخدم ويُسَخِّر متاع الدنيا لما يُبَلِّغْهُ ذلك المقام العظيم عند الله تعالى. فخيريتها في استخدامها لمصالح الآخرة، فجاء التحفيز بمقارنة متاع الدنيا الزائل بما عند الله تعالى، والموصوف بالفاضل والأحسن والباقي، فتستحث المقارنة بأسلوب التحفيز والتشجيع إلى أن يُحسن الْمُخَاطَب الاختيار والاستعمال، بعد أن نبهه تبارك وتعالى إلى ما جبله عليه من محبة تلك المذكورات من الشهوات الدنيوية. لأن لفظة ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ تدل على أنها رغبات وميل، فلا يستحسن ممن أراد الآخرة أن يطمع بها إلى الدرجة التي يُضَيِّع معها ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ بل يأخذها بما يوصله إلى ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ وهذا يفيد في جانب التوجيه والإرشاد التعليمي والدعوي والاجتماعي والإداري، وفي أبواب المناصحة عموماً إلى أهمية استثارة الذهن بالمقارنة التفضيلية، التي تدفع الإنسان إلى الانتباه لما هو جاهل أو غافل عنه، أو لتذكيره بما يعلمه مما تشاغل عنه، والتهى به عن الأحسن مآبا.

ثم يَعْقُبُ هذا التحفيز والتشجيع، تحفيزٌ وتشجيعٌ تفصيليٌ آخر، من أجل إيثار ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ وكذلك استخدام متاع الدنيا للآخرة. فقال تعالى ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

قل يا محمد للناس الذين زُيِّنَت لهم حُبُّ الشهوات من النساء والبنين، وسائر المذكورات الأخرى ﴿ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾[١] هل أخبركم بما هو أفضل؟ فابتدأ البيان الكريم بالاستفهام التقريري الذي يفيد التنبيه وشد الانتباه، وتصحيح الفكر بما هو أفضل للمتقين من تلك المذكورات، والاسترسال في الشهوات ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا الاستفهام، سواء كان منتهاه ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أو كان منتهاه ﴿ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ فالفائدة واقعة في الأسلوب التقريري، لأنه جاذبٌ للفكر ومُشَوِّقٌ للمعرفة ومُلْفِتٌ لانتباه المستمع، أو القارئ لآيات القرآن الكريم. وكأن لسان حال الْمُخَاطَب، يقول: نعم. ما هو الأفضل من ذلك؟ أخبرني به يا رب، أخبرني به يا الله. فتكون الإجابة هي ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فحددت الآية العظيمة المخصوصون والمحظوظون بهذا النعيم والخير، بأنه ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وهم الذين خافوا الله تعالى، فأطاعوه، فهؤلاء لهم عند الله تعالى ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ وهي البساتين، التي من صفاتها: أنها تجري الأنهار من خلالها، وأن حياتها حياة خلود دائم لا ينقطع ولا ينتهي ولا يزول، وأن من صفات الأزواج أنهن ﴿ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ من كل أذى، كالحيض والبول، وما أشبه ذلك. ثم بين تبارك وتعالى أن مما في الجنة كذلك ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ورضوان الله تعالى أعلى منازل كرامة أهل الجنة[٢] وجاء في الحديث أنه إذا دخل أهل الجنةِ الجنَّةَ، قال الله تبارك وتعالى (أُعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: أي ربنا، أيُّ شيءٍ أفضل من هذا؟ قال: رضواني)[٣]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٦٨)

(٢) المرجع السابق (٥/٢٧٠ ــ ١٧١)

(٣) الحاكم (١/٨٢) وذكره الطبري (٥/٢٧١)

فتلك صفات الجنة التي وعد الله تعالى بها المتقين، الذين اتقوه في حُب ما زُيِّنَ من شهوات الدنيا. وتُخْتَمُ الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ وفي هذا الاخبار ما يفيد الاحتياط من علم الله تعالى، وأنه بصير بعباده، فيمن يخافه ويتقيه، ومن يعصيه، ويؤثر ما زُيِّنَ من شهوات الدنيا على الآخرة. حتى يُجازي كلاً بما عمل.

ومن الفوائد كذلك: أنه في الآيتين السابقتين، جاء الترغيب والحث على اختيار ﴿ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ من خلال ثلاثة أساليب: الأول: المقارنة بين شهوات الدنيا الزائلة والقصيرة، وبين نعيم الجنة الدائم، الذي لا يـزول. والثاني: الترغيب الترجيحي في الآية، بوصف ما تميزت به الجنة عما لم تميز بها شهوات الدنيا، والثالث: بالسؤال التقريري الْمُثير للانتباه والتأمل والتفكر ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ ﴾ مما يفيد أن قراءة القرآن بتمعن وتَبَصُّر، تستحث القارئ أو السامع نحو حُسن الاختيار لِحُسْنِ المآب. وفي هذا الأسلوب القرآني الكريم، ما يعطي نموذجاً لعمليات التوجيه والارشاد التربوي والدعوي. وأهمية أسلوب المقارنة كمنهج في الاستحثاث على التفكير والتمييز والاختيار، ولفت الانتباه لما تغفل عنه النفس البشرية. كما يمتد سلطان الاستفادة من هذا الأسلوب إلى مناحي الحياة المختلفة: سواء في الحوار، وفي الإقناع، وسواء كان في رحاب الأسرة أو الإدارة والتجارة، أو غيرها من ضروب الحياة.

ثم يأتي المزيد من الوصف للمتقين في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

فأول أوصاف هؤلاء المتقين: أنهم يسعون إلى تحقيق توحيد الربوبية، وذلك بنداءاتهم لربهم بما يحقق هذا التوحيد، فقالوا ﴿ رَبَّنَآ ﴾ نداء طلب لربهم، ونداء اعتراف بربوبيته عَزَّ وجل، ثم بيانهم عن تحقيقهم الإيمان على الإجمال ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ بما يفيد أهمية التقديم للدعاء بالاستغاثة ﴿ رَبَّنَآ ﴾ ثم بما يفيد تحقيق التوحيد، لأنه مقام التذلل لله تعالى.

ثم الصفة الثانية: كانت بطلب المغفرة من غَفَّار الذنوب سبحانه وتعالى ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ والوقاية من عذاب النار ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وفي هذا تحقيق توحيد الألوهية، بصرف العبادة لله تعالى، والتي منها الدعاء. ثم الصفة الثالثة: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهو حبس النفس عن الجزع، وحبسها على الطاعة وعن المعصية، ثم الصفة الرابعة: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهو الصدق في الإيمان والأقوال والأفعال. ثم الصفة الخامسة: ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ وهي صفة الطاعة والعبادة، والخشوع والتذلل لله رب العالمين. ثم الصفة السادسة: وهي ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ وهو الإنفاق بالصدقات والزكاة ونحوها. ثم الصفة السابعة: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ وهو طلب المغفرة من الله تعالى، بالاستغفار من الذنوب والآثام، ومن التقصير في طاعة الله تعالى، ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ الذي هو آخر الليل، قبل الفجر. وقيل هي الصلاة وقت السحر[١] وقيل: الاستغفار هي: الصلاة باعتبار أنهم طلبوا بها المغفرة. فأما السحر فهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر[٢] قال القرطبي رحمه الله: لا تناقض، فإنهم يصلون ويستغفرون[٣] وقال الطبري رحمه الله: وأظهر معانيه ما ذكرناه من الدعاء[٤] وقال الله تعالى في سورة الذاريات ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل. قال ابن زيد: السَّحَر هو السدسُ الآخر من الليل. مما يبين أهمية الاستغفار والاشتغال به في السدس الأخير من الليل. وفضل الله تعالى واسع، سواء كان الاستغفار بما هو معروف باللسان، أو اجتمع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (١/٣٠٩)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٥)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٧٥)

الاستغفار مع أداء الصلاة، فكلاهما يَطلُبُ بها المتقون مغفرة الله تعالى. وهذا يفيد منزلة ومكانة الاستغفار وأهميته وقت السحر. مما يلزم المؤمن تعاهده ولزومه والاجتهاد في تحصيله.

وقد تضمنت صفات المتقين بيان العلاقة بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى، وكذلك ما بين العباد أنفسهم، فالقنوت والاستغفار والصلاة محضة لله تعالى، والصبر متعلق بالعبد مع ربه عَزَّ وجل، وكذلك مع الناس بالصبر عليهم، وكذلك الصدق، فإنه يتضمن الصدق في الأقوال والأعمال وفي جميع المعاملات، ويكون ذلك مع الله تعالى، ومع العباد، وكذلك النفقة فإنها عبادة لله تعالى، ومحققة للتراحم والتعاضد والتآلف الاجتماعي.

ومن عظيم الفوائد أن تضمنت صفات المتقين توحيد الألوهية، وذلك بتوجيه عبادة الدعاء إلى الله تعالى، بأن تُطلب المغفرة من الله تعالى، ويُستعاذ به من النار، ومن غير وسيط بِمَلَك مُقَرَّب أو نبي مُرْسل ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التوحيد، بإفراد الله تعالى بالعبادة، والتي منها الدعاء، حتى يكون من المتقين الذين أعد الله تعالى لهم عظيم الأجر والثواب.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

تناولت هذه الآية العظيمة أمراً عظيماً، وهو وحدانية الله تعالى، وانفراده بالألوهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، وأنهم فقراء إليه، وهو الغني عنهم غناء تاماً، والْمُغْنِي لهم. وابتدأت الآية الكريمة بخبر متحقق، وهو شهادة الله تعالى لذاته العظيمة بألوهيته ووحدانيته، وأنه عَزَّ في علاه هو المتولي لأمر العدل بين خلقه، وأنه لم يُوكله لأحد من خلقه. وأنه الشاهد الذي يعلم الشيء ويبينه جَلَّ جلاله. وكفى بالله شهيداً، فلا يحتاج لشهادة غيره بذلك. وهو أصدق الشاهدين. وأن ربكم تبارك وتعالى ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ والقسط هو العدل، أي: أنه عَزَّ في علاه هو الذي يلي ويتولى الحكم بالعدل بين خلقه.

ويفد هذا: القطع والجزم بعدم التنازع في ألوهيته، ووجوب صرف العبادة له وحده لا شريك له سبحانه وتعالى بعد أن استشهد عَزَّ في علاه بنفسه على ذلك، ليبين ويُفِيد بهذا الاستشهاد تعظيم هذا الأمر، وعظيم منزلة التوحيد، بإفراد الله تعالى في الخلق والملك والتدبير، وفي صرف العبادة له وحده لا شريك له. وقد ثنى في الشهادة بملائكته المسبحة بحمده ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ثم استشهد على هذا بأهل العلم الذين عرفوا مقام الله تعالى، ومنزلة توحيد ربوبيته وألوهيته جَلَّ جلاله. ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه منزلة رفيعة ومنقبة عظيمة للعلماء الربانيين. مما يلزم وجوب تقديرهم لما عرفوا من جلال الله تعالى ومن الحق، ولِمَا يقومون به من تعليم الناس ما استشهد الله تبارك وتعالى به لنفسه عَزَّ في علاه.

ومن الفوائد: أن الله تعالى قادرٌ على أن يوكل أمر الفصل بين الخلائق للملائكة، كما أوكل إليهم النزول بالكتب على الرُّسُل، وهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم، فيفعلون ما يؤمرون، ولكن لعدله تبارك وتعالى، ولعظيم هذا الأمر، خص به نفسه العزيز الحكيم، مما يفيد عظيم عدله، وعظيم قدرته، وأنه سريع الحساب، وأنه لا يُعجزه شيء، وأن قدرته لا تُفهم من القياس على قدرة خلقه، سبحانه وتعالى العزيز العظيم.

ثم تنتهي الآية الكريم ببيان أنه لا معبود ولا رب ولا خالق سواه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقد تضمنت نفياً وإثباتاً. فنفت كل إله ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ وأثبتت وحصرت انفراد أُلوهيته جَلَّ شأنه له وحده لا شريك له ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ وبالتالي قد بَطُلَ وأبطل كل ما يُعبد من دونه عَزَّ في علاه، وفي ذلك حصرٌ للعبودية فيه تبارك وتعالى، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود، وحصرُها فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى، فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل.

وتضمن ختام الآية الكريمة أنه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إثبات وحصر كمال العزة والحكمة له جَلَّ جلاله. فهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا ينتصر منه أحدٌ عاقبه أو

انتقم منه. والعزيز غالبٌ لا يُغْلَبُ، وكذلك العزيز يكون عزيزاً في نقمته ونصرته. وهو الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة.

وأنه تبارك وتعالى هو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو الحكيم في تدبيره، فلا يَدْخُلُهُ خلل، وهو الحكيم في أمره فلا يعترض عليه أحد، وحكيمٌ في ملكه فلا يظاهره أحد، كما أنه عَزَّ وجل قد أحكم مُلْكَهُ إيجاداً وتدبيراً وعلماً وقدرة، فلا مساغ أن يكون غيره معه، أو معه إله يشاركه. فسبحان الله الواحد الأحد، العزيز الحكيم. وأنه عَزَّ وجل هو الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وبما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. وأن كتابه القرآن الكريم كتاب محكم، فلا يعتريه نقص ولا تناقض، وأنه مستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما أن في هذا بيان لكمال أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، التي تُرَبِّي في المؤمن التذلل والتواضع لعزته، والامتثال والإذعان لتدبير حكمته. فسبحان من عَلَّمَ وربَّى بأسمائه وصفاته أعظم العلوم وأصدق التربية.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

استهلت الآية الكريمة بتقرير خبر من الله تعالى، وهو أن الدين المقبول عند الله تعالى، هو دين الإسلام. وهو إخبارٌ منه سبحانه وتعالى بأنه لا دين عنده مقبول، ويقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرُّسُل فيما بعثهم الله تعالى به، حتى خُتِمُوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله

تعالى بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل[1] ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ وبهذا التقرير الربَّاني، ينتفي كل دين غير الإسلام الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وكذلك ينتفي به كل اجتهاد بدعي بإضافة زائدة في الدين، أو إنقاص شيء من دين الله تعالى، أو تحريف له عما قرره الله تعالى في شريعته، التي أبانها النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وبهذا التقرير تتلاشى جميع الديانات وجميع التسميات البدعية أمام دين الإسلام.

ثم يأتي التحذير من خلال الإخبار عن حال أهل الكتاب، بأسلوب الخبر عما كان من واقعهم ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾ وهو أسلوب وعظ وتحذير، بما يُفيد إياكم أن تختلفوا في دينكم كما اختلف أهل الكتاب من بعد ما جاءهم العلم بشريعة الله تعالى، بسبب البغي، الذي هو الجور والظلم ومجاوزة الحد، لعلة الكبر والبطر. مما يُفيد خطورة البغي وما يتضمنه من حُب الاستعلاء والتطاول على الغير بالرأي والاجتهاد والفكر، وعدم الإذعان للحق ولمن معه الحق، بطراً على التواضع الذي يذعن به صاحبه للحق، ولمن معه الحق، ولمن أظهر الله تعالى على يديه الحق.

وفي قوله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾ ما يفيد أن اختلافهم متعلق بخلافهم في كون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً أو لا، وقيل اختلافهم في نبوة عيسى، وقيل اختلافهم في ذات بينهم[2] وجميع أحوال هذا الاختلاف تُثبت بغيهم على الحق. ومن ذلك بغيهم على الحق بعد أن جاءهم العلم بصفة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم، وأما إن كان الاختلاف متعلق بعيسى فيكون من

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٢/١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٦/١)

بعد ما جاءهم الإنجيل في أمر عيسى من أنه عبد الله ورسوله[١] وأياً كان المقصود، فإن في ذلك فائدة عظيمة، وهو استيعاب رحابة النص الكريم لهذه الدلالات التي توثق حالات اختلافهم في أمر عيسى عليه السلام، وفي أمر محمد صلى الله عليه وسلم، واختلافهم فيما بينهم، بالرغم من أن مصدر ومضمون العلم واحد لا اختلاف ولا خلاف فيه، وهذا من عظيم كلام ربنا تبارك وتعالى وبلاغته الاستيعابية، إذ احتوت دلالة النص على جميع حالات اختلاف أهل الكتاب.

وهذا يفيد: التحذير من الاختلاف بعد العلم، وأن الإنسان قد يحصل له العلم بالحق، ويُخالفه بسبب البغي، ومحبة التطاول والظهور على الغير، فَيَصُدّ عن اتباع الحق والخير بغياً وانتصاراً للهوى، وللشيطان اللعين، فليحذر المسلم من هذا السلوك، وأن عليه مجاهدة نفسه على قبول الحق والإذعان له.

ثم تُخْتَم الآية الكريمة بالتحذير من الكفر بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فإن من يكذب ولا يُصدق بآيات الله عَزَّ وجل، من الدلائل والحجج فإن ربكم أيها الناس سريع في محاسبته على ما كان من العباد. وقد جاء في معنى ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع الإحصاء، حافظ على كل عامل عَمَلَه بلا كُلْفَةٍ ولا مَؤنة ولا تعب[٢] وقد أظهر الله تعالى هنا قدرته في سرعة الحساب بما يدل على سرعة الجزاء من خلال الوعيد والتهديد بها، فمن يملك السرعة في الحساب، فإنه يملك عظيم القدرة وعظيم أنواع وألوان العذاب، وهذا من بلاغة القرآن الكريم في بيان القدرة المغنية عن بيان أنواع أو نوع العذاب، لمن يكفر بالآيات والحجج الدالة على أن الدين عند الله الإسلام، الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل سياق القرآن الكريم إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، مبيناً منهجية التعامل في حالة الجدال بالأقاويل والمغالطات، والشُبَه الباطلة ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٩) بتصرف

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٨٥)

﴿لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: فإن جادلوك فبين لهم أنك أخلصت عبادتك لله تعالى وحده لا شريك له، وما يفيد أهمية هذه المنهجية الدعوية، عندما يجادل المجادل بالباطل والمغالطات، فإن على الداعية بيان الحق لهم، وما هم عليه من الباطل. وليعلم أن هناك فرق بين مجادلة المتفحص للحق، ومجادلة المعاند للحق.

ومن فوائد اختيار الوجه ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ ككناية عن الذات، بمعنى أسلمت ذاتي لله تعالى. لأن الوجه أكرم جوارح الإنسان، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح البدن[١] مما يفيد أن الجزء يقوم مقام الكل، وأن التعبير بعظيم الجزء من الكل يعني أنه قام مقام بقية الكل. وهو اختصار وكناية عن ذات الشيء بأكمله، مثل التعبير بالسجود عن الصلاة. وهذه من الإيضاحات البليغة في البيان عن عمق الطاعة والتذلل لله تعالى.

ومن الفوائد: أن تضمن الأسلوب القرآني الكريم الاختصار في التعليم، مع البعد عن الحشو، فدلالة ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أفادت إضافة المتابعين له صلى الله عليه وسلم من الصحابة الكرام، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. فقد جمعت دلالة ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ جميع الأتباع له عليه الصلاة والسلام. مع عدم إطالة البيان في الإسهاب، فكان بأقل عبارة تحقق المعنى والمراد، وهذا من جزالة البلاغة في القرآن الكريم. وإعجازه البياني.

ومن الفوائد: أن دلالة ﴿أَسْلَمْتُ﴾ اشتملت على الاتباع المطلق، وعلى الإيمان والعبادة والأخلاق، وجميع ما جاء عن الله تعالى، خضوعاً تاماً. فعبرت لفظة واحدة عن دلالات عظيمة كثيرة، إضافة إلى القبول والخضوع والتذلل لله تعالى، والانكسار له عَزَّ وجل.

(١) المرجع السابق (٢٨٦/٥)

ثم أيضاً يأمر الله تعالى عبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله تعالى به[١] فيقول الله عَزَّ وجل ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾ فأمره الله تعالى أن يقول لأهل الكتاب، وللأميين الذين لم ينزل عليهم كتاب من العرب ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾ وهو استفهام، ومعناه التقرير بوجوب الاستسلام، وفي ضمنه الأمر، أي أسلموا. كذا قال القرطبي وغيره. وقال الزجاج: تهديد[٢] وهذا من بلاغة القرآن الكريم في البيان، إذ أن اللفظة الواحدة قد أعطت المقاصد والمراد المتعدد ببيان واحد، فاستوعبت ووسعت دلالة ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾ بيان ومراد الله تعالى. فهي تحمل الأمر بالدخول في الإسلام، والاستفهام أيضاً عن عدم متابعتهم للحق، ولتقرير كفرهم، أو إسلامهم. أمؤمنون أنتم أو لا؟ وأيضاً التهديد والوعيد إن لم يُسلِموا.

ثم بينت الآية الكريمة النتيجة على الوجهين المحتملين ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فإما الْقَبُول من الجميع ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ فقد تحققت لهم الهداية إلى الطريق المستقيم. ويشمل أيضاً: الْقَبُول من البعض، أو عدم الْقَبُول من الجميع، أو البعض. فلن يخرج مقام التجاوب مع النبي صلى الله عليه وسلم عن تلك المقامات التي ستكون ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ فإن استسلموا بمثل ما استسلم به النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، فقد حصلت لهم الهداية، وسلكوا مسلك الرشد، وأصابوا طريق الحق وسبيله ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فإن كانت النتيجة بالرفض وعدم الْقَبُول، فيكون منهج التعامل معهم بما كُلِّفت به من البلاغ فقط.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٢/١)

(٢)لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٠)

ثم تحرير وتحديد صلاحيات ومسؤوليات الرسول صلى اله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ثم التطمين للرسول صلى الله عليه وسلم مع التحذير لمن كفر بقوله جَلَّ جلاله ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فإن الله تعالى عليم بعباده، فلا يخفى عليه منهم شيء عَزَّ في علاه. فإن الله تبارك وتعالى عالم بأمور عباده، وبما هم عليه، وبما يستحقونه من الجزاء، وما ينون به من الخير أو الشر، بما يفيد التحذير لهم من أن يقصدوا الشر بالكفر. فإن الله تعالى بصير بالجميع، فلا يخفى عليه شيء من أمر العباد وشأنهم.

ولا شك أن في هذا تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه شديد الحرص على هداية الناس أجمعين، كما بينت نصوص القرآن الكريم، ومن ذلك الحرص ما ورد في سورة الكهف، قال الله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ وقوله تعالى في سورة التوبة ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ وغيرها من بيان الله تعالى لهذا المقام.

وهذا يفيد أن ليس للمسلم هداية الناس، وتحقيق التوفيق لهم، مهما بلغ حرصه على ذلك، إلا أن الواجب هو الدعوة والإرشاد، والتوجيه، والحرص على ذلك، أما نتيجة الجهود فالله تعالى هو الذي يتولى عباده، وهو الهادي بفضله وحكمته سبحانه وتعالى. فما على المسلم إلا هدية الدلالة للخير، وأما هدية التوفيق فهي بيد الله تعالى. وهذا يهذب نفسية المسلم الداعية، ويهذب سلوكه وتعامله مع من يدعوهم للخير.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تبين هاتان الآيتان العظيمتان ثلاثة أمور: الأول: حال ما حصل من أهل الكتاب من الكفر بآيات الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وقتلهم الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فيقتلونهم بغير مُوجب لذلك، بما ينفي عن الأنبياء كل جُرم يُوجب الاعتداء عليهم، وبما يُثبت أنهم عليهم الصلاة والسلام يدعون الناس إلى الخير بالتي هي أحسن.

وكذلك قتل من يأمر بالمعروف من الناس ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فكل من يدعوهم إلى العدل وعدم الجور في أي شأن من شؤون الحق فإنهم يقابلونه بالقتل. مما يبين تجبرهم على غيرهم، وأنهم لا يرون إلا ما هم عليه من الباطل. وقد ورد ترتيب الذين يأمرون بالقسط من الناس بعد الأنبياء، بما يفيد علو مكانتهم ومنزلتهم.

والثاني: بيان الجزاء والعقاب ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فإن الجزاء الذي يستحقونه هو العذاب الشديد. وهذا تقريع وتوبيخ لهم باستخدام دلالة البشارة ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ لأن الأصل في التبشير أن يكون فيما يسر. فورد هنا على سبيل التندر والتهكم بهم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب أليم. وهو عذاب النار الذي يصطلي فيه كل من كفر. وفي هذا تذكير وترهيب لمن لم يتابع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والثالث: عموم الحكم لكل من يسلك مسلكهم ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ فهؤلاء الجاحدون لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا إن كانت لهم حسنات ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وبالتالي فليست لهم معاملة تفيد الإحسان لهم، فليس لهم إلا ما يسوء. وكذلك فإن الله تعالى قد أعد لهم العذاب الشديد، وما لهم من ناصر يمنع عنهم عذاب الله تعالى. فلم يعد لهم إلا العذاب المقيم. وفي هذا بيان وتحذير من مسالك الجحود والكفر، ومن عاقبته ونهايته في الدنيا والآخرة.

فقد أفاد هذا البيان فوائد عظيمة جليلة: منها الإخبار عما غاب من سالف عهود أهل الكتاب، وبيان حقيقتهم، والتحذير من هذا المسلك الكفري، وكذلك أفادت بيان منزلة الآمرين

بالمعروف، وترتيبهم وذكرهم بعد الأنبياء، وكذلك أن من يعادي رسالة الله تعالى فإنه سيعادي الأنبياء، وبالتالي سوف يعادي ورثتهم من أهل العلم، الذين يُعَلِّمُون الناسَ شريعة الله تعالى، ويأمرونهم، ويحثونهم على التمسك بها.

ومن دقائق البيان أن سَمَّى اللهُ تعالى شريعته بالقسط، من خلال وصف ما يقوم به الآمرون بأمر الله تعالى ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ وهو العدل في الحكم والقول والعمل. مما يبين أن شريعة الله تعالى هي عدل في العبادة، والاعتقاد والأخلاق، وفي منهجها وأساليبها. وأنها خالية من الجور في تكاليفها، وفي أحكامها وعقوباتها، وبالتالي فإنها متوافقة مع فطرة الإنسان التي فطره الله تعالى عليها.

وقد أعطى تسلسل الترتيب في الآية الكريمة: تسلسل وتتابع الفكر في جوره وأحكامه وعداوته حين يضل عن الطريق المستقيم، فإنه عندما يُسقط الإنسان جَور فكره واستكباره على أول المرتكزات سوف يتسلسل في متابعة كل ما يرتبط به. فجحودهم لآيات الله تعالى الذي به كفروا، قادهم إلى معاداة الأنبياء فقتلوهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ثم قادهم إلى معاداة من سار على نهج الأنبياء، فقتلوا العلماء الذين يُعَلِّمُون ويأمرون بدين الله تعالى ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فكان جزاؤهم أن بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ يقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا، حتى يُعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات، بل عُوملوا معاملة أهل السيئات(١) وإضافة إلى ذلك فإن سيرتهم وذكراهم على ألسنة من بعدهم شنيعة سيئة، فتبقى المذمة عليهم ما بقيت الدنيا. وأما في الآخرة فأعد الله لهم العذاب، وما لهم من ناصرين يمنع عنهم عذاب

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٨/١)

الله عَزَّ وجل. فلم يعد لهم إلا العذاب المقيم. وفي هذا بيان وتحذير من مسلك الجحود والكفر، ومن عاقبته ونهايته في الدنيا والآخرة. نسأل الله تعالى العافية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولا زال السياق القرآني الكريم يبين حالاً من أهل الكتاب، مُستهلاً بسؤال تعجبي، يستنكر فيه صنيع أهل الكتاب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فيتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ألم ينته إلى علمك أمرهم فيما اختلفوا فيه، وأنكروه في شأن نبوتك ورسالتك وصفتك، فَيُدْعَون إلى كتاب الله تعالى، الذي أُوتوا نصيباً منه، وهو التوراة. ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، فيتولى فريق منهم، في إعراض عن الدعوة إلى كتاب الله تعالى، والاستجابة لما يُوجِب قَبُول الحق الذي تضمنه كتاب رب العالمين. فإنه أمر يدعو إلى التعجب من حالهم، وحال موقفهم العجيب.

وفي هذا من الفوائد: التعجب من الحال والأمر الذي يحمل الإعراض عن الحق، الذي يملكون دليله في التوراة. مما يبين ويكشف طباعهم وحالهم المخزية، التي تكشف للمؤمنين ما غاب ويغيب عن حالهم، بما يوجب ويُحقق لهم فهم عدوهم.

ومن الفوائد كذلك تنكير النصيب للتعظيم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي نصيباً عظيماً، كما أفاده مقام المبالغة[1] فقد أمدهم الله تعالى بالنصيب العظيم الذي يستوجب منهم الإيمان والتصديق برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إن علة انصرافهم عن قبول الحق هو استخفافهم وافتراؤهم الكاذب الفاسد بمحدودية العذاب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فادَّعوا زوراً وكذباً أن عذابهم سيكون فقط لأيام محدودة معدود، ثم يدخلون الجنة. وكذلك الغرور بافترائهم على الله الكذب ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي ثَبَّتَهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم، من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات. وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم، واختلقوه، ولم ينزل الله تعالى به سلطاناً[2] وهم أحق باتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لما عندهم من العلم الْمُسْبق به.

فالمجرم والمنحرف يبدأ بالتحليل الفكري الكاذب، ليخادع نفسه بما هو فيه وعليه من الضلال، وذلك بما يُطمئن به نفسه، من خلال خداع النفس، أو بما يسمى الحيل النفسية، فيخادع النفس بالكذب، حتى تصدقه نفسه الأمارة بالسوء، فهؤلاء افتروا على الله الكذب، من أنهم لن يُعَذَّبُوا في النار إلا أياماً قليلة، ثم يخرجون منها، فغرهم هذا الافتراء على دينهم، إلى أن تولوا وأعرضوا عن الحق الذي يعرفونه. مما يُفيد خطورة تبرير المعاصي بالافتراء في الدين، من أجل إرضاء أهواء النفس في طغيانها. كما يفيد هذا: أن الافتراء والكذب ومخادعة النفس يجر إلى المزيد من الغرور، ثم الغوص في بحره الذي يسوق صاحبه إلى الانحراف ثم إلى المهالك.

كما أن المنحرف قد لا يُصَوّب الانحراف، ولكن يُصَوّب الوسيلة التي يخرج بها عن تأنيب النفس ولومها. كمعصية المرتشي والسارق، فإنه غالباً لا يُحلل الرشوة، ولا السرقة، ولكن قد يحلل لنفسه طريقة تعاطيها، أو تبرير دوافعها ونواياها، وكذلك في المخالفات الإدارية والأسرية والمجتمعية،

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٨/١)

(2)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٤/١)

حتى يدفع عن نفسه لائمة الذنب، من خلال تبرير الغاية، ثم قد يغتر بنجاح التبرير الذي يقود إلى المزيد، ثم تصديق المسلك الخاطئ، فيغتر بما برره لنفسه به واتكأ عليه، واعتضد به في مدافعة لائمة النفس. فالافتراء يجر للغرور، وهو أصله ومادته ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فالذي غرهم في دينهم تتابع الافتراء والجرأة عليه. مما يفيد التحذير من ذلك.

ثم يرد الله تعالى عليهم بخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته، على جهة التوقيف والتعجب. أي فكيف يكون حالهم، وكيف يصنعون، إذا حُشِروا يوم القيامة، واضمحلت عنهم تلك الزخارف، التي ادَّعَوها في الدنيا، وأجازوها بما اكتسبوه من كفرهم، واجترائهم، وقبيح أعمالهم[(١)] ويحمل الخطاب الإلهي في صيغته استنكار فعلهم، وتقرير الجزاء الذي ينتظرهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فكيف يكون حالهم، وكيف يصنعون، إذا تم حشرهم يوم القيامة لذلك اليوم المتقرر، والذي تُوَفَّى فيه كل نفس بما اكتسبته من خير وشر، ومن غير ظلم لها. وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في معناها: ما أعظم ما يلقون من عقوبة الله تعالى وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم يُوفَّى كل عامل جزاء عمله، على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه.[(٢)] ودلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ تفيد وتثير الاستفهام من أجل التهويل، وتفيد التوبيخ، أي: فكيف يكون حالهم؟ وكيف يصنعون إذا حُشر الناس يوم القيامة؟ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ وأعطيت كل نفس ما تستحق مما كان منها في الدنيا. فبدأت الآية الكريمة باستفهام توقف وتعجب، وتأمل للموقف الذي سيمر به هؤلاء. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حالهم. وهو أسلوب يستثير النفس والعقل للتفكر في الحقيقة التي سيكون عليها الْمُخَاطَب والمعني بها من العباد. مما يبين أن منهج الله تعالى في التعليم والدعوة

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٤)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٩٨)

والإرشاد قائم على إيصال العلم بكل وجه، ومن ذلك التفكر والتأمل، واستحضار موقف الحساب عند الله العظيم، من أجل أن يعود العاقل إلى رشده.

ومن الفوائد تقرير ذلك اليوم، بنفي الشك عن وقوعه وحصوله ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وكذلك حصر الجزاء فيما تكتسبه النفس ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ فتنتفي معه كل مظلمة ودعوة باطلة على تلك النفس ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كما جاء الحكم عاماً لهم ولغيرهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ لأن ذلك اليوم الذي لا ريب فيه، متعلق بالناس أجمعين. ومن صفاته أنه قائم على العدل من الله تعالى، وقد جاء ذلك من خلال نفي الظلم من الله تعالى لكل نفس ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فإن الله العظيم لا يريد ظلماً ولا عذاباً للعالمين، ولكن أكثرهم يسعى للوقوع فيما يُوجب له العذاب.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

استهل السياق القرآني الكريم البيان بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾ والذي يشتمل في دلالة لفظه على الأمر بالقول المتضمن للإيمان الاعتقادي ﴿قُلِ﴾ اعترافاً وبياناً لأمرٍ عظيمٍ، من خصائص الرحمن الرحيم، وهذا الأمر الخطابي للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أجمعين، بأن يعتقدوا ويقولوا بما تضمنته الآيتين العظيمتين من خصائص الله العظيمة، والمشتملة على أمور عظيمة من أمور الخلق والكون.

وقد أظهرت دلالة ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ما يبين الدعاء بهذا السياق وبهذه الخصائص الإلاهية العظيمة، فإن دلالة ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ تعني يا الله. وقيل: من قال اللهم فقد دعا بجميع أسمائه[١] فهو نداء واستغاثة بمالك الملك. وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضي الله عنه (ألا أعلمك دعاء تدعو به، لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك. قل يا معاذ: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيها من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك)[٢]

وابتدأ مضمون الْمَقُول ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: يا مالك الملك، يا من له ملك الدنيا والآخرة، فتعطي الملك لمن تشاء، فتُمَلِّكه ما تشاء، وتُسلطه على من تشاء، وتجعله يتصرف بقدر ما تشاء. وتنزع الملك وتأخذه ممن تشاء، فتعطيه من تشاء.

وفي ذلك من الفوائد أن الآية الكريمة أثبتت أولاً: أن الملك لله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ وفي هذا إثبات أن الخلق والإيجاد ابتداء، مع أتم التصرف وأكمله لله عَزَّ وجل. وأن الله تعالى هو لا غيره مالك الملك. وقد أفادت دلالة ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أن كل شيء ما عدا الله تعالى هو مُلْكٌ لله عَزَّ وجل. ثم أثبت قوله تعالى ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ كمال التصرف في الملك لله تعالى، وأن تمليك الملك للعباد هو أمر مقيد بالمشيئة، من الخالق للمخلوق، سواء كان إعطاءً أو انتزاعاً. ليعلم المخلوق أن الذي أعطى وأغنى هو الله سبحانه وتعالى، وأن الذي أخذ وأخضع هو الله تعالى. وفي هذا تربية للنفس البشرية على الإذعان

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٥-٣٦) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٩/١)

(٢) الألباني، صحيح الترغيب رقم (١٨٢١)

لمالك الملك، وثانياً: عدم منازعة من أعطاه الله تعالى الملك، وثالثاً: أنه يجب على من آتاه الله تعالى الملك ألا يبطر ولا يتجبر، فإن الله هو الذي أعطاه، وهو الذي ينتزعه منه انتزاعاً إذا شاء، وكيف شاء، ومتى شاء. ورابعاً، الرضا بمن أعطاه الله تعالى أمراً من أمور الدنيا، جاهاً أو مالاً أو حكماً وولاية، أو غير ذلك، فالذي أعطى وَفَضَّلَ هو الله تعالى، بفضله وحكمته، وإن كان في مقاييس البشر أن غيره أحق به منه. ولكن فضل وحكمة الله تعالى تقتضي ما لا تقتضي أحكام وإرادة البشر، لتثبت حقيقة الملكية المطلقة بأنها لله تعالى وحده لا شريك لاه في ملكه، وليتدبر ذوي الألباب، وتستيقظ العقول، وتتجرد من أحكامها وظنونها الزائفة والخاطئة. فإن هذا البيان الكريم يوضح ويبين تفرد الله تعالى بتدبير وتصريف الخلق أجمعين. واختصاصه بالملك المطلق، والتصريف الْمُحْكَم.

وتضمنت الآية الكريمة بعد ذلك البيان العظيم بأن الله تعالى هو المتفرد بالإعزاز والإذلال، ورفع مكانة وقدر الإنسان بين الخلائق، فقال لله عَزَّ وجل ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ فهو يُعز من يُريد إعزازه بحكمته، وفضله وقدرته، وفي المقابل يُذل من يشاء بحكمته، وتدبيره ومشيئته، فمن شاء أعزه، ومن شاء أذله. ومن شاء أذله ثم أعزَّه، ومن شاء أعزه ثم أذله. وهذا يفيد أهمية التجاء العبد لربه جَلَّت قدرته، والاعتصام به، وسؤاله أن يرفعه ويُعزَّه في غير غرور ولا كبر، وأن يحفظ عليه ما أعطاه من خير ونعم، وألا يذله ويهينه، فهو الْمُعِز وهو الْمُذِل، لأنه العزيز الكريم. وأن يدرك المسلم أن من أعزه الله تعالى على بعض خلقه، فبحكمة منه سبحانه وتعالى، وليس بقدرة وقوة من حصل له الخير والعز من العباد. وأن من أذله أو قَتَّرَ عليه في باب من الأبواب، فإنه بحكمته سبحانه وتعالى. لأنه الذي بيده الخير، تبارك وتعالى ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وقد أثبت قوله تعالى ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أن الخير بيد الله تعالى، وهو المالك والقادر على إعطاء من يشاء، بقدر ما يشاء من الخير. مما يفيد أهمية الدعاء، وأهمية الالتجاء لمن بيده الخير كله، وبجميع أنواعه ومقاديره ودرجاته. حيث ورد لفظ ﴿ٱلۡخَيۡرُ﴾ مطلقاً، ولم يقيد بمال أو صحة أو ملك أو عمر أو علم، ليشمل كل أصناف وأنواع ومقادير الخير. ولم يُحَدَّدْ بمقادير محددة، ليشمل ما كَثُر منه وما قل.

وإذا أدرك المؤمنون هذه المعرفة، وطبقوها في حياتهم فقد حصل بينهم التواد والتراحم، وانتفى بينهم الأشر والمباهاة، واضمحل الغرور والاستعلاء، أو الحسد للغير، بما أنعم الله تعالى به عليهم، لأنه استقر في أنفسهم وأفهامهم واعتقادهم دلالة ومعاني العطاء والأخذ، والتصرف، بأنه لله تعالى.

كما أن في الآية الكريمة إثبات القدرة المطلقة لله تعالى ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لتنتفي القدرة المطلقة لخلقه، إلا بما شاء سبحانه وتعالى. وبالتالي تتطلب هذه المعرفة من العبد، أن يستعين بمن له القدرة الكاملة التامة على كل ما يريد ويرغب. فلا حول ولا قوة لأحد من خلقه إلا بالله العلي العظيم.

ثم تأتي الآية الثانية: لتبين، وتلفت الانتباه للمحسوس من مُلك الله تعالى، وإبداع تصرفه فيه ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ والولوج، هو: الإدخال، ومنه: ولج فلان منزله أي دخله. أي تُدخل ما نقصت من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. وتُدخل ما نقصت من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، وتُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[1] مما يبين أهمية التأمل في الكون، وفي حركته، وفي تغاير ساعات الليل والنهار، وتباينها، وولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، فإنها تقرر للعبد انفراد الله تعالى بالملك والتصريف وكمال القدرة، وبديع صنعه في ملكه العظيم، وأنه لا معبود بحق إلا الله جَلَّ في علاه، وأنه قادر على البعث بعد الموت، ثم يليه الحساب والجزاء كما وعد الله سبحانه وبين في القرآن العظيم وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يأتي تناسق الآية الكريمة مع الآية السابقة لها، بمزيد من إيضاح وتجليات عظيم مُلْك الله وتصريفه، فينزع مما أعطاه النهار من ساعات، ويعطيه الليل، وينزع مما أعطاه الليل من ساعات، فيعطيه النهار، في عملية دؤوبة دقيقة ومتدرجة، بل ويدخل الليل عند مجيئه على النهار بتدرج

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

عظيم عجيب، وكذلك يدخل النهار عند مجيئه على الليل بتدرج عظيم عجيب، ويحدث ذلك في نسق لا تنازع بينهما فيه. لتتجلى ملكية الله تعالى، وعظيم تدبيره وتصرفه في ملكه.

ومن تناسق الدلالات نزع الملك ممن يشاء، وإعطائه من يشاء، وكذلك الأخذ من الليل وإعطائه النهار، والأخذ من النهار وإعطائه الليل.

ثم يلي ذلك: تدبير آخر عظيم في ملكه العظيم فيقول سبحانه وتعالى ﴿**وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ**﴾ فهذا إعجاز آخر، وآية وبرهان مبين على تفرده تبارك وتعالى بما لا يستطيع عليه مخلوق من دون قدرته عَزَّ في علاه. وقد جاء في التفسير: يخرج من الإنسان الحي، ومن الأنعام النطفة ميتة، ويخرج من النطفة الميتة المولود حياً. وكذلك تخرج النواة ميتة من النخلة الحية، وتخرج النخلة الحية من النواة الميتة، وكذلك بقية الثمار والأشجار. وكذلك البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيض.[1] ومن تناسق هذه الدلالة مع ما قبلها من تداول ساعات الليل والنهار، أن الله تعالى بقدرته يُدخل الليل في النهار، ويُدخل النهار في الليل، ويُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، لتكون دلالات عظيمة، وفي تناسق بياني عظيم، يعجز عنه المخلوق. لتكون آيات وبراهين دالة على كمال ملكه وقدرته سبحانه وتعالى، وعلى عظيم تدبيره، وتناسق تصريفه، وإبداعه العظيم، الذي يدل على تفرده بالملك والخلق والسلطان، والقهر والإذلال، والعزة والكبرياء.

ثم تُخْتَم الآية الكريمة ببيان سعة رزق الله تعالى، وتوسعته لمن يشاء ﴿**وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ ففيها إثبات أن الرزق من عند الله تعالى، حيث أضاف الرزق له وليس للمخلوق ﴿**وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ**﴾ وكذلك إثبات انفراده عَزَّ وجل بكمال المشيئة، حيث قال عَزَّ وجل ﴿**وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ**﴾ فله كمال المشيئة المطلقة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٨-٣٠٩)

وكذلك من مشيئته: إثبات تخصيص التفاوت في الرزق بأنه للعزيز الرزاق الوهاب البعض ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيوسِّع على من يشاء من عباده من أوجه لم يحتسبها ولم يفكر ويخطط لها، فينهال عليه الرزق بغير حدود. أي: برزق واسع عظيم. ولم يحدده سبحانه وتعالى عدداً، ولا كمية، ولا في صنف، ولا في نوع، ولا في فئة معينة من خلقه تبارك وتعالى، بل قال الرزاق الكريم ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾ ومن صفة بعض رزق الله تعالى أنه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تضييق ولا تقتير، وبلا عدد، ولا حَدَّ لسعة فضله، وكريم عطائه. وكل ذلك بحكمته سبحانه وتعالى.

فبتلك القدرة التي تؤتي الْمُلْكَ بها من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وبقدرة إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وقدرتك على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، والتوسعة في الرزق على من تشاء بغير حساب، وأنه لا يقدر على ذلك غيرك، ولا يصنعه إلا أنت يا ربنا وخالقنا، وأنه لا أحد يستطيع أن يقوم بما تقوم به، وتُقَدِّرُهُ إلا أنت. وبما يُعزز جناب التوحيد لله تعالى، والدعاء والالتجاء إليه سبحانه وتعالى، وسؤاله الرزق، والعون، والتوفيق، ثم الإذعان، والتواضع، والخشوع له سبحانه وتعالى.

ولذلك يُستحب الدعاء بهذا كما ورد في الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضي الله عنه (ألا أعلمك دعاء تدعو به، لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك. قل يا معاذ: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، تعطيها من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك)[١]

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) الألباني، صحيح الترغيب رقم (١٨٢١)

قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

تستهل هذه الآيات الكريمة، بتقرير قاعدة التعامل مع الكافرين من حيث الولاء والنصرة. فقال عزَّ وجل ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ يجب ويلزم المؤمنين عدم موالاة الكافرين بالنصرة والمحة من دون المؤمنين، مما يُوجب أهمية اللحمة بين المؤمنين، وأن لا يجعلوا للكافرين يداً تكون بينهم، بحيث يوالي المؤمنون الكافرين على حساب بعض ا لمؤمنين، فيخذلونهم.

وابتدأت الآية العظيمة بلا الناهية ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ﴾ التي تفيد نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أعواناً وأنصاراً وظهوراً، فتوالوهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، فَتُرْشِدُونَهم وتَدلُونَهم على عوراتهم.[١] قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: فيه النهي للمؤمنين عن مولاة الكفار، لسبب من الأسباب، متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً واشتراكاً[٢]

ومن الفوائد: أن وردت صياغة البيان مستوعبة لدلالتين بيانيتين، الأولى: تَضَمُّنَهَا النهي. والثانية: ورودها ومَجيؤُها بصيغة القاعدة التي يجب أن يأخذ بها المؤمنون في كل زمان ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ومن الفوائد: أن من دلالات الإيمان كراهية

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٥/٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣١/١)

المؤمن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وامتناعه عن ذلك. وكذلك أهمية اللحمة بين المؤمنين، وأن لا يجعلوا للكافرين يداً تكون بينهم، بحيث يوالي المؤمنون الكافرين على حساب بعض ا لمؤمنين، فيخذلونهم.

ثم بعد البيان الكريم بما يجب أتبعه بإيضاح جزاء من يفعل ذلك من المؤمنين. فقال تعالى ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ فإن من يفعل هذا المسلك فقد بريء من الله، وبريء الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر(١) مما يفيد خطورة هذا المسلك، الذي يؤول بالإنسان إلى هذا المآل الْمُخْزِي. وفيه أهمية الفهم والتطبيق لقاعدة لولاء والبراء، وفق ما شرع الله تعالى. فنسأل الله تعالى العافية والهداية والتوفيق.

ويستثني الله تعالى للمؤمنين من هذه القاعدة، وهذا الحكم، وهذا العقاب، ما تضمنته الآية الكريمة ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي: إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال.(٢) فاستثنى تبارك وتعالى الخائف الْمُستضعف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته(٣) وهذا يفيد رحمة الله تعالى بالضعيف المقهور على أمره، إذ استثناه عَزَّ وجل من ذلك، ورفع عنه الحرج. مما يدل على عناية الله تعالى ورحمته بالمؤمن، وكذلك الدقة في التوجيه بالاحتراز مما قد يكون، وهي من دقائق القرآن الكريم. الدالة على عظمة القرآن، ودقة بيانه وتوجيهه.

وهذا السياق القرآني الكريم يفيد بأن يتعلم منه المسلم أهمية وضع الاحتمالات، وأخذها في الحسبان عند التخطيط والتنظيم، وعند تقرير القواعد العامة في الأنظمة، بأن توضع الحلول المناسبة، التي ترفع الحرج، وتحقق المصلحة. كما يفيد دقة التوجيه الرباني من العزيز الحكيم، التي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٥/٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣١/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٥/١)

تُثبت كل آية من آياته أنه كتاب مجيد من عزيز حكيم خبير، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن الفوائد أنه لم يحدد نوع ومقدار الخوف الذي يتقي منه المؤمن ﴿**إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ**﴾ ليقدره المؤمن بحسب ما قد يلحقه من ضرر. وهذا من عظيم مساحة الاستثناء. ثم تنتهي الآية العظيمة بالعقوبة التحذيرية، التي تحمل دلالتين: الأولى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ**﴾ فالأولى التحذير من نقمته وبطشه وعقابه وسطوته وعذابه سبحانه وتعالى. والثانية: التحذير مما تعرفون من أن المرجع والمآل إليه عَزَّ في علاه ﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ**﴾ فإلى ربكم مرجعكم جميعاً يوم القيامة، للحساب والجزاء. وفي هذا البيان مدعاة للعباد نحو التأمل والتفكر في العاقبة. وهو أسلوب يبعث في النفس التفكر والتعقل من خلال منهجية التسلسل البياني لعظيم في شأن التعامل مع الكافرين. وبما يثير عند العقلاء العودة للحقائق بالتفكر والتأمل، واغتنام فرصة الحياة للاهتداء والطاعة لربهم سبحانه وتعالى، وفق المنهج الذي جاء به رسوله الكريم؛ محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا من مزيد الفوائد: أن هناك منهجيتين تربويتين: الأولى: أن الله تعالى لم يُشر لنوع العقوبة، وإنما أشار إلى التحذير من قدرته ونقمته، وهي في هذا المقام تُخاطِب الْمُخَاطب بما استقر في قلبه من الإيمان عن صدق وعيده، وعظيم عقابه، وشدة تحذيره جَلَّ جلاله. ولهذا أثر نفسي عظيم على المؤمن، وأما المنهجية الثانية في البيان والتذكير بالمصير، الذي سيؤول بكم إليه. فيعاقبكم على ذلك. مما يُستفاد منه: أن من وسائل تعظيم الشيء في النفوس التحذير المشتمل على العقوبة غير المعروفة قدراً للمُخاطب، ولكن قوة وعظمة هذه العقوبة مستقرة في القلوب، من شدة عذاب الله العزيز الحكيم.

ثم يتوجه الخطاب في الآية التالية إلى بيان دقة علم الله تعالى بالنفس البشرية، وبالكون كله، وبقدرته العظيمة على كل شيء. فقال تبارك وتعالى ﴿ **قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** ﴾

وأورد الله عَزَّ وجل التوجيه الكريم بمخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ ﴾ لهم أيها النبي، باعتباره عليه الصلاة والسلام الرسول والمبلغ عن ربه جَلَّ جلاله، وفيه كذلك إظهار التسلسل والتتابع في التوجيه، من الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إلى المؤمنين. فأخبرهم بعظيم علم ربهم بهم ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال لعبادي: إن أخفيتم وأكننتم في صدوركم أمراً ﴿ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ بأن أظهرتموه لغيركم ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ فإن ربكم الله عَزَّ في علاه يعلمه، فعلمه للباطن كعلمه للظاهر من عباده. فلا يعزب ويغيب عنه شيء أبداً.

ومن دقائق البيان أن أورد تبارك وتعالى علمه بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ لإفادة أن علم ربكم مستمر ومتتالي ومتعاقب لا ينقطع أبداً. وفي هذا توجيه تخويفي وتحذيري بقدرة وسعة علمه تبارك وتعالى، من أن ما يخفيه الإنسان عن غيره من العباد، فإنه لا يخفى على الله تعالى. وإذا تقرر هذا في النفس، أحدث فيها الرقابة الذاتية، التي يتسابق الوجل إليها عندما توسوس له نفسه بانحراف عن طاعة الله تعالى. فيقدم خشية الله تعالى على خشية ما سواه سبحانه وتعالى.

وفي هذا توافق وتلاؤم بين ما حذر الله تعالى منه، وبين علم الله تعالى، فإن أضمرتم محبة ومودة وتَتَخَفَّون بها، فإنها لا تخفى على من يعلم ما تُخْفِي الصدور. وبالتالي فإن للعلم بسعة علم الله تعالى أثر بالغ في تربية النفس وتهذيبها على طاعة الله تعالى ومراقبته.

بل تضمن السياق أن علم الله تعالى يتجاوز الشخوص البشرية إلى ما هو أكبر وأوسع وأعظم ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ومع هذا العلم والإحاطة، فإن له صفة القدرة العظيمة ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفي جملة ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ما يفيد عدم الاستثناء، فقدرته نافذه في كل شيء. مما يفيد تنبيه العباد باليقظة والخوف والخشية من دقة علمه وعظيم سلطانه وجلال هيبته جَلَّ شأنه، فإنه لا يعجزه شيء، ولا يغيب عنه سر مكنون. وبالتالي فهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، أو أن يحلم على من أراد أن يحلم عليه بحلمه تبارك وتعالى إلى يوم القيامة.

ثم يتوالى التوجيه في الآية الأخرى، بلفت الانتباه إلى يوم الدين، وما فيه من قدرة الله تعالى، الذي جمع لكل نفس ما عملت من خير أو شر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ ففي يوم القيامة يُحْضَرُ للعبد جميع أعماله من خير وشر[١] ثم تصور الآية الكريمة حال العبد ذلك اليوم، بأقصر عبارة، وأعظم تأثير، وأقوى بيان ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ فتود النفس التي عملت السوء لو أنها تبرأت منه، وأن يكون بينها أمداً بعيداً[٢] والأمد هو: الغاية التي يُنْتَهَى إليها[٣] والآية الكريمة صَوَّرَت الحسرة والرغبة الشديدة للمسيء الذي يَوَدَّ أن تتباعد المسافة والزمن بينه وبين ذلك اليوم لهول الموقف، مما يرى من الأهوال التي يُحذر الله تبارك وتعالى منها، بالتحذير من عقابه، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فيخوفكم ربكم عقابه الشديد. وهنا أورد سبحانه وتعالى التحذير منه مباشرة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: مما يكون من عقابه عَزَّ وجل.

ثم قال جَلّ جلاله مُرَجِّياً عباده لإصلاح النفس، لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه، فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإن ربكم بعباده لكثير العطف والإحسان إليهم. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من رأفته بهم حذرهم من نفسه[٤] وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرحمة منه سبحانه بعباده، لطفاً بهم.[٥] والرؤوف: الكثير العطف والإحسان، والمخفف عن عباده ما لا يطيقون، فَيُسَخِّرُ لهم ما يرفع عنهم المشقة، ولا يكلفهم بالتكاليف الشاقة، وهي غزارة الرحمة. والرحيم من صيغ المبالغة،

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١)

(٢) المرجع السابق (٣٦٦/١)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٣/٥)

(٤)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١)

(٥) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٢/١)

الذي يفيد كثير الرحمة، أي: أن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، ومن رحمته بكم أن خلق لكم ما يعينكم. واسم الجلالة ﴿رَءُوفٌ﴾ من الإشفاق على الإنسان، وسواء من حيث عدم تكليفه بما يشق عليه من العبادات، أو من رفع المشقة عنهم بتسخير مخلوقاته لهم، من الأنعام وغيرها. والرأفة تحمل دلالة الإشفاق مع الرحمة، والرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة، فتشمل جميع الخلائق. وقدم الأخص على الأعم للعناية والاهتمام، وتبيانا وتأكيداً لها.

فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي كيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

ويفيد اقتران الوعيد والتحذير الشديد مع وصف الله تعالى لذاته الكريمة بأنه رؤف بالعباد، ما يبين أن تحذيره شفقة بهم، وأن الله تعالى ما حذر عباده إلا رحمة بهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا حتى لا تحصل منهم المعصية الموجبة لعقابه، لأن الكريم الرحيم أنزل القرآن العظيم

---

(١) البخاري (٤/٩١) برقم (٥٩٩٩)

لسعادتهم، وما أنزله الله تعالى ليشقى به العباد، كما قال تعالى في سورة طه ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ وهو توجيه كريم لهم من ربهم حتى لا يشقون بالعذاب، لسوء ما قدموا في الدنيا.

فأفادت الآية تربوياً أن الزجر عن الفساد والغي لا يعني القسوة، بل يعني الرحمة والشفقة بالمتربي، وكذلك الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإنه ما أمر ولا نهى إلا محبة، وإرادة للخير بمن أمره أو نهاه، وخوفاً عليه من عاقبة التقصير والغي والفساد. وكذلك معلم الناس الخير، والداعية والناصح، فما تَصَدَّرُوا لذلك إلا محبة لغيرهم. وشفقة عليهم.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ ﴾

تأتي هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله عَزَّ وجل من غير اتباع لمنهج الله تعالى ورسوله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، فإنه كاذب في دعواه حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[١] وهي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادَّعى ذلك دعوى مجردة[٢] فمن يُحب الله تعالى يتبع ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهو شرط كما قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ فقال أيها الرسول للناس: إن كنتم تحبون الله حقيقة فأثبتوا ذلك باتباع ما جئتكم به من عند الله عَزَّ وجل. ولكم بهذا الاتباع مكافأة من ربكم جَلَّ في علاه، وهي ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفي هذا تقرير بوجوب الاتباع والمتابعة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من غير زيادة ولا نقص. ثم إن هذا الاتباع يتحقق به أمران عظيمان، هما: محبة الله تعالى لكم

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن (٢٤٠/١)

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ والثانية: مغفرة الله تعالى لما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه عَزَّ وجل تحصيلكم محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء. ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تُحَب. قال الحسن البصري وغيره من السلف أن قوماً زعموا أنهم يُحبون الله تعالى فابتلاهم الله بهذه الآية[١] وقيل هم وفد نجران[٢]

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بحسم الأمر معهم في أمرين: إما الطاعة، وإما التولي والمعصية ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فدل ذلك على أن من تولى عن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد كفر. ونفى عنهم تبارك وتعالى محبته لهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيكون الله عَزَّ وجل مُبْغِضٌ لهم. مما يفيد الحذر من مخالفة الله تعالى، ومخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك أن تحصل منكم أيها المؤمنون محبة من أبغضهم الله عَزَّ وجل ورسولُه صلى الله عليه وسلم.

ومن جلالة الأسلوب البياني أن نفى محبته تبارك وتعالى لمن تولى عن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حتى يتقرر كمال البغض لهم، بانتفاء المحبة وأجزائها. فليس لهم إلا كمال البغض وما يتبعه من العذاب المهين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٧/٥)

أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

توضح هذه الآيات العظيمة مشيئة الله تعالى، وسلطانه العظيم في الاختيار والاصطفاء من عباده، حيث اصطفى آدم عليه السلام، وأمر الملائكة أن تسجد له، وعَلَّمَه أسماء كل شيء. واصطفى نوحاً عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي هو من نسل إسماعيل ابن إبراهيم، وكذلك اصطفى آل عمران، وهو والد مريم بنت عمران، التي هي أُمُّ عيسى ابن مريم عليهم السلام. فاختار واجتبى اللهُ تعالى هذه البيوت لدينه، فكان منهم الأنبياء والرُسُل.

ويُستفاد من هذا الاصطفاء، أن لله تعالى الحكم والأمر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فكما اصطفى أولئك بفضله، فإنه يختار من يشاء بحكمته، ويوفق من يشاء لما يحصل عليه في الدنيا من الفضل والرزق، أو العلم والجاه والوجاهة والمكانة. مما يُعَلِّمُ المؤمنَ ألا يحسد من اجتباه رَبُّهُ وخصَّه بفضل، أو أعطاه من واسع عطائه، أو ولَّاه ولاية على بعض خلقه. فليس العبد هو الذي خص نفسه، واصطفاها بالعطاء، بل إن الله هو المعطي، وهو المتصرف، كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ ويُستفاد من ذلك أن عدم إدراك الاصطفاء الرباني قد أوقع أعداء الأنبياء في الحسد والعناد، فحادوا عن الخير، وعن طريق النجاة والسعادة. فمن امتنع من مشركي قريش، وكذلك أهل الكتاب ممن كان في المدينة عن الدخول في الإسلام، هو بسبب الحسد، وعدم الإذعان لحقيقة الاصطفاء الرباني، فمنعهم ذلك الحسد خير الإسلام الذي به النجاة من العذاب.

ثم بين سبحانه وتعالى صفات هذه الذرية ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾ فجعل بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق.[١] فالفضل والخير تسلسل في

(١) المرجع السابق (٥/٣٣٠)

ذراريهم، وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل مِنَنِه، وأفضل مواقع جوده.(١) وهذا يفيد أثر صلاح الأصل على صلاح الفروع، وكذلك أهمية الدعاء للفروع بالصلاح، كما دعا إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ ثم بين تبارك وتعالى صفتين من صفاته العظيمة، المتناسقة مع مقام كلامه عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالله ذو سمع، فلا يفوته قول قائل في ملكه سبحانه وتعالى، كما أنه ذو علم عَزَّ وجل بكل ما يعمل العباد. وقد دعت امرأة عمران بهاتين الصفتين، من أن الله تبارك وتعالى ذو سمع بما تكلمت به، وذو علمٍ بما تُضْمِرُهُ في نفسها، إذ نذرت لربها ما في بطنها، وعالمٌ بحالها ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

ويلاحظ هنا التوافق والتجانس بين وصفها لربها سبحانه وتعالى في دعائها، وبين ما أبانه الله تعالى من صفاته في الآية التي قبلها. فوصف ربنا تبارك وتعالى نفسه في الآية السابقة بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهي قالت في دعائها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو الذي يسمع كلامها وكلام كل مخلوق، ويعلم ما يُكِنُّهُ قلبها وقلب كل مخلوق من خلقه. فإذا استحضر المؤمن في دعائه دلالات هذه المعاني من صفات رب البرية أحدثت في قلبه الطمأنينة بمن يناجي ويطلب.

ومن الفوائد الجليلة أنها ابتدأت مخاطبتها لربها عَزَّ وجل بالربوبية ﴿رَبِّ﴾ لأن في معنى الرب الْمُلْك. فهو المالك الحقيقي لخلقه. والرب المصلح والمدبر والجابر والقائم. والرب: يعني ويفيد أنه المعبود وحده لا شريك له. وقال بعض العلماء هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٤٠)

وتأمل ذلك في القرآن الكريم. وكذلك لما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال[١] مما يفيد فضل الدعاء بهذا الاسم العظيم.

وامرأة عمران هي أم مريم عليها السلام، وهي حنة بنت فاقوذ. وكانت لا تحمل، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فلما تحقق لها الحمل، نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي خالصاً، مفرغاً للعبادة، بخدمة بيت المقدس[٢] ومن فوائد طلبها من الله تعالى: هو نقاء الهدف وأهميته، فلم يكن للمباهاة، أو لأي غرض مجرد من الإخلاص لله تعالى، بل كان هدفاً تعبدياً.

ومن الفوائد: معرفة أن هناك من سبق بالنذور ممن قبلنا ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ وأن النذر لا يكون إلا لله تعالى لا شريك له، وهو إلزام النفس بما لم تكن مُلْزَمَةٌ به، وأن النذر قُرْبَةٌ يتقرب بها العبد لله تعالى. وكذلك من الفوائد: أهمية سؤال الله تعالى قبول ما يُتَقَرَّبُ به إليه من الأعمال ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ فهي تسأل الله تعالى قبول نذرها الذي تتعبد به الله تعالى، مما يدل على أهمية سؤال الله تعالى قبول العمل، لأن المسلم لا يعلم أقُبِلَ العملُ منه أم لم يُقبل. كما قال تعالى عن قابيل وهابيل في سورة المائدة ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ وكان من نهج الأنبياء ملازمة الدعاء، وسؤال الله عَزَّ وجل قبول العمل كدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كما جاء في سورة البقرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ويلاحظ أن إبراهيم وإسماعيل ختما الدعاء بمثل ما ختمت به ابنة عمران ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

(١) انظر وتأمل في هذا كلام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٧/١)

ثم تأتي المفاجأة التي خالفت ما كانت تظنُّه وتأمله ابنة عمران ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ لقد رتبت ظنونها وفق ما كانت تعتقد وتأمل، بأن يكون المولود ذكراً، لأنه الأقدر على ما يقوم به من خدمة بيت المقدس. ولكن عِلْمُ الله تعالى وترتيبهُ أعظم وأجَل، بما يحقق المصلحة الغائبة عن المخلوق، مما يفيد أهمية إدراك حكمة الله تعالى، وحُسن تدبيره واختياره، الذي قد يأتي خلاف ما يظنه ويرجوه العبد، وكذلك أهمية إحسان الظن بعطاء الله تعالى، مهما كان مخالفاً لأمنيات المخلوق. فكان حالها حال المستغرب والمندهش، تضرعاً وانكساراً ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ إنها أنثى وليست ولداً، كما كانت تعتقد وتظن، لأنه الأقدر على الوفاء بالنذر لخدمة بيت المقدس. فإن اندهاشها كان اندهاش تضرع وانكسار. فيبين الله العليم الحكيم علمه المتفوق على علم المخلوق ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فإن ربكم هو الأعلم بما وضعت، بما يفيد أنه عَزَّ وجل هو الأعلم والأخبر والأبصر بما سيكون مما وضعت.

قال مكي: هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت، فقال لنا: والله أعلم بما وضعت أم مريم، قالته أم لم تقله[١] وقال الطبري رحمه الله تعالى: والله أعلم مِنْ كل خلقه بما وضعت[٢] فهو أعلم بمنتهى هذا الأمر، وبما سيكون عليه، وما سيكون منه. مما يفيد أن على المسلم الاستسلام إذا دعا ربَّه تبارك وتعالى، وأن يقبل الأمر كما هو إن جاء وورد على خلاف ما يتوقع، وأن يتقبله على أي وجه كان، وأن يدرك إدراكاً جازماً أن في ذلك خيرٌ عظيم، لسابق علمه تبارك وتعالى، ولما سيكون عليه الأمر من بعد. فلم تكن تعلم امرأة عمران أن التي انجبتها ستُنْجِبُ نبياً رسولاً لله تعالى إلى بني إسرائيل. مما يفيد أن هذه الأحداث من آيات الله تعالى تربي جانب الرضا بما يُعطي الله تعالى. وكذلك تبين أهمية الهدف، وابتغاء النية الصالحة في الذرية. فسبحان من له الأمر كله، وله أحسن التدبير وأعظمه.

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٤٤)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٣٦)

وقد عللت ابنة عمران قولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ من اختلاف الأداء والمسؤوليات المناطة بين الذكر والأنثى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا الاستغراب ليس استنكاراً منها على عطاء الله تعالى، ولكن هذه المقارنة بحسب حال ما نذرت له من خدمة بيت المقدس، والتي تكون من الذكر أقدر على ذلك. وهذا يفيد أن ما يأتي من إرادة الله تعالى وعلمه خيرٌ مما يتوقع ويأمل العبد، وقد يأتي من فروع الأنثى الأمر العظيم، في حق أصولها من الأبوين وما علا وتفرع. فالحمد يكون ملازماً للعبد فيما يختاره الله تعالى. ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: كان في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس، حيث كان نذرها بناء على أن يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك[١]

ثم ينتقل السياق إلى استقبال المولودة بتسميتها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة[٢] ثم عوذتها وذريتها من العدو الشيطان الرجيم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مما يفيد أهمية تعويذ المولود عند ولادته من الشيطان الرجيم، وكذلك تعويذ النسل، أو الذرية. وكذلك الدعاء له بالخير. فقد كان التعويذ من ابنة عمران لمريم ولذريتها من الشيطان الرجيم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان شأن الله عَزَّ وجل مع حال مريم عليها السلام ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا

---

(١)السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٤١/١)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٧/١)

زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فبين الله تعالى أنه تقبلها واستقبلها، أي سلك بها طريق السعداء، والتّقبّل: التّكفّل في التربية والقيام بشأنها[١] فتقبل تبارك وتعالى بفضله ومنّه مِنْ أمها ما أرادت من النذر. وأنبتها ربها في غذائها ورزقها ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ فكان هذا صفة القبول والإنبات الحسن. مما يفيد أهمية سؤال الله تعالى القبول، لأن الله إذا قَبِلَ طلب العبد، سلك به وبشأن المقبول طرائق الفلاح، والنجاح، والبركة، والسعادة. كما يفيد هذا مشروعية النذر، والذي لم يمنعه شرع الله تعالى المُنَزَّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بينت الآية الكريمة شأن كفالتها، مما يدل ويفيد أنها كانت يتيمة، وقيل: أصابت بني إسرائيل سنة جدب، فكفل زكريا مريم، ولا منافاة بين القولين، والله تعالى أعلم[٢] وفي كلا الحالتين يفيد هذا أهمية الكفالة والرعاية إذا احتاج المكفول لها، لأي سبب من الأسباب، ويدل على فضل الكافل، حيث نوه الله تعالى بزكريا في كفالته لمريم، بذكر شأنه في كلامه الكريم، الذي يُتلى إلى يوم الدين، وقيل أنه زوج خالتها، وقيل زوج أختها[٣] ومما خص الله تعالى به مريم عليها السلام، ما بينته الآية الكريمة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ يعني

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٤٥)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٦٨)

(٣) المرجع السابق (١/٣٦٨)

وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[١] والمحراب هو أكرم موضع في المجلس[٢] وكذلك هو محل العبادة، وبهذا المعنى فيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها[٣]

ويُستفاد من هاتين الدلالتين لمعنى المحراب: أن محل وموضع العبادة هو أكرم مكان من جنسه، فالمساجد أكرم مكان من جنس الأرض، ومحراب الْمُصَلَّى هو الأشرف، وما أُتُخِذَ للعبادة من المجلس، هو الأشرف والأكرم. ثم إن هذا الرزق قد استثار زكريا عليه السلام، فبادر بسؤالها ﴿ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ مما يفيد أن لا بأس في السؤال عن الشيء الْمُسْتَغْرَب، ولا يُعدُّ تدخلاً في شأن الغير. فأجابته مريم عليها السلام بما قال الله تعالى عنها ﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وفي ذلك اثبات كرامة الأولياء، وأن الله تعالى لا يُعجزه شيء من الكرامات، التي يُكرم بها من شاء من عباده، فالله تعالى يرزق من يشاء، كما هو في تمام الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ وفي هذا إثبات مشيئة الله تعالى في الرزق لعباده، مقداراً وزمناً ونوعاً، وأن من دلالة مشيئة الله تبارك وتعالى في الرزق أنه يُعطي بغير حساب لمن يشاء مِنْ خلقه، فلا يحده عدد ولا إحصاء، ولا نوع، ولا كثرة. لأن من يحسب هو الذي يخشى النقص، وهم المخلوقين، فأما الخالق فلا تنقص خزائنه. وهذا الأمر حَفَّزَ زكريا عليه السلام أن يسأل رَبَّه تبارك وتعالى الذرية. بالرغم من أنه كَبُرَ في السن، وامرأته لا تلد.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥٤/٥) وكذلك المرجع السابق

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٦/٤)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٤٢/١)

وينتقل السياق القرآني الكريم إلى أمر زكريا عليه السلام مع رَبِّه تبارك وتعالى، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، حيث استثاره ما رأى من حال مريم في الرزق الخارق للعادة، ولسنة الله تعالى في مخلوقاته، فكانت آية باهرة بأن يرى فاكهة الصيف عند مريم عليها السلام في فصل الشتاء، ويرى فاكهة الشتاء في فصل الصيف، فإنها آية خارقة من وجهين: الأول: أنها في غير وقتها. والثاني: لا يوجد أحد من المخلوقين يمكن أن يأتي لها بهذا، غير الخالق تبارك وتعالى. وهنا دعا زكريا ربه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ وهذا يفيد الاعتبار بالغير، وأثر الواقع الْمُشَاهَد على النفس البشرية، وأنه من أقوى المواعظ والإرشاد، وأن القدوة الحسنة الصالحة مؤثرة في غيرها بواقع الحال منها، مما يدل على أن واقع الحال أبلغ في الأثر على النفوس البشرية.

ومعنى ودلالة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أفادت أنه عندما رأى زكريا تلك الكرامة الإلهية على مريم، دعا رَبَّه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ فكان دعاؤه في تحقيق أمنيته بحصول الذرية، وخص مطلبه في هذه الذرية أن تكون مُتَّصِفَة بالصفات الطيبة. ودلالة ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تحمل الصلاح بجميع أوصافه. مما يفيد وينبه على أهمية سؤال الخير فيما يدعو ويطلب الإنسان من ربه سبحانه وتعالى، من ذرية، ورزق، وعمر، وغير ذلك مما يسأله من المعطي الكريم، جَلَّ جلاله. ولفظة الذرية يقع على الواحد والجمع، كما قال الزمخشري رحمه الله تعالى [١]

وإذا ضُمَّ إلى ذلك قول زكريا عليه السلام في سورة مريم، من قوله تعالى ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ اتضح وأفاد أهمية الهدف، إذ لم يكن هدف زكريا عليه السلام مجرد حصول الولد، بل ليرث العلم والنبوة. وقد جاء في سورة الأنبياء ما يدل على رجائه من ربه، بأن لا يتركه بلا ولد يرثه ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ ﴾ وطلب من ربّه تبارك

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٧٢/١)

وتعالى أن يكون متصفاً بالصلاح ﴿ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾ مما يفيد ويُعلِّم المسلم أهمية الهدف الصحيح، والنية الصالحة في طلب الذرية وغيرها من مطالب الإنسان.

ثم أردف زكريا عليه السلام هذا الدعاء بقوله لربه تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي: إنك سامع الدعاء. غير أن ﴿ سَمِيعُ ﴾ أَمْدَحُ. وهو بمعنى ذو سمع له.(١) وهذا يفيد أن من آداب الدعاء مدح الله تعالى بما هو مناسب لحال الدعاء. وبإضافة ما جاء في سورة مريم من صفة نداء زكريا لربه عَزَّ وجل، فيتضح المزيد من أدب الدعاء ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ فكان النداء خفياً، أي سراً بعيداً عن الرياء. وكذلك قوله في وصف وتمجيد ربه عَزَّ وجل ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ فتلك من آداب الدعاء. فقد وصف زكريا عليه السلام ربه تبارك وتعالى بما يؤمن به، من فناء الدنيا، الذي يترك العباد بموجبه جميع ما يتوارثونه، فيكون البقاء لله تعالى وحده ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ كما جاء في سورة القصص ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ فكل شيء هالك، ومنتهي إلا الخالق تبارك وتعالى، لا إله هو الحي القيوم.

فاستجاب الله دعاء زكريا عليه السلام بغاية الإكرام ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾ أي خاطبته الملائكة خطاباً شفاهاً، أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته.(٢) بشارةُ الله تعالى له بولد اسمه يحي عليه السلام. فيدل هذا الحدث العظيم على منزلة ومكانة زكريا عند ربِّه، إذ لم يَحْدُث الحمل فقط، بل تقدَّمته البشارة، وكانت البشارة بمخاطبة الملائكة له مخاطبة شفهية بمضمون البشارة، فسبحان الكريم الرحمن اللطيف، الذي لا يعجزه شيء. ومن فوائد هذه الآية الكريمة، بيان حال زكريا في العبادة، وكذلك أن له محراب عبادة، ومناجاة وصلاة.

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٣/٥)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩/١)

وهنا فائدتان لغويتان: الأولى: أن جمع التكسير يُؤَنَّثُ فعلُه. حيث جاء التأنيث في كلمة ﴿ فَنَادَتْهُ ﴾ وجمع التكسير في كلمة ﴿ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ ومثال ذلك: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ ومثالٌ آخر: جاء طير أبيض، فهو مذكَّر، ومع هذا إذا جُمِع قيل: جاءت الطيور. والفائدة الثانية: من اختلاف روايات المفسرين. هل المقصود جمع من الملائكة، أو جبريل عليه السلام. فإن كان جمع، كان كذلك، وإن كان جبريل لوحده. فإن العرب تُخبر عن الواحد بمذهب الجمع. كما يُقال في الكلام: خرج فلان على بغال البُرُدِ. وإنما ركب بغلاً واحداً. ورِكِبَ السُّفُنَ، وإنما ركب سفينة واحدة، ويقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى، أن الصواب في تأويله: أن يُقال: إن الله جَلَّ ثناؤه أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة، دون الواحد، وجبريل واحد، فلن يجوز أن يُحْمَل تأويل القرآن إلا على الأظهر، الأكْثر من الكلام المستعمل في أَلْسُنِ العرب دون الأقل، ما وجد لذلك سبيل.(١) وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: فالمعنى الحقيقي مُقَدَّم.(٢) مما يبين دقائق اللغة العربية، ودقائق القرآن العظيم في ألفاظه، كما هي دقائقه العميقة في أساليبه، وطرائق بيانه، وعظيم توجيهه تبارك وتعالى.

ويُستفاد من ذلك أثر القرآن الكريم في إشعال العقول، وإثارة الأذهان لتقصي أساليب وألفاظ وكلام الفصيح من ألسنة العرب، فأفاقت العقول واستفاقت باستثارة القرآن الكريم لها، وساحت الأذهان في ميدان العربية: بلاغة وأساليباً وبياناً وإعراباً، فحفظ الله تعالى بهذا القرآن الكريم هذه اللغة الماجدة العظيمة، التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية. فالحمد والشكر لله تعالى.

ثم أخبر اللهُ تعالى عمَّا بشرته به الملائكة ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ فالْمُبشر هو الله تعالى عَزَّ وجل، والملائكة ناقلة ومُخْبِرَةٌ للبشارة. فَأَعْظِم به من أمر، وأعظم بها من بشارة، مما يفيد منزلة زكريا عند ربه تبارك وتعالى. فقد بشرته الملائكة بولد، من صلبه، واسمه يحى. وهذا يدل على فضل الدعاء. بل زادت البشارة إلى بيان عظيم أوصافه، ومهامه العظيمة ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٤/٥ – ٣٦٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٧/١)

﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ فإن يحي هو مصدق بعيسى ابن مريم عليهم السلام جميعاً، وعلى سنته ومنهاجه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يحي وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحي تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فذلك تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى.[١] عليهم الصلاة والسلام.

ومن صفاته الشرف والمكانة ﴿وَسَيِّدًا﴾ وهو الذي يفوق قومه في الشرف[٢] وهو الحليم، وقيل: السيد في العلم والعبادة، وقيل: الحليم التقي. وقيل: الفقيه العالم، وقيل: السيد في خلقه ودينه، وقيل: الذي لا يغلبه الغضب[٣] وهذا يدل على أن بعض الصفات الخُلُقية جِبِلِّية، يَجْبِلُ اللهُ تعالى من أراد بما أراد من مكارم الأخلاق. وكذلك العلم وغيرها من الصفات، فقد تكون مَوهُوبَةٌ من الواهب الوهاب، تبارك وتعالى، فيختص بها من يشاء، وقد يكون بعضها مطلوب ومكتسب، بتوفيق من الله تعالى للعبد، فيحصل منه الحرص عليها، ببذل أسباب تحصيلها، فيوفقه الله تعالى لكسبها.

ومن صفاته التي ذكرها الله تعالى في بشارته لزكريا عليه السلام ﴿وَحَصُورًا﴾ أي الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه، أي منعاً لها من الشهوات[٤] وقيل: الذي لا يأتي النساء. وقيل معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها، كأنه محصور عنها[٥] وهو الأليق. واستخلص الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تحليله إلى القول: أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله تعالى كيحي عليه السلام، ثم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٢/٥ – ٣٧٣) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩/١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣٧٢/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩/١)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٣٧٢/١)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٩/١ – ٣٧٠)

هي في حق مَنْ قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه: درجة عليا، وهي درجة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لم يُشغله كثرتهن عن عبادة ربه[١] عَزَّ وجل.

ويضاف إلى ذلك من الفوائد الاستدلالية: أن ﴿ وَحَصُورًا ﴾ على صيغة فعول. وفي ذلك دلالة مباشرة على الحرص والامتناع، مع وجود القدرة. بخلاف كلمة محصور التي هي على وزن مفعول، والتي تفيد وقوع الحصر من الغير، أي خارج الإرادة، فَمُنِعَت القدرة، فيكون امتناعها بسبب المانع الخارج عن الإرادة. ومن الفوائد كذلك أن وصف ﴿ وَحَصُورًا ﴾ جاء على وزن فعول، وهي أحد صيغ المبالغة، التي تفيد استمرارية الامتناع وملازمته، والحرص على ذلك بمجاهدة النفس، مع وجود القدرة. فتكون هذه الصفة صفة مدح وثناء في حق يحي عليه السلام، إذ يمتنع بإرادته الْمُوَفَّقَةُ من الله تعالى عما امتنع عنه. فيكون المقام، مقام مدح بهذه الصفة، كما قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب، يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخلقة وفي نفس الجبلة[٢] وهذا من غزارة المعنى في المدح له عليه الصلاة والسلام.

ومن صفاته ومهامه كذلك أنه ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فهو رسول من ربه إلى قومه، يُنْبِئُهم بأمر الله تعالى ونهيه، وحلاله وحرامه، ويبلغهم عنه ما أرسله به إليهم.[٣] وهي بشارة ثانية بنبوة يحي، بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى[٤] ثم هو مُتَّصِف بالصلاح. فالصالح هو الذي يؤدي ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم.[٥] فالصلاح يتضمن أمرين: أمر مع الله تعالى، فيؤدي ما افترضه الله تعالى عليه. وأمر مع الناس، فيؤدي حقوقهم غير منقوصة ولا متأخرة.

---

(١) المرجع السابق (٣٧٠/١)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٧/١)
(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨١/٥)
(٤)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٠/١)
(٥)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥١/٤)

ثم بين الله تعالى حال زكريا ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾

فتوضح هاتين الآيتين حال زكريا عليه السلام، واندهاشه تعجباً بعد بشارة الملائكة له. لِمَا يعرفه من الأسباب الطبيعية المانعة من حصول الحمل ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ فقد كَبُرَ في السن الذي أضعفه، وكان له تسع وتسعون سنة[١] وزوجته عقيم، لا تلد. فكان السؤال عن كيفية حصول الولد مع امتناع وانتفاء الأسباب. فالزوجة عقيم، وسِنُّه كبير عليه الصلاة والسلام. فأجابه مُسبب الأسباب وصانعها ومدبرها سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ وقد بين العزيز القدير لزكريا عليه الصلاة والسلام في سورة مريم مَنْشَأ زكريا من العدم كبقية الخلق ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ فكما خلقك من قبل، يخلق يحي، فالخالق القادر هو الله تعالى، وهو مالك ومصرف الأسباب.

مما يفيد أنه إذا طمع المسلم في أمر يعجز عن تحقيقه، أو أن الأسباب مُتَعَذِّرةٌ عليه، فإن ما يتعذَّر ويعجز عنه المخلوق، لا يُعجز ولا يتعذَّر على الخالق العظيم، سبحانه وتعالى. فهو الذي وضع النواميس وقَدَّرَ القوانين، وهو الذي جعل النار برداً وسلاما على إبراهيم عليه السلام. وجعل مريم تحمل بعيسى من غير أب عليهم الصلاة والسلام. وقد أفاد ذلك أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فَعَلَهُ بمنافات الأسباب، وتحريف الأسباب، وتعطيل الموانع وإيقافها، مما يغرس في المؤمن قوة وزيادة في الإيمان بقوة الله تعالى وقدرته، فالخلق خلقه، والنظام نظامه، يُسَيِّرُهُ كيف شاء، وعلى

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٧٣/١)

الوجه الذي يشاء، وأن الله تعالى فَعَّال لما يريد. فلا يتردد المؤمن من سؤال الله تعالى، حتى وإن عاين صعوبة وابتعاد الأسباب، وأنها بعيدة المنال. فإن الله تعالى قريب مجيب، يحرف ويصرف الأسباب كيف شاء. فإن ضعفت أسباب علاج الأمراض فلا تصعب على الشافي، المشافي، الكافي، وإن غابت أسباب الرزق فإنها لا تغيب عن الغني الكريم، ولا يعجزه تحريفها وتصريفها كيفما شاء، وهكذا في كل أحوال المؤمن. ويفيد ذلك كذلك أن الأسباب لا تعطي ولا تُحقق إلا بقدر مشيئة الله العزيز الحكيم. فبهذا ينقطع اليأس من قلب المؤمن، ويحل محله الأمل في الله تعالى، وفي قدرته وتقديره، عَزَّ وجل.

ثم طلب زكريا عليه السلام من الله تعالى علامة يعرف بها حَمْلُ زوجته، ليتلقى هذه النعمة بما يليق بها من الشكر والثناء، فأخبره الله تعالى أن آية وعلامة ذلك الحمل هو عجز زكريا عليه السلام عن الكلام، فلا يتكلم ثلاثة أيام إلا رمزاً، بالإشارة. ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

وفي هذه آيتان عظيمتان باهرتان: الأولى: آية المنع من الكلام بعد القدرة. والثانية: آية العطاء بعودة الكلام بعد غياب القدرة وانعدامها، فإذ مُنِعَت القدرة المعتادة من الكلام لمدة ثلاثة أيام، ثم إعادتها بعد تلك الثلاثة الأيام، فإنه بذلك قد تجانست هذه الآية الباهرة المانعة للكلام مع القدرة على إعطاء الْحَمْل بعد العجز والامتناع. فهذه آيتان خارقتان باهرتان بالمنع والعطاء، وبما يخالف الحال وواقع السنن والخواص التي وضعها الكريم الرحمن، فَإنه مَنْعٌ وتَعْطِيلٌ للقدرة الْمُعْطَاة من الكلام، وإطلاق وتفعيل للقدرة الْمُعطلة بِسُنَنِ الله تعالى من عوامل الحمل والإنجاب. فسبحانه وتعالى الذي أوجد القُدْرَة بعد انعدامها وغيابها عن الإنجاب، ومنع القدرة على الكلام بعد وجودها ثم أعادها. فإن الذي منع القدرة بعد وجودها، هو الذي منح وأعطى القدرة بعد انعدامها. فلا يأس إذا غابت القدرة بانعدامها أو بُعْدِها، ولا غُرور إن وجدت القدرة وتأثيرها، فقد يخذل اللهُ تعالى بسلب القدرة عن فعلها. ولا يأس عند انعدام القدرة أو ضعفها، فقد يُعيد ويُوجِد القدرة بعد انعدامها، أو امتناعها أو ضعفها. فلا يأسٌ للعبد مع الله تعالى. ولا غرور بالقدرة مع كمال قدرة الله

عَزَّ وجل. فالذي أعاد القدرة بعد انعدامها يُعيد الحياة بعد الموت، مما يوجب الإيمان بالبعث والنشور، وأن الله تعالى على كل شيء قدير.

فيتبين للعبد أن الأسباب بيد الله تعالى الكريم الرحمن، منعاً وإعطاءً، فسبحان من يمنع ويعطي، ويُعطِّل ويصلح بحكمته، فلا سببٌ يمنع عطاء الله تبارك وتعالى، ولا سببٌ يعطي ما منع جَلَّ جلاله. فلا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع. فسبحان العلي القدير المتعال. فهذه المعجزات والآيات عبرة ودروس لكل مُعْتَبِر من الأنام.

ثم أمر الله تعالى عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بكثرة الذكر والتسبيح، خاصة في وقت المساء والصباح. مما يفيد أنه يتم تلقي النعمة بكثرة الذكر في كل وقت وحين، ولا سيما وقت المساء والصباح. ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ فَتُتَلَقَّى كل نعمة بالمزيد من التسبيح والذكر لله عَزَّ في علاه.

ثم يعود السياق إلى قصة مريم ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

لقد عاد السياق القرآني الكريم إلى قصة مريم، بعد انقطاعه بقصة زكريا عليهما السلام. وذلك أن هناك علاقة وتشابه بين أحداثهما: فأولها: أن في القصيتين حوادث خارقة للعادة، بمخالفتها لما عرفه الإنسان من سنن الله الكونية، ابتداء بفاكهة الصيف عند مريم في فصل الشتاء، وفاكهة الشتاء في فصل الصيف، وحُدُوث الحمل بيحى عليه الصلاة والسلام، وتوقف قدرة زكريا على الكلام ثلاثة أيام.

وثانياً: أن زكريا عليه الصلاة والسلام قد تَكَفَّل واهتم بمريم واعتنى بها. ثم بعد عنايته وكفالته لمريم عليها السلام، تفضل الله تعالى عليه بيحى. مما يفيد أن الإخلاص لله تعالى في إسداء الخير للغير يجر الخير والفضل. وثالثاً: أن في قطع قصة مريم بمقطع من قصة زكريا عليهما السلام، إثارة لعامل التشويق، ثم ليتم الاستئناف لها بعد ذلك.

وقد ابتدأ السياق القرآني الكريم للمقطع الثاني من قصة مريم بكلام الملائكة مشافهة لمريم، وإعلامها بمنزلتها، واصطفاء الله تعالى لها على جميع نساء العالمين ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فابتدأت الملائكة خطابها لمريم بياء النداء ﴿ يَٰمَرْيَمُ ﴾ والذي يحمل في دلالته لفت الانتباه لأمر عظيم، وهو اصطفاؤها وتطهيرها. وهنا يظهر أهمية أسلوب النداء للتنبيه، وتحديد الْمُخَاطب والمعني بالأمر. ومن الفوائد كذلك: أن تكليم الملائكة لمريم يُعَبِّر عن منزلة عظيمة شريفة لها من أجل إخبارها باصطفاء الله تعالى لها وتطهيرها. أي اختارها واجتباها، وهذا الاصطفاء جاء في الآية مرتين: الأولى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي: اختارك واجتباك لطاعته، وما خصك به من كرامته[1] فكان الاصطفاء هنا عاماً، وله ميزة ومنقبة، خاصة وأنه جاء بعده ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ بمعنى نقاك، وطهر دينك من الرّيب والأدناس[2] وكذلك من الأكدار والأخلاق السيئة. وأما الاصطفاء الثاني: فهو قوله تعالى ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ليبين جلالتها وقدرها الرفيع على نساء العالمين. فيكون الاصطفاء الأول عام بالهداية والتوفيق والعناية، والاصطفاء الثاني تفضيلها على جنس النساء. وقال صلى الله عليه وسلم (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون.)[3]

ومن فوائد ذلك أنْ نَسَبَ اللهُ تعالى الاصطفاءَ منه سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ فهو الذي يصطفي ويختار، وليس الإنسان هو الذي يتوصل بنفسه لذلك، فالحكم والاختيار والاجتباء لله وحده لا شريك له. وأن على المؤمن تقدير وإجلال من اصطفاه الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٩٢)

(٢) المرجع السابق (٥/٣٩٢)

(٣) البخاري (٢/٤٨٦) برقم (٣٤٣٣)

واختاره. كالأنبياء والمرسلين. وكذلك يُستفاد من هذا أن الْمُعْطِي هو الله تبارك وتعالى، وبالتالي فإن على المؤمن ألا ينظر للنعم التي عنده على أنها قائمة على جهده الذاتي، بل إن الله تعالى هو الذي سخرها له ومكَّنه منهاه، ولو شاء لجعله من المحرومين منها، وجعل المحروم منها مكانه. وكذلك من الفوائد ألا يحسد المسلم أخاه في نعمة من النعم، فإن الذي أعطى هو الله الغني الكريم، وألا يتكبر بنعمة، ولا ينازع أخاه في نعمته.

ثم يأمر الله تعالى مريم عليها السلام بالعبادة ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ويتكرر النداء للأهمية والتنبيه بأمر العبادة، مما يفيد أن النداء يلفت الانتباه، ويشده نحو ما نُودِيَ له. وقد كان النداء هنا لأمر عظيم. إذ يأمرها الله تبارك وتعالى بالقنوة له سبحانه وتعالى ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ وهو الطاعة لله وحده[١] وكذلك بالسجود والركوع ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي: افعلي كفعلهم[٢] أي صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أُمِرَت به، وبرزت وفاقت في كمالها[٣]

وفي هذا التوجيه الرباني ما يدل على شرط الإخلاص في الطاعة، بأن تكون لله تعالى، فقد أمرها الله تعالى أن تقنت له ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ وكذلك يفيد التخصيص بالركوع والسجود على أهمية شعيرة الصلاة، وأهمية هذين الركنين العظيمين، والتي كثيراً ما يشير ويرمز القرآن بهما، أو بأحدهما على الصلاة، كقوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ وقوله تعالى في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الفتح ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾ وفي ذلك من الفوائد من حيث الأساليب: أنه قد يُرمز للشيء بأعظم ما فيه. ومن الفوائد كذلك فيما يخص تقديم السجود على الركوع: أنه قيل: أن الواو لا تقتضي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٩٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٥٥)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٤٤)

الترتيب، وإنما تؤذن بالجمع، فالركوع مُقدّم. وقيل أنه كذلك كان في شريعتهم تقديم السجود على الركوع.(١) ومراد القرآن هو البيان للأمر بما أُمِرَت به مريم عليها الصلاة والسلام، وليس الكيفية، لأن عبادة من قبلنا منسوخة بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ولكن الفائدة تظهر في استحثاث عقول العلماء للبحث والتقصي، وكذلك فائدة فهم اللغة في فهم دلالات القرآن الكريم، وأن العلماء الربانيين عندما يشتغلون بالتأويل فإنما يجتهدون وفق ركائز من الأدلة ومساحة الدلالات المتنوعة.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فإن سياق هذه الأنباء وإيرادها دليل على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ أن هذا البيان من قصة مريم وزكريا عليهما السلام هو من أنباء الغيب، فلا يعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ** ﴾ فأثبت الله تعالى أن هذا القصص من علم الغيب. إذ أنه أُوحِيَّ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليكون حجة على نبوته، وتحقيقاً لصدقه، وينقطع به عُذْرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتاب، الذين يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يَصِل إلى علم هذه الأنباء مع خَفَائِهَا ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلا بإعلام الله تعالى له بذلك.(٢)

وفي ذلك من الفوائد إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحى به الله تعالى له من الغيب الحادث في الأمم السابقة، ومنها ما هو معروف عند علماء أهل الكتاب ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ** ﴾ فذلك العلم بأحوالهم من الغيب الذي نُنَزِّلُه عليك.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٠/١)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠١/٥)

ثم بين تبارك وتعالى مزيداً من الإعجاز الغيبي الدال على نبوته صلى الله عليه وسلم، وذلك ببيان ما هو متقرر من عدم وجود النبي صلى الله عليه وسلم عندما حدث أمرٌ دقيقٌ بين قوم مريم عليها السلام، من التنازع بينهم في كفالتها ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ فبدأ البيان أولاً: بتقرير حقيقة دقيقة يعرفها الْمُخَاطَبُون، ولا يختلف فيها أحد، لتقود من أراد الحق إلى الحق، وهي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فما كنت يا محمد عند قوم مريم إذ يختصمون فيها، أيهم أحق بها، وأولى بكفالتها. وذلك أنهم ألقوا سهام القرعة ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ التي هي سهامهم للقرعة، ففاز بكفالتها زكريا عليه السلام. فهذا رد وبيان تعجيزي، وإعجازي من أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن معهم في ذلك الأمر الدقيق، فما معرفته بذلك إلا وحي ودليل على نبوته صلى الله عليه وسلم، وفي هذا توبيخ من الله تعالى للمكذبين من أهل الكتاب. مما يفيد أن في إقامة الحجة الصادقة على الكاذب والمنكر والمتكبر توبيخ وإذلال له. حتى وإن بقي على كذبه وكبره وضلاله.

وفي هذا من الفوائد: إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا. وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها. ومن الفوائد كذلك أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة[١] ثم جاء هذا الاستدلال على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أثناء قصة مريم، وقبل الانتهاء منها، ليفيد أهمية هذا البيان الاستدلالي على نبوته صلى الله عليه وسلم، بحيث قُطِع بيان القصة، ليعلن إثبات دليل النبوة المحمدية. مما يبين ويُظهر منهجية التحليل والاستدلال في إثبات الحقائق. ثم ينتقل السياق إلى قصة مريم عليها السلام مرة أخرى، فقال تعالى:

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٥٦)

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

بعد الاستدلال بهذا القصص الدَّال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يعود السياق القرآني الكريم إلى أمر وشأن مريم وعيسى عليهما السلام، مُبْتدئاً البيان الإخباري بتبشير أمه مريم، حيث جاءت الملائكةُ مخبرةٌ ببشارة الله تعالى لها ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ فالملائكة ناقلة للبشارة، وأما الْمُبشر فهو الله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ فأعْظِم به من أمر، وأعظم بها من بشارة، وهذا يدل على مقتضى أسماء الله وصفاته، بأنه لطيف وأنه رؤف رحيم، إذ كيف يتلطف بالبشارة لمريم، كما أن قول الملائكة لم يكن هو: أن الله يخبرك بل ﴿يُبَشِّرُكِ ﴾ مما يفيد منزلة مريم عند ربها عليها السلام. فالْمُبَشِّر هو الله تعالى، والملائكة ناقلة للبشارة. وهذا مماثل لبشارة الله تعالى لزكريا عليه السلام، إذ كانت الملائكة ناقلة لبشارة الله تعالى.

ومن الفوائد أن الملائكة ابتدأت الخطاب بياء النداء ﴿يَٰمَرْيَمُ ﴾ والذي يحمل في دلالته لفت الانتباه لأمر عظيم، وهو أمر عيسى عليه الصلاة والسلام. وهنا يظهر أهمية أسلوب النداء للتنبيه، وتحديد الْمُخَاطب والمعني بالأمر، وهي مريم عليها السلام.

ثم بين تبارك وتعالى صفات عيسى عليه السلام ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فهو بكلمة من الله تعالى التي هي ﴿كُن ﴾ فكان من غير أب. ومن معاني صفاته عليه السلام، كما في صحيح الإمام البخاري ﴿وَجِيهًا ﴾ أي: شريفاً[1] وفي كلام العرب: أي

([1]) البخاري (٤٨٦/٢) باب (٤٦) (آل عمران)

المحبب المقبول. وقيل: ذو الجاه، وذو المنزلة الرفيعة عند ذوي القدر والمعرفة[١] ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي: الصديق، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: الكهل الحليم[٢] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فكأنه سُمّي مسيحاً لذلك[٣] ووجاهته ملازمة له في الدنيا والآخرة. وأنه من المقربين، فله مكانة ومنزلة عند الله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله تعالى إليه من الشريعة، وينزله من الكتاب، وغير ذلك مما منحه الله تعالى. وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه.[٤] مما يفيد أن الفضل مِنَحٌ من الله تعالى، فيختص بها من يشاء من عباده، وأنه تبارك وتعالى يُعطي من يصطفيه من المكانة والخصائص والمعجزات ما يجعله وجيهاً شريفاً، وكريماً بين العباد. وهذا يفيد أمرين: الأول: سؤال الله تعالى فيما يحب العبد، ويتمناه من خير الدنيا والآخرة. لأن الله تعالى لا يُعجزه شيء في الدنيا والآخرة. ثانياً: أن من حصل له فضل، فهو من الله تبارك وتعالى، مما يوجب ألا يحسد المسلمُ من أعطاه الله تعالى فضلاً من فضله، فإن المتفضل هو الله تعالى، وليس العبد هو المتفضل على نفسه.

ومن خصائص عيسى عليه السلام الخارقة، أنه يكلم الناس في طفولته ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره. فتكون معجزة وآية، ويكلم الناس كهلاً بالوحي والرسالة، فقد كلمهم بالوحي حين برَّأَ أُمَّه كما في سورة مريم ﴿قَالَ إِنِّى عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيّٗا ٣٠﴾ وأما الكهل هو من ناهز الأربعين[٥] فهو يكلمهم في طفولته وكهولته بكلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣١/١)

(٢) البخاري (٤٨٦/٢) باب (٤٦) (آل عمران)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٤)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٢/١)

(٥)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٨/٤)

وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويُسْتنبَأ فيها الأنبياء[١] فأعطاه الله تعالى عقل العقلاء منذ طفولته، ليكون آية حتى في مرحلة المهد. فسبحان الخالق العظيم، والمانح للفضل بما يريد لمن يريد.

ومن صفات عيسى عليه السلام، الصلاح الذي هو ضد الفساد ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فاتصف من الله تعالى بصفة الصلاح. فتلك هبات الله تعالى وآياته الباهرات في عباده، مما يوجب الإذعان له تبارك وتعالى، والالتجاء إليه، وسؤاله من كريم فضله، فهو الكريم الذي لا يعجزه شيء على الإطلاق.

وهنا تتساءل مريم عليها السلام تعجباً واستفهاماً، وليس شكاً وإنكاراً، عن كيفية حصول هذا، فتقول: كيف يوجد هذا الولد مِنّي؟ وأنا لست بذات زوج، ولست بغياً ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ فقال لها الْمَلَكُ عن الله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ولم يقل: يفعل ما يشاء كما في قصة زكريا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ بل نص هنا على الْخَلْق، بأن يخلق. لئلا يبقى لمبطل شبهة[٢] فذكر تبارك وتعالى لزكريا عليه السلام الفعل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ لوجود السبب، وأما مريم عليها السلام فقد ذكر الله تعالى لها الخلق ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ دون السبب، لانعدامه، ولإزالة أي شك. وهذه دقة في الجواب بما يناسب العلة والأسباب.

لتظهر بذلك الدقة اللفظية للقرآن الكريم عن مراد الله تبارك وتعالى في أدق البيان، ودقائق الدلالات والمعاني والمقاصد، لِتُؤْتِي كل لفظة بالمراد المحدد منها في أدق المقاصد والبيان، وليكون إعجازاً بلاغياً لمن أمعن وتدبر، كما هو إعجاز في الخلق. وليظهر الإعجاز في الإيجاد المخالف للأسباب والسنن التي قضاها الله تعالى في كونه. فانتفاء أسباب القدرة لا يمنع الإيجاد والتكوين والخلق عند ملك الملوك، الْخَلّاقُ العليم، ليكون خَلْق عيسى عليه السلام آية عظيمة من آيات

(١) الزمخشري، الكشاف (١/ ٣٧٦)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٢/١)

الله تعالى، وليتبين أن الأسباب لا تعمل بذاتها، بل بقدرة القدير المتعال، وأن انتفاءها وعدم وجودها، أو تعطيلها لا يمنع مراد الله تعالى. فلا يأس مع الله تعالى، ولا قوة ولا حول مع عدم مراد الله تعالى ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبكلمة ﴿كُن﴾ يكون ما أراد الله تعالى إذا قضى قضاء.

ومن الدلالات القرآنية العظيمة تربية الحياء اللفظي في الخطاب وفي البيان، والتي يزخر بها القرآن العظيم في جميع بيانه. إذ قالت مريم عليها الصلاة والسلام ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ فاختارت وعبرت بالمس، ولم تُعَبِّر بغيرها من الألفاظ والعبارات الأخرى الكثيرة. مما يدل على أهمية الحياء اللفظي، كما هو الحياء السلوكي، وأن الحياء مقصد من مقاصد شرائع الله تعالى، ومنهج من مناهج الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباد الله تعالى. وأن من يختار العبارات اللفظية المفعمة بدلالة الحياء فإنما ينم عن غزارة الإيمان. لأن الحياء من الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾

ثم يتناول السياق القرآني الكريم المزيد من الإيضاح والبيان عن القدرات والآيات والبراهين والحجج التي سَتُمْنَح لعيسى عليه السلام، ليكون بها رسولاً إلى بني إسرائيل، فلا يعانده ولا يكذبه أحدٌ إلا جاحد متعمد الكفر. فأولها حصول التعليم والعلم ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي يعلمه الكتابة والخط[١] وهو المقصود بعلم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقيل كُتُب النبيين وعلمهم. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ويعلمه أيضاً ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما عن دلالة الحكمة: أنها الفقه وقضاء النبيين[٢] وقيل في الحكمة: العلم، وقيل تهذيب الأخلاق[٣] أي: يعلم الخير فيفعله، والشر فيتركه، ويُعَلِّمُه كذلك ما أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام وهو ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وكذلك الذي أُنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام وهو ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وبالتالي كان عيسى عليه الصلاة والسلام عالماً بالتوراة والإنجيل.

ويُسْتَفَادُ مما سبق في مجال المنهج التطبيقي: أهمية العلم وفضله، حيث كان محل ومكان امتنان وفضل من الله تعالى على عيسى عليه الصلاة والسلام. وسائر الأنبياء والمرسلين. وكذلك فَضْلُ علم الكتابة، وفَضْلُ علم كتاب الله تعالى: التوراة والإنجيل في ذلك الوقت، وفضل علم القرآن الكريم من عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه نسخ ما قبله. وكذلك فضل الحكمة، وفضل طلبها وعلمها، لشمولية معانيها ودلالاتها لعلم الخير وفعله. وفيه كذلك التدرج في مراتب العلوم، إذ أولها علم الكتابة والخط، ثم علم الحكمة وما تضمنته من الأدب والأخلاق والروية، وحُسن النظر في الأمور، والتعامل معها بما يقتضي تحقيق المصالح وإبطال المفاسد. ثم علم الفقه والتعمق في الكتاب والسنة، بعد أن تعلم آلتها وما يتحقق بها من الخير.

وكذلك جعل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام رسولاً لبني إسرائيل ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مبيناً سبحانه وتعالى أن عيسى مُؤَيَّدٌ بالأدلة والبراهين على أنه رسول من الله تعالى، وابتدأ عيسى عليه الصلاة والسلام خطابه لقومه بالدليل والبرهان ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٤) وذكر ابن كثير الكتابة (٣٧٢/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٣/١)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٤١/١)

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فابتدأ كلامه بما يشد الانتباه ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ وفي ذلك ما يثير عامل الشوق والتشوق لمعرفة الآية والدليل. ثم نسب هذه الآية أو ما جاء به من الآيات لله رب العالمين، قبل أن يذكرها لهم. مما يفيد أهمية أن تُنْسَب النعمة إلى لله تعالى، فهو المعطي والمتفضل بها على عبده. وبهذا نفى عن نفسه ما قد يظنون من أوهام بأنها مما يمكن أن يتعلمه الإنسان بحواسه، وذلك لما شاع عندهم من السحر. لِيُجَلِّي لهم حقيقة مصدر ما جاء به من البرهان. فيكون أدعى للتأمل والقبول. وفي هذا ما يفيد أن منهج الله تعالى قائمٌ على الدليل والبرهان.

فالدليل الأول هو ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فقد مكَّنه الله تعالى من أن يأخذ طيناً فيجعله على شكل طير، ثم ينفخ فيه؛ فيطير بإذن الله تعالى. ومن الفوائد أنه نسب هذا التحول من طين إلى طائر يطير إلى مشيئة الله تعالى، ولم يتباهى بذلك. بل أظهر لهم أن هذه القدرة ليست منه، بل هي من الله تعالى، مما يفيد أهمية أن ينسب المسلم ما يحققه من إنجاز في عمل، ونجاح، وتفوق، وابتكار، وكتابة وبيان، أن ينسبه إلى توفيق الله تعالى وهدايته. ومن الفوائد أنه نسب ما يُكَوِّنُه ويصوره بيديه من الطين لنفسه، بينما العمل المعجز، الذي هو الحياة، فبإذن الله تعالى ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لِيُفَرِّق بين الأمرين، بين ما يفعله الإنسان، وما يفعله خالق الإنسان.

ثم يذكر آيات أُخريات ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيشفي الله تعالى على يديه ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي ولد أعمى لا يُبصر ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ وهو المرض المعروف. وكذلك ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكل هذا عَلَّقَهُ بتوفيق الله تعالى ومشيئته، حيث قال في تمام ذلك ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فكرر مشيئة الله مرة أخرى، نفياً عن نفسه القدرة الذاتية، وتأكيداً على أنه بمشيئة الله تعالى وقدرته. فكانت آيات باهرات.

ثم بين لهم قدرته عليه الصلاة والسلام على بيان خصوصيات كل واحد منهم ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ فيخبرهم بما أكلوا، وبما أبقوه ورفعوه وخبؤه. وهو الأمر الذي لا يعرفه أحدٌ عن أحد إلا بمعاينته مباشرة. وقد قال كثير من العلماء: بعث الله تعالى كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر، وتعظيم السحرة. فبعثه الله تعالى بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سَحَّار. وأما عيسى عليه السلام فَبُعِثَ في زمن الأطباء، وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي أبدع الكون وشرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره. وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم، بُعِثَ في زمان الفصحاء والبلغاء، وحياكة الشعراء للشعر، فأتاهم بكتاب من الله عَزَّ وجل. فلوا اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلة أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ذلك أن كلام الله تعالى لا يشبه كلام الخلق أبداً.(١)

ثم بين لهم عيسى عليه الصلاة والسلام النتيجة التي يجب أن يذهبوا إليها ويعتمدوها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن في تلك الأدلة التي رأيتموها آيات باهرات بأني مُحِقٌّ في قولي لكم: أني رسول من ربكم إليكم إن كنتم مصدقين حجج الله تعالى وآياته، ومقرين بتوحيده(٢)

فعيسى عليه السلام بدأ كلامه معهم بما يشد الانتباه ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ونسب هذه الآية أو ما جاء به من الآيات لله رب العالمين قبل أن يذكرها لهم. ثم ذكر لهم الآيات، مُطَبِّقاً ومستعرضاً لهم بها. ثم بعد ذلك خلص إلى النتيجة التي يجب أن يصلوا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٣/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٠/٥)

إليها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ويفيد هذا أهمية التدرج البياني للعرض العلمي والمعرفي للقضية. ويُعطي السياق الكريم أنموذجاً عملياً في ذلك.

ثم بين لهم عليه السلام أنه مقرّ لهم بما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ مما يفيد أنه ليس هناك اختلاف بين ما في التوراة وبين ما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام في الإنجيل، إلا ما نُسخ من التوراة بالإنجيل ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد ذكر الله تعالى ما حرمه عليهم في سورة الأنعام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ فأحل لهم عيسى عليه السلام بما جاء به من الله تعالى بعض ما كان محرماً من الإبل وأشياء من الشحوم(١) وفي التصديق من عيسى بالتوراة ما يدل على أن دين الله تعالى واحدٌ وإن اختلفت بعض شرائع الأحكام. قال الطبري رحمه الله تعالى: لأن عيسى صلوات الله عليه كان مؤمناً بالتوراة، مقراً بها، وأنها من عند الله تعالى، وكذلك الأنبياء، كلهم يصدقون بكل ما كان قبلهم من كُتُبِ الله ورُسُلِه، وإن اختلفت بعض شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك.(٢) كما قال تعالى في سورة المائدة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

وهنا يبين عيسى لبني إسرائيل الحجج التي جاء بها لهم، ويوضح لهم صدق نبوته ورسالته، ليقول لهم بعد ما سبق من الآيات ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيؤكد لهم أمرين: الأول: ما يخص نبوته ورسالته، أنه جاء بتلك الآيات الباهرات من الله تعالى فيما

(١) وقد توسع علماء التفسير في بيان ذلك. وللمزيد يُنْظَر: جامع البيان للطبري، وكذلك الجامع لأحكام القرآن للقرطبي عند تفسير هذه الآية.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٣١)

سبق بيانه. والثاني: ما يكون من طرفهم، فيما يخصكم بأن تتقوا الله تعالى، وتخافونه وتطيعون فيما جئتكم به. ويلاحظ أن السياق القرآني الكريم أفرد ما جاء به من الآيات المتعددة ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: إنما وحَّدَ وهي آيات، لأنها جنس واحد في الدلالة على رسالته[١] أي أن مجموع وأنواع ما جاء به هو آية وحجة من ربكم.

ومن الفوائد كذلك: أنه عليه الصلاة والسلام نسب لله تعالى ما جاء به، وأنه ليس من عنده، ولا من قدرته الذاتية، وأنه عاجز عن ذلك لولا أن الله تعالى أعطاه تلك الحجج والبراهين. حتى تعلموا بها صدق النبوة والرسالة. ومن الفوائد أن قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ جاء مكرراً بعد أن ذُكِرت في الآية السابقة، للتأكيد وليبنبي عليه[٢] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ التي هي موعظة لهم، تحمل الأمر بالطاعة اتقاء غضب الله تعالى وعذابه، ورجاء رحمته وعفوه وثوابه. والأمر بالتقوى من أعظم وأجَلّ المواعظ تأثيراً، لما تحمله من المعاني والدلالات. ولأن من اتقى الله تعالى فاز فوزاً عظيما، وذلك لكثرة ما أعده الله تعالى للمتقين.

ثم ينتهي خطاب الوعظ من عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فيقرر لهم توحيد الربوبية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ وتقرير هذا يوجب عليكم توحيد الألوهية ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فيقررهم بمعادلة منطقية: إذا كنا نؤمن بأن الله تعالى هو ربنا، فهذا يُوجب عبادته بما أمر. ثم يقرر لهم الذي أمر به الله تعالى ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فهذا الذي جئتكم به هو الطريق الموصل إلى رضى الله

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٦٢)

(٢) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٦) الْمُقتَبَس: كرره تأكيدا، وليبني عليه.

تعالى، وهو مُتَّصف بالاستقامة التي لا اعوجاج فيها ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ لا ميل فيه عن الحق، ولا زيغ عن الهدى.

وفي هذا التسلسل البياني القرآني، ما يفيد جمال تنظيم العرض، والحجة، والوصول بالمخاطب إلى الحقيقة وفق تدرج بياني، من خلال الحجج والبراهين وتقرير النتيجة وتحديد المطلوب بالبيان والمواعظ المؤثرة، التي تخاطب العقول والأفئدة بأحسن ما يكون. فهي تعطي الداعية المنهجية العلمية المؤثرة في مخاطبة المدعوين.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان موقف بني اسرائيل من عيسى عليه الصلاة والسلام. مُبْتَدِئاً ذلك بعلم عيسى عليه السلام، إذ أنه لما عَلِمَ وعَرَف، ووجد منهم الكفر، وهو معنى ﴿ **أَحَسَّ** ﴾ عمد إلى استيضاح المناصرين له إلى سبيل الله تعالى ﴿ **فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ ومن فوائد دلالة ﴿ **أَحَسَّ** ﴾ أنها تحمل معناً دقيقاً.

ذلك أن ﴿ أَحَسَّ ﴾ كما قال الأصفهاني: تنبيه أنه قد ظهر منهم الكفر ظهوراً، بان للحس فضلاً عن الفهم(١) والإحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة(٢) والحاسة: القوة التي بها تُدرك الأعراض الحسية. والحواس، هي: المشاعر الخمس(٣) مما يفيد دقة القرآن البياني في وصف الحالة والواقع، بأدق الكلمات التي تحمل عين المقصود، وأن موقع اللفظة من الوصف، هو موقع المعنى بكامل دقته. فسبحان من أبهر بكلامه العقول. وأعجز أن يأتي بمثله الإنس والجان. وهذا يدل ويفيد أن عيسى عليه السلام أحس بكفرهم بحواسه، فيما شاهد من أفعالهم، وسمع من منطقهم. فلا يكون مبني على الظنون والتخمين. لأن الحواس هي آلات التعلم، والعلم يكون بما يرى ويسمع ويعقل ويلمس ويشم ويذوق. وبالمنقول عن الله تعالى.

ومن فوائد ذلك في مجال اتخاذ القرار، أن عيسى عليه الصلاة والسلام اتخذ القرار بعد أن تيقن يقيناً تاماً من أنهم لم يؤمنوا به. فأراد معرفة أعوانه المؤمنين، وفصلهم عن الكافرين فصلاً ظاهراً، ليكونوا مناصرين له على المكذبين بحجة الله تعالى. مما يبين أهمية اتخاذ القرار بعد بيان الأمر وإيضاحه إيضاحاً تاماً، لا مجال للشك والريبة فيه.

ومن الفوائد الدقيقة من قوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أنه لم يقل من معي؟ أو من يناصرني؟ بل ربط نصرتهم له بنصرة الله تعالى ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لتقرير عبودية النصرة لله تعالى، وتخليصها من أي شائبة يمكن أن تكون. مما يفيد أهمية الإخلاص، وأهمية التذكير بالإخلاص لله تعالى، حتى عندما يجتمع الناس على رجل واحد ليسوسهم في أمر من الأمور. فإنه يستوجب أن يكون العمل كله لله تعالى، وأن يرتبط الأداء والاستجابة لله تعالى. وعندما يتحقق هذا التَّوجُّه، تتوحد القلوب، ثم تتوحد الإرادة، لأن الموجب لذلك قاسم مشترك، تدور حوله المصالح والأهداف. ثم يتحقق الإنجاز والنصر.

---

(١) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١١٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١/٣٤٤)

(٣)الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١١٦)

وبعد أن سأل عيسى عليه الصلاة والسلام من يتبعه لنصرة دين الله تعالى، أجابه الحواريون ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فإن من فضل الله تعالى على عيسى عليه الصلاة والسلام أن جعل له أنصاراً، ومن فضل الله تعالى على الحواريين أن هداهم، وجعلهم أنصاراً لنبيه ولدينه. والحواريون هم الخواص الأصفياء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحواريون: أصفياء عيسى(١) فتضمنت إجابة الحواريين ثلاثة قضايا، الأولى ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ فكانت الإجابة مستوفية لسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم كانت القضية الثانية في إجابتهم، أنها كانت إعلان الإيمان بالله تعالى ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فالنصرة مبنية على الإيمان بالله تعالى، وليست لأي سبب آخر. فنفوا كل سبب يتنافى مع الإيمان، أو يمكن أن يتوهم متوهم أو يظنه ظان. وهذا من جميل الإجابة المستوفية لِمَا يُزيل كل لبس ووهم في التأويل. ثم تضمنت القضية الثالثة: استشهادهم بعيسى عليه السلام على إسلامهم ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فاشهد لنا عند الله تعالى بأنا مستسلمون لدين الله تعالى، فنسير معك وفق ما أمر الله تعالى به.

مما يفيد أن الإسلام هو دين الله تعالى. وإن اختلفت الشرائع في بعض الأحكام، ولكنها تلتقي في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وبعض العبادات مع الاختلاف في الأداء. ثم جاء تفصيل إيمانهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ فتضمن إيمانهم الشمولي بما أنزل الله تعالى من كتاب، واتباعهم لعيسى عليه الصلاة والسلام، ثم الدعاء وإعلان الافتقار إلى الله تعالى، بأن يجعلهم مع الشاهدين له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم. وقيل مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم(٢) وعلى الإجمال يكون المعنى: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك

(١) وقيل غير ذلك، وقد تناولتها بعض كتب التفسير، وجمعها ابن الجوزي، زاد المسير (١/٣٣٥-٣٣٦)

(٢) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٤) والشوكاني، فتح القدير (١/٣٤٤)

بالتوحيد، وصدقوا رُسُلَك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم.[١] وفي هذا ما يفيد ويدل على أن العمل يفتقر من العبد إلى دعاء وسؤال الله تعالى أن يقبله، فبالرغم من إعلانهم النصرة لدين الله تعالى ولرسوله، وإيمانهم بالله تعالى وبما أنزل، وطاعتهم لرسول الله، عيسى عليه السلام. فبالرغم من ذلك إلا أنهم يسألون الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين.

ثم يبين الله تعالى مكر الماكرين بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ قال ابن كثير عن ملأ بني إسرائيل في مكرهم: هَمُّوا بالفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تواطؤا وتمالؤا عليه، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً: بأن هذا رجل يُضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويُفسد الرعايا. فاستثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنَكِّل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم ظفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعه إلى السماء،[٢] وألقى الله تعالى شبهه على رجل منهم، فأخذوه وأهانوه وصلبوه. وكان هذا من مكر الله تعالى بهم. فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون.

ومن الفوائد أن المكر هو: صرف الغير عَمَّا يقصده بحيلة. وذلك ضربان: مَكْرٌ محمود، أن يتحرى بذلك فعل جميل. والمكر المذموم هو أن يتحرى به فعل قبيح[٣] فمكر الله تعالى هو المكر المحمود، لأن فيه فعل الجميل ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ ومكر بني إسرائيل بعيسى عليه الصلاة والسلام يمثل المكر المذموم؛ لأنهم أرادوا بوشايتهم قتل رسول الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. وهذا يبين خطورة المكر المذموم، وعاقبته الوخيمة. وأن الله تعالى له مكر محمود سبحانه وتعالى، حيث وصف الله تعالى نفسه ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ مما يوجب على المسلم مخافة مكر الله تعالى. وإذا استشعر المسلم هذا فإنه يربي فيه الخوف من اقتراف المكر

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٤٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٤)

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٤٧١)

السيء، والبعد عن أساليب الخديعة في جميع مجالات الحياة، لأن الله تعالى بصير سميع، لا يخفى عليه نية عبد من عباده، فضلاً عن سلوكه وتصرفاته. ومن وجه آخر يربي هذا في المسلم الطمأنينة، من أن الماكر قد يمكر الله تعالى به فيما مكر، فيزيده ذلك توكلاً على الله تعالى، فيدعوه ويلتجئ إليه، ليحفظه من الماكرين بالسوء.

ثم يبين الله تعالى رَفْعُهُ لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ وهذه آية من آيات الله تعالى، إذ كيف مكر سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم عليهما السلام، بأن أنقذه منهم. وأمَّا وفاته فقد أُخْتُلِف في معناها، والذي رجحه إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن معنى ذلك: أني قابضُك من الأرض ورافِعُك إلي. لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال (ينزل عيسى ابن مريم فيقتُل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة. ذكرها، واختلف الرواة في مبلغها، ثم يموت فيُصلِّي عليه المسلمون ويدفنونه)[١] ويفيد هذا لطف الله تعالى ونصرته وقدرته النافذة بما شاء، على الوجه الذي يشاء سبحانه وتعالى، القدير العزيز العليم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى مزيداً من امتنانه وحفظه لرسوله عيسى عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي برفعي إياك إلى السماء[٢] وتعني أيضاً: منظفك ومخلصك ممن كفر بك، ومِن جَحْدِهم لِمَا جئتهم به من الحق[٣] ثم بين الله تعالى حُكْمَهُ ومشيئته في الكافرين ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي: جاعل الطائفة التي آمنت به منصورة على من انحرف عن دينه[٤] وعن قتادة رحمه الله تعالى: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته، وسُنَّتِه، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥١/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٤/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٣/٥)

(٤) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٤٨/١)

القيامة. وقيل: جاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة. فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مُستذلُّون[١] ولا يمنع أن تجتمع تلك الدلالتين. ويلزم الذين اتبعوا عيسى عليه الصلاة والسلام أن يتبعوا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مكتوب عندهم في الإنجيل. لأن أهل الإسلام يُثبتون إيمانهم بجميع من سبق من المرسلين.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيده الله تعالى عليهم، لأنه أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً، عليهم لعائن الله عَزَّ وجل. فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم، فكان من آمن به، ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق. فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ صدَّقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل وسيد ولد ادم على الإطلاق. والذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي[٢] أي: جاعل الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خُلَّص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه ما بلغ من جعله إلهاً. ومنهم المسلمون .... وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم[٣] وكل من آمن بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، فقد آمن بجميع المرسلين، ومنهم عيسى عليهم الصلاة والسلام جميعاً. لأن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان.

ثم بين تبارك وتعالى ما يُطَمْئِن المؤمنين، ويحذر الكافرين والمختلفين في عيسى عليه السلام من المآل والعاقبة ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فإن مرجعكم إلى ربكم تبارك وتعالى، حيث هناك يكون العدل في التقاضي فيما اخْتَلَفْتُم فيه. وفي قوله تعالى ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ ما يفيد الترهيب للمكذبين، والطمأنينة للمؤمنين بأن الحكم سيكون عدلاً.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٥٤-٤٥٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٥)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (١/٣٤٥)

ومن الفوائد أن في هذا البيان القرآني الكريم إثبات البعث، والحساب، والجزاء، لأن الْحُكْمِ بينهم يقتضي المجازاة. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فالذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته، وكذبوا بما جاءهم به من الحق، وقالوا فيه الباطل، وأضافوه إلى غير الذي ينبغي أن يضيفوه إليه، فيعذبهم عذاباً شديداً. أما في الدنيا فبالقتل والسبي والذلة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً[١] ولا أحد يمنعهم من عذاب الله تعالى فينصرهم ويدفع عنهم عذابه الأليم. مما يفيد أن من أراد الله تعالى به العذاب لقاء كفره، فلا شيء من الأسباب يمكن أن يتوقى ويتّمَنّع به عن مراد الله تعالى. فلا تغني عنهم قوتهم التي يملكونها ولا أنصارهم وأتباعهم. وبالمقابل أن من أراد الله تعالى نصرتهم، فلا يمنع عنهم النصر شيء، فلا يمتنع انتصارهم بسبب ضعف قوتهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس. فالرعب جيش لله تعالى، والمكر قوة عظيمة من الله تعالى إذا أراد ذلك، كما أن من جيوشه سبحانه وتعالى قوة البحر، وقوة كل مخلوق، من ريح وزلازل ودواب وهوام، فكلها مُلْكٌ لله تعالى وجندٌ من أجناده. ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالذين آمنوا بعيسى عليه السلام وعملوا الصالحات سوف يستوفون ثوابهم غير منقوص. وأما الظالمون فسيجدون عقابهم، ببغض الله تعالى لهم، وما يترتب على هذا البغض الإلهي من الجزاء والعقاب، حيث خُتِمَت هذه الآية الكريمة ببيان بغض الله تعالى للظالمين، بأسلوب نفي حب الله تعالى عنهم. وأي خسارة وفداحة تُصيب مَنْ منع اللهُ تعالى حُبَّهُ عنه. فيتلقاه ببغضه وسخطه عَزَّ في علاه.

ومن الفوائد كذلك ما ذكره الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى بقوله: وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع أهل الأديان السابقة، ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين، وَنَسَخَت رسالتُه الرسالات كلها، ونسخ دينُهُ جميع الأديان صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين.[٢] وبهذا فإن عاقبة من خالف وعاند وتكابر على دين الله تعالى، فإن مصيره إلى

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/ ٤٥٦ – ٤٥٧)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٢٤٨)

الهزيمة والذلة. وأن من تمسك بهذا الدين فإنه منصور بإذن الله تعالى، ومُستعلي على كل من كفر. وسيكون النصر لدين الله تعالى إلى يوم القيامة. كما هو نص الآية الكريمة. وكذلك يفيد هذا: أن الناصر هو الله القوي العزيز، وأن النصر من عند الله تعالى، مما يوجب التوكل والاعتماد عليه سبحانه وتعالى، مع الأخذ بالأسباب الشرعية التي أمر بها عَزَّ وجل.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فهذه الأنباء التي أنبأ الله تعالى بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن عيسى وأمه مريم، وأمها حَنَّة، وزكريا وابنه يحي، وما قص من أمر الحواريين، واليهود من بني إسرائيل. نقرؤها عليك يا محمد على لسان جبريل، فإنها من العبر والحجج والبراهين على من حَاجَّك من نصارى نجران وكذبوك، وكذبوا بما جئتهم به من الحق الذي هو ﴿ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أي القرآن، ذو الحكمة الفاصلة بين الحق والباطل، وبينك وبين ناسِبِي المسيح إلى غير نَسَبِه.(١) وفي هذا من الفوائد: أن القرآن الكريم مُشْتَمِلٌ على الحجج والبراهين والعبر الدالة على أن هذا الكلام كلام الله تعالى، وأن محمداً عَبْدُ الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وذلك بما أُنْزِل عليه من القرآن الحكيم.

كما يفيد قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أن القرآن الكريم قد كَمُلَ في حكمته، وأنه متضمنٌ للحكمة الفاصلة بين الحق والباطل، لِمَا فيه من البراهين والحجج، وأن أخباره صدقٌ، ولا يأتيه الباطل أبداً. وبهذه الخصائص القرآنية التي لها من الدلالات والفوائد ما يعجز عن حصرها العقلاء، وأن يصفها البلغاء، تظهر حجة الله تعالى الباقية. فمن ذلك أن من ابتغى الحكمة فليقرأ القرآن العظيم، ومن أراد الإيمان فليقرأ القرآن، ومن أراد القصص الحق فليقرأ القرآن، ومن أراد الحجج والبراهين فليقرأ القرآن، ومن أراد أن يتعلم منهج الاستدلال فليقرأ القرآن، ومن أراد أن يعرف منهج التعليم فليقرأ القرآن الكريم، ومن أراد علم البلاغة والبيان فليقرأ القرآن العظيم، ومن أراد علم الفصاحة وحُسن الكلام فليقرأ القرآن، ومن أراد علاج نفسه فليقرأ القرآن، ومن ابتغى الهدى فعليه بالقرآن، ومن أراد أن يتغنى فليتغنى بالقرآن، وغير ذلك من الخير الذي لا يُحصيه إلا الله عَزَّ وجل.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٨/٥)

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

تبين هذه الآيات الكريمات قدرة الله تعالى في الإيجاد والخلق على غير ما اعتاد المخلوق من نظام الله تعالى في التوالد والتناسل. فبين الحكيم القدير سبحانه وتعالى أنه خلق عيسى بمثل ما خلق أبيهم آدم ﴿ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم، وإنما من تراب، فإنه قد خلق عيسى عليه السلام من أم، بلا أب.

ومن فوائد ذلك تقرير خلق عيسى بما هو أعجز وأقوى، وهو خلق آدم بلا أبوين. ويفيد هذا أن من وسائل الإقناع والإثبات تقرير المسائل والْحُجَج بما هو أقوى منها، ليحصل بذلك التقرير والاستيعاب والفهم لما هو أقل أو مماثل له، حتى يرجع العقل للحقائق. ومن الفوائد كذلك ضرب المثل لتقريب المعنى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أراد الرب أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر. كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى[١] بما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وأنه هو لا غيره صاحب السلطان، والقاهر فوق عباده، وأنه يدبر الخلق والكون بما يشاء.

ثم أكد سبحانه وتعالى بأن هذا هو الحق الفصل في عيسى. قال الإمام الطبري رحمه الله: يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: الذي أنبأناك به من خبر عيسى، وأن مثله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٦/١)

قال له ﴿كُن﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ هو الخير الذي من عند ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يعني فلا تكن من الشاكّين في أن ذلك كذلك.(١) ويكون النهي هنا لزيادة التثبيت، لأنه لا يكون منه شك في ذلك صلى الله عليه وسلم(٢) وبالتالي دفع الله تعالى وقطع كل شك بسبب الأقاويل التي يتداولها من لم يتقرر في ذهنه القدرة الإلهية. مما يفيد في المجال الدعوي والتعليمي وفي جميع مجالات الحياة أهمية دفع الشك، وإزالته. لأنه يحول دون استيعاب ما بعده مما هو مترتب عليه. وهذا يُفيد في الجانب الاعتقادي أهمية اليقين بكل ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم. ومدافعة الشك باليقين. وهذا كذلك يفيد في الجانب التعليمي أهمية إزالة الشك والريب والجهل المركب، ليحل محله العلم القيني.

ثم تأتي الآية الكريمة التي تبين منهجية قرار التعامل مع وفد نجران من النصارى، بعد أن تبين لهم الحق في عيسى عليه الصلاة والسلام، وتَمَنَّعوا بباطلهم عن تأليه عيسى عليه السلام. مما يفيد أن منهج التعامل الرباني هو منهج إحقاق الحق، لا منهج التعسف بالظلم مع غير المسلمين، فأول ما تقرر هو بيان حقيقة عيسى عليه السلام بالحجة، من أن خلقه كمثل خلق أدم عليه الصلاة والسلام، ثم تقرير المباهلة لمن لم يقبل، وتَمَنَّع بباطله على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ففي الآية الكريمة ما يفيد أن العلم حجة فوق كل حجة ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فالعلم الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم داحض لمحاجتهم، وأن منهج الإسلام منهج علمي، قائم على العلم والتعليم والبيان، بإظهار الحق على الباطل، وبالتالي فإنه يمنع العبادة والتعامل بالجهل، على أي وجه كان. وفي ذلك إثبات إزالة جهل الجاهلين، حتى تقوم عليهم

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٤/٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٧/١)

الحجة. وفيه كذلك تقرير المباهلة والتي هي: اجتماع المتحججين وأبناء ونساء الطرفين، ثم ﴿ نَبْتَهِلْ ﴾ أي نتضرع في الدعاء بالهلاك على الكاذب. والبهلة بالفتح والضمة: اللعنة، وبهله الله: لعنه وأبعده من رحمته[١] وفي هذا ما يدل على صدق هذا الدين وهذه النبوة المحمدية، لأنه لا يدعو لمثل هذا إلا الواثق من حُجْتِه. وقد أفادت كتب التفسير أن وفد نجران لم يقبل بهذه المباهلة واكتفوا بدفع الجزية. مما يدل على معرفتهم بصدق هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، واستبان لهم خطأ اعتقادهم.

ومن الفوائد اللغوية في التسمية، أنه تم ذكر الأبناء ولم يتم ذكر البنات، وعلق على ذلك الإمام الشوكاني بقوله: إما لدخولهن في النساء أو لكون الذين يحضرون مواقف الخصام دونهم[٢] ولعل بسبب دخولهن في النساء لم يتم ذكرهن. وهذا من دقة ألفاظ القرآن الكريم ودلالاته الإعجازية والبلاغية. خاصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان معه علي وفاطمة والحسن والحسين[٣] وفي الآية ما يدل على خطورة الكذب، ولا سيما الكذب على الله تعالى، حيثُ بُنِيَت المباهلة باللعنة على الكاذبين.

ثم بين الله تعالى خصيصة ما تضمنه القرآن الكريم من القصص، والتي منها قصة عيسى وقومه وأهل ملته ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ إن هذا الذي قلنا في عيسى هو الحق. فقصص القرآن الكريم حقٌ لا ريب ولا شك فيه، لأنه مطابق وموافق لما حدث فعلاً، وهذا تزكية من الله تعالى لقصص القرآن الكريم. ثم نفى تبارك وتعالى ألوهية الاستحقاق لغيره، وأنها فقط لذاته وحده لا شريك له ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فليس هناك إله إلا الله ربكم تبارك وتعالى أيها الناس. وفي هذا تقرير توحيد الله تعالى، بنفي كل مَألُوه يُعبد من دون الله عَزَّ في علاه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وتقرير وإثبات الألوهية لله تعالى، وانفراده بها ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فليس هناك إله

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٣٨٠)

(٢)الشوكاني، فتح القدير (١/٣٤٧)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٧١)

يستحق أن يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، فلا نبي مُرسَل، ولا مَلَك مقرب، ولا صالح من البشر، ولا غيرهم يستحق العبودية على أي وجه كان إلا الله سبحانه وتعالى الواحد القهار. مما يدل على منزلة وأهمية توحيد الربوبية والعبودية، وأهمية تحقيقه في عبادة العباد.

ومن الفوائد اللغوية كذلك ما ذكره الزجاج من أن ﴿ مِنْ ﴾ هاهنا توكيد، ودليل على نفي جميع ما ادَّعى المشركون من الآلهة[1] وذكر الإمام القرطبي عن ﴿ مِنْ ﴾ أنها زائدة للتوكيد[2] مما يبين أن كل حرف في القرآن الكريم مقصود في وجوده، وهذا دليل بلاغته وإعجازه البياني.

ثم يَعْقُبُ هذا التقرير بيانٌ لصفة ربنا تبارك وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والعزيز هو الذي يغلب ولا يُغلب، ويقهر ولا يُقهر. فهو العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، والحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره وهن، ولا يلحقه خلل. وتفيد هذه الصفات الربانية، أنه لا عزيز البتة إلا الله تعالى، ولا حكيم قد تكاملت الحكمة في أمره ونهيه وبيانه وتشريعه وحكمه بلا خلل ولا وهن إلا الله تعالى. وأن حكمة غيره من خلقه يشوبها الوهن والضعف، إلا بتوفيقه تبارك وتعالى، لأنه هو الذي يمنح ويعطي الحكمة، كما قال جَلَّ شأنه في سورة البقرة ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ ثم بين تبارك وتعالى ما يمكن أن يحصل منهم بعد أن عرفوا الحقيقة، وقامة عليهم الحجة، وهو التولي عن المباهلة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ والتولي هو الإعراض وترك الاستجابة والائتمار للأمر، وأما الفساد فهو العدل عن الحق إلى الباطل. فتوليهم عن الحق هو فساد ظاهر. فإن أعرضوا ولم يستجيبوا للحق الذي جئتهم به، فإن الله تعالى عليم بكفرهم، وقد سمى كفرهم فساداً، لأنه خروج عن الحق.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٩/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٨/٤)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

في هذه الآيات الكريمة يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب أهل الكتاب، فيدعوهم إلى كلمة مستوية من العدل ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي ذلك من الفوائد: التلطف في مخاطبتهم، بتسميتهم: أهل الكتاب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مما يفيد أهمية العدل مع الْمُخَاطب للهدى، والتَّلَطُّف معه في أسلوب الخطاب والكلام، وأن يكون لطيفاً حسناً، فكيف لو كان المخاطب من الملة، فإنه يكون في حقه أوجب وأحق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن القلوب تلين لمن يلين لها في القول. ثم لم يجردهم من الانتماء لكتاب الله تعالى، بالرغم من مخالفتهم للكتاب. ولكن كان ذلك باعتبار أنه نزل فيهم ومُخَاطَبُون به، وكذلك على اعتبار أنهم يرون في أنفسهم أنهم منتمون إليه، فما أعظم منهج الأسلوب الدعوي والخطابي في كتاب الله تعالى، وما أعظم أخلاق القرآن الكريم، وما أحوج الناس عامة والدعاة وأهل العلم لهذه المنهجية العميقة العظيمة، التي تراعي الطبيعة البشرية في إقبالها وقبولها، وإدبارها وعنادها. إذ لم يسلك معهم منهج القرآن الكريم أسلوب التنفير بأوجهه المتعددة، بل عَمِد إلى أحسنها وأفضلها.

ومن الفوائد: أن أسلوب النداء ﴿يَٰٓأَهْلَ﴾ نداء للبعيد حقيقة أو حكماً. وقد يُنادى به القريب توكيداً. ففيه شد الانتباه للمنادى، وحثهم على الاستماع ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أقبلوا وهَلُمُّوا إلى كلمة العدل والإنصاف بيننا وبينكم. وأشار الإمام الطبري رحمه الله تعالى إلى: إنما هو: تفاعلوا من العلو. فكأن القائل لصاحبه: تعالى إليَّ. قائلٌ: تفاعل من العلو.

كما يُقال تدان منى. من الدنو، وتَقَارَب مِنّي، من القرب.[١] فهو تعالوا من ترفعكم عن الحق إلى الحق، تعالوا من الاستعلاء إلى التواضع للحق. تعالوا من العناد إلى الطاعة. ثم هذا النداء هو من أجل الاتفاق والالتحام على قاسم مشترك، وهو ﴿ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنها كلمة العدل المستوية، التي لا اعوجاج فيها. فتكون بيننا وبينكم، لنستوي نحن وأنتم فيها، وهي ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فتضمنت الدعوة ثلاثة أصول من أصول دين الله عَزَّ وجل. الأول: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فلا نعبد إلا الله تعالى. والأمر الثاني: ﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ونتطهر من الشرك، فلا نشرك مع الله تعالى صنماً ولا وثناً ولا صليباً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نُفْرِدُ الله تعالى بالعبادة. وهي دعوة جميع الرُّسُل. وهي التي تُقرها التوراة والإنجيل. فلا تختلف فيها الكتب السماوية. والأمر الثالث: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فتضمنت كلمة السواء ألا يعبد بعضنا بعضا، ولا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله تعالى. فهي متضمنة لمعاني وحقيقة التوحيد، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ويفيد ذلك في التفاوض بأن يكون البدء بالنقاط والقواسم المشتركة، التي يتفق الطرفان غالباً عليها، والتي ليست مثار نزاع، أو أنها أقل تنازعاً، فإن التوافق عليها يمنح الانتقال لما بعدها.

ثم يذكر تبارك وتعالى معالجة الأمر حال أنهم تولوا، ولم يقبلوا بكلمة السواء ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ فإن أعرضوا ولم يقبلوا، وانصرفوا عن كلمة السواء، فتكون منهجية التعامل معهم هي بقوله تعالى ﴿ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي فاشهدوا علينا يا أهل الكتاب بأنَّا مما أعرضتم عنه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، فإنا مؤمنون به، ومستسلمون وخاضعون ومتذللون له تبارك وتعالى. وفي هذا الأسلوب من الفوائد، التأكيد للمخالف بالثبات على ما قرره

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٧٦)

الله تبارك وتعالى، وفيه الانتصار للحق، وفيه الإعلان بدين الله تعالى، وفيه استشهاد الْمُعْرِض على ما أعرض، لتكون حجة عليه يوم التغابن. كما أن في هذا الأسلوب استحثاثٌ للمعرض على معاودة التفكير فيما أعرض عنه.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى مخاطبة أهل الكتاب في أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ويستهل الخطاب بأسلوب المناداة التي فيها شد الانتباه للمُنَادَى، بأن أرعو سمعكم للمنادي. ثم أيضاً يناديهم باعتبار ما نزل عليهم من التوراة والإنجيل ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهم في باب المخالفة لطاعة الله تعالى، سواء مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو في أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ففي ذلك تنبيه وتذكير لهم بما يجب عليهم، فأنتم أهل كتاب من الله تعالى، مما يوجب عليكم اتباع ما فيه، فذلك الكتاب يستوجب معرفتكم للحق، ومعرفتكم بما هو من عند الله تعالى. فهذا الحال يتطلب منكم أن لا تُحَاجُّوا في إبراهيم وأنتم تعلمون أن التوراة والإنجيل أنزلت من بعده ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ وذلك بسبب أن كلاً من اليهود والنصارى يَدَّعي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان على دينهم. فكذبَهُم اللهُ تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده. فكيف يكون على مذهب من كان بعده. فهو أمر لا يمكن، مما يُثبت الكذب منهم.

وبالرغم من كذبهم على انتماء إبراهيم عليه الصلاة السلام لهما، إلا أن الله تعالى يخاطبهم ويعلمهم ويُحَاججهم بأفضل الأساليب، فيناديهم باعتبار ما نزل فيهم، وليس باعتبار كذبهم ومخالفتهم. بل ويكرر المناداة بهذا السياق ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ وقد تكرر هذا النداء في سورة آل عمران ست مرات، وفي غيرها من السور ست مرات كذلك. ليكون المجموع اثنى عشر مرة. وهذه منهجية أخلاقية رفيعة في علم الأخلاق، وفي طريقة التعامل. فإذا كان هذا التعامل من الله تعالى مع مَنْ خالفه من خلقه، فكيف لا يجب أن يكون كذلك بين المتخالفين من المخلوقين فيما بينهم. وكيف إذا كان الاختلاف في جزئية من الإسلام، التي لا يخرج بها العبد من الملَّة، وكيف في ميدان التعامل الاجتماعي، مع الجيران وحقول المهنة، ودائرة الأسرة، وفي ضمن القضايا العامة التي عادة ما يختلف الناس فيها.

ثم تنتهي الآية الكريم بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ استفهام استنكاري لهذا الصنيع الذي يدل على عدم التَّعَقُّل. فإن بديهيات العقول، تنفي أن يكون السابق تابع للاحق. فجمعت الآية الكريمة، اللطف في منطلق التوجيه، ثم إقامة الحجة، ثم إرجاعهم للقوة العقلية العاقلة، لتكون الحجة المنطقية بالغة الأثر، لمن أراد الحق. ويفيد هذا خساسة من يحاج فيما ليس له به علم، أو يحاج فيما لا يُعقل أن يكون.

ثم يتدرج معهم السياق القرآني الكريم إلى الربط بين محاجتهم فيما لا يعلمون من أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين محاجتهم فيما يعلمون من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ فها أنتم اليوم تحاجون فيما تعلمون من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما عندكم من العلم به في كتبكم ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ فلماذا تحاجون فيما لا تعلمون من شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو قبلكم.

لأنهم كانوا يعلمونه صلى الله عليه وسلم في كُتُبِهِم، أي: فيما يجدون من نعته فحاجُّوا فيه بالباطل، فأنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم. فقد جمعوا بين المحاجة الباطلة فيما يعلمون من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبين المحاجة الباطلة فيما لا يعلمون من أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم يردهم الله تعالى إلى علمه، مع بيان جهلهم فيما غاب عنهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ والله يعلم ما غاب عنكم فلم تشاهدوه ولم تروه ولم تأتيكم به رُسُلُه، من أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيره من الأمور، ومما تجادلون فيه، لأنه لا يغيب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض. وأنتم لا تعلمون من ذلك إلا ما عاينتم فشاهدتم، أو أدركتم علمه بالإخبار والسماع. وهذه منهجية قرآنية عظيمة في مقام المناقشة، لإحقاق الحق، والوصول بالمدعو والْمُخَاطَب إلى الحقيقة الناصعة، فالقرآن مدرسة موسوعية الفائدة، ومنها إحقاق الحق، ودفع الباطل بالأدلة والمحاجة والبراهين الساطعة. كما يفيد هذا المنهج الرباني في ميادين إقامة الحجة في الدين، ومجالات الحياة المختلفة.

ثم بعد إقامة الحجة عليهم، أوضح وبَيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى حقيقة أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ فلم يكن تابعاً لليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام، ولا للنصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام، لأنه كان قبلهم.

فبدأ البيان القرآني بنفي وإزالة ما يجب أن يزول من الجهل المركب ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ ثم بين وقرر لهم حقيقته، بأنه ﴿ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي متحنفاً عن الشرك، قاصداً إلى الإيمان. والحنيف: الْمُتَّبِع لأمر الله تعالى وطاعته، مستقيماً على محجة الهدى التي أُمِرَ بلزومها[١] وهناك مِنْ أهل العلم مَنْ فَصَّل، بأنه الذي يُوَحِّد ويحج ويضحي ويختتن، ويستقبل القبلة. وأما المسلم فهو: المتذلل لأمر الله تعالى، الْمُنْطَاعُ له[٢] فأثبت الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام الحنيفية، والاستسلام بالخضوع والتذلل لله تعالى، ونفى عنه الشرك. مما يفيد أهمية التوحيد والخضوع والانقياد لله تعالى، والتذلل له عَزَّ وجل، والابتعاد عن الشرك.

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٥/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٤)

ومن فوائد أسلوب البيان هو ورود حرف ﴿ وَلَٰكِن ﴾ الذي يفيد الاستدراك الذي يُثْبِت لما بعده حكماً مخالفاً لحكم ما قبله. فالذي قبله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ والذي بعده ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ لتأكيد وإثبات أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ثم أثبت ما هو عليه، بأنه كان حنيفاً مسلماً، ثم نفى عنه الشرك بلفظ ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ أي: أنه منذ أن كان، ومنذ أن خلقه الله تعالى لم يدخل في الشرك أصلاً ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا من البلاغة البيانية في إجلاء الحقيقة بأقل الألفاظ وبكثرة وغزارة الدلالات.

ثم يبين الله تعالى أَوْلَى الناسِ بنبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بعد نفي اليهودية والنصرانية عنه ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالآية الكريمة تتحدث عن الأَولَى بالانتماء إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وليس انتماء إبراهيم لغيره. وفي هذا دليل على مقام أبي الأنبياء إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي قرن الله تعالى صلاة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة على إبراهيم في تشهد الصلاة. فابتدأت الآية الكريمة بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ التي تُفيد: تأكيد صورة وحقيقة الانتماء، من أن اللاحق الْمُتَّبِع هو الذي يتبع السابق ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ ثم بينت بالتخصيص أولى الناس بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأولى الناس بإبراهيم ونصرته وولايته، هم الذين اتبعوا طريقه ومنهجه، فأخلصوا الدين لله تعالى، كما كان عليه إبراهيم من الإخلاص، فكانوا حنفاء غير مشركين بربهم. ثم خص الله تعالى النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً لذكره عليه الصلاة والسلام. ثم ذكر تعالى المؤمنين، بالرغم من دخولهم في الناس الذين اتبعوه. فاشتملت الآية الكريمة على ثلاثة من الذين هم أولى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ حين بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ محمد صلى

الله عليه وسلم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فاتبعوه. فشمل البيان الذين اتبعوه في زمانه وبعده عليه الصلاة والسلام، وخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً لشأنه، ثم ذُكِرَ المؤمنون بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لتفيد: الثناء بالتخصيص على الذين اتبعوا هذا النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام، فصدَّقوه وآمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى. وهذا يبين البلاغة الخطابية والبيانية العظيمة للقرآن الكريم، فما من حرف ولا كلمة إلا ولها دلالتها ومغزاها البياني العظيم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن ولايته ومعيته ونصرته هي للمؤمنين ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا يفيد ويبشر المؤمنين بأن الله تعالى معهم بقوته ونصره وهدايته وتوفيقه لهم، مما يفيد كذلك أنه سبحانه وتعالى مُؤَيدهم على من خالفهم، ولن يجعل لمن خالفهم نصرة ولا سبيلاً عليهم. كما قال تعالى في سورة محمد ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ والولي يعني: النصير والموفق. فمن لم يكن الله تعالى مولاه فلن ينتصر على من والاه الله تعالى، وهو مولاه.

ثم يخبر ويكشف الله تعالى عن بواطن طائفة من أهل الكتاب مما هم عليه تجاه المسلمين. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ تتمنى فرقة من أهل الكتاب لو تضلون أيها المسلمون عن دينكم، فتنصرفون عنه. ومن فوائد هذا النص بيان عدل الله تعالى في حقهم، أن قال عَزَّ وجل ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فليس جميع أهل الكتاب، بل جماعة منهم، لأن ﴿ مِّنْ ﴾ تُفيد التبعيض. فهؤلاء يتمنون ويتشهون حصول الضلالة للمؤمنين بمعصيتهم لله تعالى ومخالفة دينه عَزَّ وجل الذي هم عليه، والرجوع عنه.

ومن دقائق المعاني اللفظية أن دلالة ﴿ وَدَّت ﴾ أبلغ في وصف حالهم، لأن الود: محبة الشيء، وتمني كونه[١] وهذا إخبار من الله تعالى عن حسدهم للمؤمنين، وتمني الضلال لهم، بانحرافهم عن دينهم، غير أن هذا الوبال عائدٌ على أنفسهم، وهم لا يشعرون بأنه ممكور بهم، وأن إضلالهم عائد عليهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ وما المكر إلا واقع عليهم. فما الضلال الذي يتمنونه ويودونه للمسلمين إلا وهو واقع عليهم، بما يفيد سلامة المؤمنين مما يتمنون. مما يفيد كذلك أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، وأن المكر ينقلب على صاحبه، وهو لا يعلم إلا وقد حصل وانقلب عليه مكره وسوء عمله. مما يلزم الحذر من التعامل الماكر، فإن الله تعالى قد يجعل مكر الماكر على نفسه. ويفيد هذا في التطبيق العملي في حياة المسلم أن عليه أن يتحرى الصدق والحق في البيان والتعامل، وفي كافة المعاملات، والحذر والتحرُّز من صفة المكر في لتعامل.

وفي قوله تعالى ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ إفادة بانعدام شعورهم مما يحذرون، وانعدام شعورهم من أن فعلهم عائد عليهم بالشر والضرر، وأن التخطيط وإمعان النظر والترتيب قد يكون وبالاً على من لا يتق الله تعالى فيمكر بغيره، وفي ذلك بيان لأهمية معية الله تعالى وتسديده وتوفيقه، ولا يكون ذلك إلا بطاعته سبحانه وتعالى. إفادة بأن مكرهم في الإضلال يسير بهم إلى ضد ما يعملون. ومن فوائد ذلك أن الله يدافع عن المؤمنين.

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ
تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ

(١) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٥١٦)

أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثم يتكرر النداء لأهل الكتاب باعتبار ما نزل فيهم، لا باعتبار اتِّبَاعِهِم، ليكون هذا النداء حجة عليهم، ووعظاً لهم بالتي هي أحسن، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فخاطبهم تبارك وتعالى بأجمل الألقاب التي تُذَكِّرُهُم بواجبهم تجاه ما نزل فيهم من التوراة والإنجيل، وما يتبع ذلك من اتباع النبي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أهمية الأساليب الدعوية في مخاطبة المخالف، كما تم بيانه عند مناداتهم فيما سبق من هذه السورة.

ثم بعد هذا النداء الْمُستَهَل بياء النداء للانتباه، ولفت عقل وذهن المخاطب وما خُوطِب من أجله ولمضمون الخطاب، يستهل الخطاب التوجيهي بسؤال استنكاري ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ لماذا يحصل الكفر منكم، وهو الجحود بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنتم تجدونه في كُتُبِكُم. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وإنما هذا من الله عَزَّ وجل: توبيخ لأهل الكتابين على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وجحودهم نبوته، وهم يجدونه في كُتُبِهِم، مع شهادتهم أن ما في كتبهم حق، وأنه من عند الله تعالى[1] وتفيد أيضاً معنى العتاب، والتهديد والتخويف، وبمعرفة الله تعالى بهم، وبما هم عليه من إنكارهم للشهادة التي يعلمونها علم اليقين، بل أكدها جَلَّ جلاله بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ وأنتم تشهدون الحقيقة بما عندكم من العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم في كتبكم.

وهذا يفيد أن جحود نبوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب هو كُفر ظاهر بما عندهم من آيات الله تعالى، خاصة وأنهم أعلم من غيرهم بحقيقة نبوته صلى الله عليه وسلم. ومن الفوائد كذلك أن الله تعالى جعل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم آية، بل آيات، لما تضمنته كُتُبُهُم من الإخبار بنبوته صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. قال قتادة عن قوله تعالى ﴿لِمَ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٤٩١)

﴿تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً والإسلام ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أن بعث محمد في كتابكم، ثم تكفرون به[1] ومن الفوائد كذلك أن معرفة الآيات والعلم بها شهادة على المتلقي لها وإن أنكرها أو أخفاها ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ وبالتالي فإن دين الله تعالى شهادة على من عَلِمَه ولم يقم به ويأخذه.

ثم يتكرر النداء مرة أخرى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فقد تكرر أسلوب الخطاب العظيم من الله تعالى لهم، دون الاكتفاء بواو العطف، الذي يتحقق به دلالة السياق، فيتكرر النداء بياء المخاطبة، وكذلك بتكرير صفة الانتماء للكتاب ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مما يفيد: المزيد من شد الانتباه لأمر آخر في غاية الأهمية، وكذلك تكرير التذكير لهم بأنهم أهل كتاب من الله تعالى، فلا يليق بكم إلا الاتباع، فاشتمل الخطاب على إعلان إقامة الحجة عليهم من أنهم أهل علم من الله تعالى، فقد نزل فيكم كتاب الله تعالى المتضمن للحقائق. وكذلك مخاطبتهم بطيب العبارة، وهو منهج الله تعالى في تكليفه لأنبيائه عند مخاطبة الجاحدين والمكابرين، كما قال سبحانه وتعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام في مخاطبة فرعون في سورة طه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ وقال عن نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ مما يدل على أهمية حُسن الخطاب من الداعية للمدعو، ومن المعلم للمتعلم، ومن الناصح للمنصوح، وأن يناديه بأحسن ما يكون، وقد تضمن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل بأن وصفه بعظيم الروم. (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدُ الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم)[2] مما يبين أنه هدي وأخلاق إسلامية رفيعة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٣/١)

(٢) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية (٤٢٤)

ثم جاء التوجيه الكريم من الرحمن الرحيم بسؤال استنكاري ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا الأسلوب الاستنكاري، استحثاث للعقل نحو التأمل والتفكر، إذ كيف يحصل منكم وأنتم أهل الكتاب أن تخلطوا الحق بالباطل. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه[١] وفي هذا إشارة إلى خصلتين ذميمتين: إلباس الحق بثوب الباطل ﴿تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ والعلم بالحق وكتمانه ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ومن الفوائد التطبيقية: أن هاتين الصفتين مما اتصف بهما أهل الكتاب، وهي من أقبح رذائل الأخلاق. كما أنهما صفتان قد تحصل في بعض تعاملات الناس، فيما يحصل من الخداع والكتمان أثناء التعامل البشري، وما يترتب على ذلك من الفساد والإفساد. مما يلزم الحذر من ذلك في كافة المعاملات.

ثم يبين ويكشف الله تعالى ما احتالت به طائفة من أهل الكتاب ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وجاء البيان هنا عن كشف احتيال طائفة من أهل الكتاب، أي جماعة منهم، وليس جميعهم. وهذا يدل على عدل الإسلام ونزاهة أحكامه، إذ خص الفئة المعنية منهم فقط. كما يستفاد من هذا البيان: أن المخادعة الكيدية التي يمكن أن ينخدع بها البعض، إنما هي محاولة هادفة لتشتيت وتمزيق كيان المسلمين من داخلهم، بإظهار إيمانهم أول النهار، مع مشاركة المؤمنين صلاتهم، ليعتقدوا أنهم معهم ومنهم، ثم يكفرون في آخر اليوم، ليخدعوا غيرهم بإيهامهم أنهم قد اكتشفوا أن هذا الدين باطل وغير صحيح بما عرفوا عنه ومنه. فحالهم هو حال المنافقين.

مما يفيد أن تفتيت جماعة الأمة قد يكون بأساليب النفاق، والحيل الشيطانية، وأن زعزعة الأمة قد يكون بغير المواجهة، وإنما بإشاعة الشك ثم الفوضى، مما يؤكد الحذر من كل مسلك يخالف ويعادي الدين، وألا تُؤخذ الأمة من داخلها.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨١/١)

كما بينت الآية الكريمة هدفهم من هذا الصنيع ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ وفي دلالة لفظة ﴿لَعَلَّهُمۡ ﴾ ما يفيد الرجاء والطمع المحمول على احتمال تحقق الهدف، مع توقع عدم التحقق، ولكن هناك عزيمة ومحاولة بكل سبب يمكن أن يكون، لإرجاع المسلمين عن دينهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ وهم يستغلون خصيصة دينية لهم، بأنهم أهل كتاب، فيثق الناس فيهم وفي رجوعهم وتركهم لهذا الدين، بعلة زعمهم أنه قد اتضح لهم بأن هذا الدين ليس من عند الله تعالى.

ثم يأتي التواصي بينهم بكتمان ما عندهم من العلم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن لا يُظهروه إلا لمن هو على دينهم ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ ﴾ فلا تطمئنوا وتُظْهِرُوا سركم، وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظْهِرُوا ما بأيديكم للمسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم[1] وفي هذا ما يبين أن ما يُخفون هو حقيقة مُصَدِّقَةٌ لهذا الدين الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فيرد الله تعالى على هذا المكر بقوله عَزَّ وجل ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ فهو الذي يهدي قلوب المؤمنين لأتم وأكمل الإيمان. وفي هذا تقرير من الله تعالى أن من يهديه الله تعالى فلا مُضِلَّ له. مما يوجب الالتجاء إلى الله تعالى بطلب الهداية والتوفيق وحُسن التوكل عليه، الذي يغرس الشجاعة القلبية لمواجهة المُشككين والمرجفين.

ثم يبين الله تعالى ويكشف سبب تعليل التواصي فيما بينهم بكتمان ما عندهم، وحجبه عن غيرهم، وقَصْرِه عليهم ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ ﴾ فيقولون لا تُظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلمونه منكم، فيساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به. أو يحاجوكم به عند ربكم، فتقوم به عليكم الدلالة والحجة في الدنيا والآخرة[2]

(١) ابن كثر، تفسير القرآن العظيم (٣٨١/١)
(٢) المرجع السابق (٣٨١/١)

وفي تعليلهم هذا ما يبين جهلهم وانخداعهم بأنفسهم وعقولهم، حتى غاب عنهم أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، كما أنهم يحملون حسداً من عند أنفسهم من أن يكون الدين والنبوة في غيرهم. لأن الفضل بيد الله تعالى، يعطيه من يشاء من عباده ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وهذا يعلم ويفيد المؤمن في أوجه الحياة المختلفة أن فضل الله تعالى ليس مقصوراً على فئة أو جماعة أو جنس، بل هو عَزَّ وجل الذي يختار لفضله من يشاء، مما يُوجب عدم التعدي والحسد، ومناكفة من تفضل الله تعالى عليه بفضل من فضله. وأن في هذا الاعتقاد ما يحقق الطمأنينة للمؤمن، وينزع منه الحسد، والكبر، والمشاحنة للغير بما تفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده.

وفي ذلك معالجة نفسية للكثير من الأمراض النفسية والأعراض الفكرية، فإن رأى نعمة على أحدٍ قال لنفسه مُخاطباً لها ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن أصابته نعمة، انتصر على تفاخره وافتخاره بقوله ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن وسوست له نفسه بقدراته ومواهبه، وتعلق القلب بالأسباب، قال معالجاً لنفسه ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن جُعِلَت ولاية غيره عليه في مهنته أو في أمر من الأمور، ثم رآه ليس بأقدر منه، كبح هوى نفسه وعالجها بقوله لنفسه ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن رأى في غيره ممن هو دونه أكثر وأجزل حظاً وربحاً منه، قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن خسر في تجارة أو في أمر من الأمور أو حَصَّلَ أقل القليل، على نقيض غيره، قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن فاتته وجاهة ومكانة، وجاءت لغيره، عالج نفسه بقوله لها ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن أراد الوقاية من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، قال لهم فيما أصابه من خير ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وأن أصابه من الله تعالى خيراً، منع عن نفسه الحول والقوة بقوله ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وإن

رأى في غيره شيئاً من ذلك وعظه بقوله عزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْـلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَن يَشَآءُ ﴾ فيكون هذا الحكم الرباني علاجاً نفسياً وفكرياً عظيماً، وثمرة من ثمرات العقيدة الصحيحة، لأن في ذلك شكرٌ لله تعالى، واعتراف لمصدر النعمة أنها من عند الله تبارك وتعالى يتفضل بها على من يشاء من عباده.

ثم يبين الله تعالى شيئاً من صفاته العظيمة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فربكم واسع في قدرته وواسع في علمه وواسع في ملكه، وواسع في عطائه. ويوسع على عباده في دينهم، ويوسع عليهم في أرزاقهم بفضله، وفي كل ما يحتاجون إليه، فليس لأحد أن يُضيق ويُحَجِّر فضله سبحانه وتعالى، أو يتحكم به، فَيَقْصُرُهُ على فئة دون فئة، أو على جنس دون جنس، أو على فرد دون فرد. كما أنه مع سعة عطائه سبحانه وتعالى، فإنه عليم بما يعطي ولمن يعطي.

كما أوضح وبين تبارك وتعالى اختياره لمن يشاء بما يشاء من فضله وكرمه ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْـمَتِهِۦ مَن يَشَـآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْـلِ ٱلْعَظِيـمِ ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وأما رحمته في هذا الموضع: فالإسلام والقرآن مع النبوة.(١) لأنه بالإسلام والقرآن والنبوة يعرف الناس الحق من الباطل، ويتراحمون بينهم بأخلاق الإسلام وهديه، فيتواصون بالصبر والحق والخير والعطاء البدني والمالي، ويتعاونون على البر والتقوى، ويتناهون عن الإثم والعدوان، وفيها وبها ما ينقذ من عذاب الله تعالى وعقابه. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة. لاختصاصه بما يُعَلِّمُه اللهُ تعالى ويأمره به، وأن جميع ما كان من الله تعالى فهو رحمة من كل وجه ودلالة. حتى وإن كان المقصود بدلالتها اختصاص النبوة بمن يشاء سبحانه وتعالى من عباده، فهي رحمة. ومردودها رحمة على من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم.

كما أن في هذا ارتباط بليغ بين دلالة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْـمَتِهِۦ مَن يَشَـآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْـلِ ٱلْعَظِيـمِ ﴾ وبين موقف بني إسرائيل، من معاداتهم النبي صلى الله

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٠٧)

عليه وسلم، وحسدهم له، بسبب تحجيرهم على فضل الرسالة والنبوة من أن تكون فيهم دون غيرهم، كما هو ظاهر في مظاهر تعاملهم. وقد بينه سبحانه وتعالى عنهم، كما في سورة النساء ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالله تعالى واسع في عطائه ورزقه وفضله، يعطي من يشاء بقدر ما يشاء، ونوع ما يشاء، وهو العليم الخبير بما يصنع.

كما أن الله تبارك وتعالى ذو فضل عظيم، وقد وصف فضله بالعظيم ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ففضله سبحانه وتعالى عظيم في كثرته ونفعه وبقائه، كما أن فضله قد وسع كل شيء، ومن كل وجه، وفي كل مكان وزمان، ولا ينقص فضله بالعطاء، ولا يزيد بالإمساك، لأنه المالك المتصرف، ويتفضل بفضله على من شاء من خلقه. مما يُعلم المؤمن أن يتعامل مع ما تفضل الله تعالى به عليه من الإنعام وفق هذا البيان، فلا يطمع، ولا يمنع، بل يسارع في ذلك، لأن الله تعالى ذو فضل عظيم على من أطاعه.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى كشف وبيان أمانة أهل الكتاب في التعامل ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ فينقسم أهل الكتاب في الأمانة إلى قسمين: فمنهم الأمين القوي في

أمانته، حتى أنه لو اؤتمن بمال كثير، لأداه مستوفياً لأمانته ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ وأورد الله تعالى وصف قوة أمانتهم، بقوة الاستيفاء للأمانة حتى ولو كان المال مغرياً للنفس. فذُكر سبحانه وتعالى القنطار لأنه يعبر عن المال والوزن الكثير، وأما القسم الاخر من أهل الكتاب فعلى نقيض ذلك تماماً، فلا يؤدي ما عنده من أمانة، ولو كان شيئاً يسيراً، بمقدار الدينار في زهد ما يحققه من انتفاع. والذي يُعادل اثنتان وسبعون حبة من وسط الشعير، وهو مُجمعٌ عليه[١] ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ فهؤلاء لا يؤدون تلك الأمانة إلا إذا كنت تُلح عليه بالمطالبة والتقاضي ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ بما يفيد قوة ما تنال به الحق، من المطالبة، وقوة التقاضي وغيره. بل من بلاغة الوصف أن قال الله تعالى ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ ليستوعب كل قوة، وتستوعب جميع الطرق والوسائل من استعادة الحق. بما يفيد إن فقدتها فقد ذهب حقك عنده بطراً وجحوداً، وأشراً.

ويُستفاد من ذلك عدل الله تعالى في وصفه لأمانة أهل الكتاب، فحكم عليهم بواقعهم الأخلاقي والسلوكي. ولم يقف البيان على ذكر عيوبهم فقط، بل بدأ ببيان أمانة الأمناء منهم، ثم أعقب ذلك ببيان صفة الخائنين منهم. وهذا يدل على أهمية العدل في الوصف والعدل في الحكم، وأن الشنآن والكراهية لا تُوجب التغافل عن المحاسن. كما أن في هذا عناية من الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، من خلال كشفه سبحانه وتعالى لخصال عدوهم الرديئة، حتى يكونوا على بينة منهم، فيحذروهم حتى لا ينخدعوا ويغتروا بهم.

ثم يبين الله تعالى العلة وراء خيانتهم للأمانة، من أنها مبنية على التزوير الاعتقادي ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ فالتزوير الاعتقادي: أنه لا إثم عليهم في أكل مال العرب، لأنهم على غير دينهم، فأباحوا لأنفسهم استحلال مال من خالف دينهم. بلا نص من الكتاب المنزل عليهم. فَكَذَبُوا على الله تعالى عمداً، لعلمهم بأنه ليس في كتابهم ذلك، كما قال

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٧٥)

الله تعالى عنهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فليس قولهم ذلك جهلاً، بل كذباً وزوراً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فيكذبون على الله تعالى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بعلم من أن الله تعالى لم يُبح لهم أكل أموال غيرهم. فقد انتفى معه كل مبرر يمكن أن يكون.

مما يفيد قدرة الإنسان القلبية على الكذب عمداً، والتجاسر على قوله وفعله حتى فيما يخص خالقه وبارئه سبحانه وتعالى، وليس فقط فيما يخص جنسه من الآدميين، بل على الخالق الكريم. ومن كان كذلك فإنه من باب أولى أن يكذب على المخلوق إذا وجد لذلك سبيلا، وأن يسرق الكثير نهباً وعياناً، طالما تطاول بكذبه على خالقه جَلَّ جلاله. وهذا يفيد أن من تطاول على الكبير المتعال سبحانه وتعالى فإنه لن يبالي في التطاول على من هو دونه، إلا إذا وجد القوة القاهرة ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ مما يفيد أنه لا يثنيهم عن الباطل إلا القوة الظاهرة القاهرة.

ويُستفاد من ذلك أن المعصية قد تكون مركبة من أمرين: الكذب على الله تعالى باستحلال المعصية أولاً، ثم إتيانها ثانياً، فيكون قد ارتكب معصيتين عظيمتين، هما: الاستحلال الفكري أو الاعتقادي، والتنفيذ العملي، مما يفيد خطورة منهج أهل الكتاب في استحلال المعصية بالكذب على الله تعالى، وخطورة من ينهج منهجهم. وكذلك يُستفاد من الآية الكريمة: أن العرب ما كانوا يعرفون الكتاب، وأن أهل الكتاب يُسَمّونهم بالأميين.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من البيان الذي يحث على الوفاء في كل شأن وأمر، فقال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ابتدأت الآية الكريمة بلفظة ﴿بَلَىٰ﴾ لتفيد: نفي ما زعموه من استحلال السبيل على الأميين من أكل أموالهم سحقاً وبهتاناً، وذلك من خلال إثبات وجوب الوفاء وتقوى الله تعالى، التي توجب، تحصين حقوق الناس من الاستحلال بغير حق. وموقع ﴿بَلَىٰ﴾ من السياق يوضح البلاغة القرآنية الكريمة في الأسلوب البياني الدقيق، الذي نفى ما قبله من الخيانة، وأثبت ما بعده من محبة الله تعالى للوفاء.

يذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في معناها: أن الأمر ليس كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود، من أنه ليس عليهم في أموال الأميين حرج ولا إثم[١] فالذي أوفى بعهد الله تعالى، هو الذي أوفى بوصيته لهم في التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به. والهاء في قوله تعالى ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ عائده على اسم الله تعالى[٢] أي: بعهد الله تعالى.

مما يفيد أن الانتساب للدين ليس بالادعاء، بل هو بالوفاء لأمر الله تعالى ونهيه، وحُكْمِه. وكذلك بالتقوى المتضمنة للخوف من الله تعالى ومن عقابه، ورجاء ما عنده من الثواب، مع الحرص على عدم التعدي على أمره ونهيه تبارك وتعالى، وأن يكون الهوى خاضعاً وتابعاً لأمر الله تعالى، وكذلك عدم تقديم الشهوات على مراد الله تعالى، مع الرضا بما جاء عن الله تعالى.

وهذا يدل على منزلة الوفاء بالعهود، وأن نقضها والتهاون في أدائها لا يتفق مع التقوى. كما يدل النص الكريم على منزلة التقوى، ومكانة المتقين عند الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنه سبحانه وتعالى يحب أهل التقوى، الذين تمثلوا بها، لأنهم يحبون طاعته عَزَّ في علاه، ويخافون من عذابه، فيصبح الحذر من عقابه منهجاً يسيرون عليه، فيدفعهم ذلك جاهدين لاجتناب ما نهاهم عنه وحرَّمه سبحانه وتعالى عليهم.

وفي قوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قاعدة سلوكية لبناء التقوى. فإن واجه المؤمن إغراءً سلوكياً محرماً، قال لنفسه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وإن تخاذلت النفس عن أمر واجب، انتصر لنفسه عليها بقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وإن تمكن من الانتصار على الغير بظلم لهم، ردعها بقوله لنفسه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وإن لم يره أحدٌ من الخلق، وجال خاطره في سلوك مشين، انتصر على ذاته وفكره بقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وإذا

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥١٤)

(٢) المرجع السابق (٥/٥١٤)

من غيره مخالفة للتقوى: وعظه بقوله له ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإذا عايَشَتْ هذ القاعدة حياةَ المسلم، غرست فيه التقوى في جميع أحواله، وعلى أي حال كانت النفس وكان الموقف. اللهم اجعلني وإخوتي المسلمين من المتقين.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من حال أهل الكتاب مع ما أُنْزِلَ عليهم من كتاب الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة ببيان حال أهل الكتاب بما عهد إليهم الله تعالى من دينه، فيستبدلون بالتكذيب وصية الله تعالى التي أوصاهم في الكتاب باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ويعتاضون عمّا عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بالأيمان الكاذبة الفاجرة من أجل حطام الدنيا القليل. كجمع المال، ومحبة الترأس. فهؤلاء الذين سلكوا هذا المسلك مَوصُوفُون ومَوعُودُون بقوله تعالى ﴿ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهؤلاء موعودون بخمس عقوبات: الأولى: بذمهم بأشنع الأوصاف وأشدها عقوبة ﴿ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي: لا حظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة[1] والعقوبة الثانية: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ فلا يكلمهم الله تعالى بما يسرهم. والثالثة: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ولا يعطف عليهم بخير، مقتاً من الله تعالى لهم[2] والعقوبة الرابعة: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ فلا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم. والعقوبة الخامسة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فلهم عذاب موجع.

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥١٥ - ٥١٦)

(٢) المرجع السابق (٥/٥١٥ - ٥١٦)

وفي هذا البيان عن حال أهل الكتاب ما يفيد أن العقوبة العظيمة لكل من يفتري على الله تعالى الكذب من أجل متاع الدنيا الفاني والزائل. وربما أدى الأمر بالمكذبين إلى التطاول بالأيمان الكاذبة، وتحريف مراد الله تعالى إلى ما يحقق المطامع الدنيوية الفانية. كما تفيد الآية بالمقابل أن في الآخرة متاع وسرور لمن عَظَّمَ اللهَ تعالى وعَظَّم أوامره واتقاه، وأن من حُرِم ذلك النعيم فقد وقع في العذاب المهين، كما تفيد أن الله تعالى يُطهر عباده المؤمنين مما اقترفوا من المعاصي والذنوب التي لا تصل إلى ما وصل إليه مَنْ وصفهم في هذه الآية الكريمة. كما أن الله تعالى أثبت العذاب العظيم لمن يشتري ويستعيض بآيات الله تعالى شيئاً من حطام الدنيا. وهذا يُوجب الحذر من التخلق بأخلاق أولئك الذين استعاضوا عن عهود الله تعالى بشيء من عرض الدنيا الفانية. وأن محبة المفاخرة والصيت والتَّلَبُّس بزينة الدنيا قد تجعل الإنسان يبيع آخرته بتلك الرغبات والشهوات الفانية، فيكذب ويُجامل غيره بالباطل، ويظلم غيره نصرة لمن يرى فيهم منعة وعوناً ومصلحة من المخلوقين، فيتخلى عن الحق لِيركَب الباطل تحقيقا لتلك المفاخر المزعومة والمطالب والتكسب، بغية أن يحفظ لنفسه ما يتوهم أنها رفعة له ونُصرة، ويجلب لنفسه بها الخير توهماً. فتضيع آخرته الباقية بالأثمان القليلة الفانية.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ولا زال السياق في بيان أخلاق بعض أهل الكتاب، وكشف طرقهم في الكذب والتحريف لكلام الله رَبَّ العالمين ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإن منهم طائفة يميلون بالكلم تحريفاً

عن القصد، فيوهمون الناس بأن ما يتلونه هو من كتاب الله تعالى، وهو ليس كذلك ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فليس هو من كتاب الله عَزَّ وجل. بل ويزعمون زوراً وبهتاناً أن ما يقولون هو من عند رب البرية ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وقولهم هذا عمداً وليس اجتهاداً خاطئاً ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهم يُزَيِّفُونَ ذلك عمداً وعناداً. مما يفيد أن الهوى الضال يضل صاحبه ويأخذه إلى استحلال تحريف الكلام عن مراد الله تعالى، ويأخذه إلى انحراف النفس، وميل الهوى عن الحق باتجاه ما تشتهي النفس وتهوى. فيكون الانحراف بالآيات إما قصراً له عن المراد بالإخفاء، أو تأولاً به عن القصد، أو إضافة تُبْعِدُهُ عن الحقيقة، أو نَزْعِه عما يقيده، أو اختزاله وأخذه عما يلحق به مما يوضحه ويكتمل به المراد. فأوجه الكذب تتعدد بتعدد نوع الهوى وقوة ضلال الفكر.

ومن الفوائد أن الله تعالى لم يُعمم ذلك فيهم، بل اقتصره على طائفة منهم، وهذا من عدله تبارك وتعالى وإنصافه لهم، مما يبين أهمية العدل مع الغير، وكذلك تخصيص المخصوص بما اختص به دون غيره، وألا يأخذ المسلمَ شنآنُ قومٍ على عدم العدل والإنصاف.

ثم ينفي تبارك وتعالى عن عبده عيسى وغيره من الأنبياء ادعاء العبودية لهم من دون الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فجاء النفي استهلالاً في الآية الكريمة ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ فما ينبغي لأحد من البشر قد نَزَّل اللهُ تعالى عليه الكتاب، وجاءته نعمة الحكمة التي هي: العلم والفهم والأحكام ثم يأمر الناس بعبادته من دون الله تعالى، فهذان لا يتفقان. ويفيد هذا النفي والتنزيه لكل رسول أرسله الله تعالى من أن يكون قد ادَّعَى العبودية لنفسه من دون الله تعالى، ومنهم عيسى عليه الصلاة والسلام، ومن جاء قبله، ومن بعده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وورد وجاء الأسلوب القرآني الكريم بنفي أن يدعي النبي المرسل ادعاءً يخالف نعمة الكتاب والحكمة والنبوة. لأن من اختاره الله تعالى واصطفاه بالرسالة فإنه يمتنع عليه ذلك، وتمتنع عنه تلك الصفة. فهو أمر ممتنع الحصول، فلا يصح أن يقع من نبي ذلك مع نعمة النبوة والبينات

التي جاءته. مما يفيد أن كل من ألَّه نبياً وخصه بالعبودية من دون الله تعالى فقد افترى ذلك من نفسه على نفسه. وبالتالي امتناع عطاء الله تعالى النبوة والكتاب والحكمة لرسول يخالف هذه النعمة، فإن الله تعالى عليم بمن يصطفيه للرسالة والنبوة، فالجهالة منتفية عنده سبحانه وتعالى بمن يُرسل.

ومن الفوائد البيانية لدلالة ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أنها تضمنت دلالة العلم والفهم والأحكام[١] وأيضاً الحكم الشرعي[٢] فاستوعبت مراد الله تعالى فيما خص به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين. ومن الفوائد: انتفاء أن تتضمن الكتب الربانية ما هو ضد التوحيد، وضد إفراد الله تعالى بالعبادة، وانتفاء أن يطلب أو يُعَلِّم اللهُ تعالى أنبياءه صرف العبودية لأنفسهم من دونه تبارك وتعالى، وذلك من خلال نفي أن يدعي نبيٌ الألوهية لنفسه بعد أن جاءه الكتاب والحكم الذي ينهى عن عبودية غير الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبالتالي فإن أي إضافة فإنها تكون افتراءً وكذباً على أنبيائه، ثم إن هذا الأسلوب البياني من الله تعالى ينتفي به عقلاً، ويستحيل به عملاً أن يأتي النبي المرسل من الله تعالى، فيُضيف العبودية له، وهو مُرسل بضدها.

ومن الفوائد الأسلوبية أن الله تعالى بعد أن بين الصواب في حقيقة العبودية المفتراة على الأنبياء أو بعض الأنبياء من بعض أقوامهم، يؤكد ويبين الحقيقة التي تضمنتها الكتب بتحقيق الربوبية لله تعالى ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن كونوا حكماء علماء حلماء[٣] لأن الرباني هو العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه[٤] وفي هذا دليل على منزلة العلماء الذين يعلمون دين الله تعالى، ويعملون به. فانتسبوا للرب تبارك وتعالى.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٤)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن (٢٥٤/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٥/١)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٤)

وكذلك من دلالاتها: أن الرباني الذي يَرُبُّ الناس، وهو الذي يُصلح أمورهم ويقوم بها.[١] والربانيون هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، فقد جمعوا إلى العلم والفقه البصير بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الناس وما يُصلحهم في دينهم ودنياهم[٢] فيأمرهم بأن يكونوا ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أي: يعملون بما تتحقق به الربوبية لله تعالى، من أنه رب كل شيء ومالكه، وذلك من خلال الكتب ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بدلائل ما جاءكم من العلم الذي تناوله كتاب الله تعالى، فتعلمونها الناس.

ومن الفوائد: أن كلمة ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ جمعت بين حصول العلم وتعليمه، لأنه لا يمكن أن يُعَلِّمِ الناس ما لم يكن عالماً بما يُعَلِّم. وهذه من الدقائق اللفظية التي تغني عن ذكر لازمها، وهو حصول العلم. وأما دراستهم إياه ﴿ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ فقد ذكر الإمام الطبري: أنها تلاوته، وقيل دراستهم الفقه. والمقصود بالكتاب القرآن[٣] وفي هذا تحفيز وتوجيه إلى عِلْم القرآن الكريم وما يتفرع عنه من فروع علم الشريعة، الذي يجعل القائمين به سادة القوم بما يقدمونه للناس في أمر دينهم ودنياهم.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من تجريد العبودية له وحده سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا ﴾ فلا يمكن لله تعالى أن يأمركم باتخاذ المخلوقين من الملائكة والأنبياء معبودات من دونه سبحانه وتعالى. كما أن في هذا جواب لكل من يصرف شيئاً من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٢٩)

(٢) المرج السابق (٥/٥٣١)

(٣) ا الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٣٢)

العبودية لغير الله تعالى، وكذلك جواب خاص لمن جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، فقالوا: أتريد أن نتخذك يا محمد رباً؟(١)

ومن الفوائد: غزارة سياق الإجابة، إذ استوعبت الاشتمال على الرد الخاص بسبب النزول، والرد العام لكل من يمكن أن يقول شيئاً من ذلك. وفي هذا تقرير توحيد الربوبية والألوهية لله تعالى. ونفي تأليه أحداً من الأنبياء أو الملائكة، فيكون ما هو دونهم من مخلوقات الله تعالى تبعاً وأولى بانتفاء تأليهم فيُعبدُون من دون الله عَزَّ وجل.

ثم يتأكد الأمر بالأسلوب الإنكاري والتعجبي من الله العزيز الحكيم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ يعني: فهل يُعقل أن يأمركم ربكم بالكفر، بأن تتخذوا الملائكة والنبيين آلهة بعد إذ أنتم منقادون بالطاعة، متذللون له بالعبودية، فيأمركم بضدها، فإن ذلك غير كائن منه أبداً(٢) مما يفيد أن الله تعالى لا يرضى أن يُتّخَذَ غيرهُ معبوداً من دونه سبحانه وتعالى، فلا يُصرف شيء من العبادة إلا له عَزَّ وجل.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

تتناول هذه الآيات البينات المواثيق والعهود التي أخذها الله سبحانه وتعالى على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي: واذكر إذ أخذ الله تعالى ميثاقه وعهوده مع النبيين لِما أعطيتكم من كتاب وحكمة. قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله تعالى عنهم: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق. وقال طاووس والحسن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٣٥) بتصرف

البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا[١] وهذا لا يتنافى مع القول الأول، بل يستلزمه ويقتضيه[٢] مما يفيد أهمية المواثيق، وأهمية إنفاذها، وأنها تعني الالتزام والانضباط، فكيف بالمواثيق إذا كانت مع الله تعالى، فإنها عظيمة جليلة القدر ورفيعة المكانة، وليس هناك أعظم منها ميثاقاً.

ومن الفوائد أن في أخذ الميثاق على المتبوع وهم الأنبياء دلالة على أخذه على التابع كذلك، واكتفي بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم[٣] ثم إن هذا الميثاق على الأنبياء كلهم، لِمَا أعطاهم ومَنَّ به عليهم سبحانه وتعالى من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام بحق الله تعالى والوفاء به، بأنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بما بُعِثُوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه. فأقروا على ذلك، واعترفوا والتزموا، وأشهدهم، وشهد عليهم. وتوعد من خالف هذا الميثاق، وهو الإيمان والنصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم. وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم صلى الله عليه وسلم[٤]

وفي هذا دليل عظيم على منزلة خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ جعل ذكره عند من سبقه من الأمم، وجعل المواثيق على الأنبياء بحقه صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وأصبح الإيمان به واجب، ومناصرته ركن وميثاق، ونسخ الله تعالى ببعثته كل الأديان السماوية.

ومن الفوائد: أن الاستيثاق يدل على أهمية الأمر الذي استوثقه، حيث قال تعالى ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ وهو سؤال تقريري بما استوثقهم الله تعالى من المواثيق التي أخذها عليهم، وتعهدوا بالوفاء بها. كما أن في كلمة ﴿إِصْرِى﴾ ما يفيد معنى العهد،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/١)

(٢) المرجع السابق (٣٨٦/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥٢/١)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٥٤/١ — ٢٥٥)

وأنه عهدٌ ثقيلٌ. قال محمد بن إسحاق عن ذلك: أي ثِقَل ما حَمَلْتُم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد[١] وهذ يفيد: دقة ألفاظ القرآن الكريم ودلالاته، وإعجاز بيانه وأسلوبه.

ثم كانت الإجابة من الأنبياء ﴿ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَا ﴾ وهذا يفيد الالتزام منهم عليهم الصلاة والسلام بما استوثقهم الله تعالى عليه. فأخذ منهم الله تعالى الإقرار بهذا الميثاق، فتكون أُممهم المؤمنة قد أقرت بمثل ما أقر به أنبياؤهم عليهم أفضل الصلاة والسلام، كما أن من فوائد ذلك: رفعة مقام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الأنبياء من قبله قد عرفوا به، وأن جميع أمم الأنبياء قد عرفوا ذلك من أنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. كما تدل شهادة الله تعالى على هذا الميثاق الذي واثقهم به أنه أمرٌ عظيم جليل القدر والمكانة والأهمية ﴿ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ فأشهدهم الله تعالى على ما واثقهم به، وشهد تبارك وتعالى على ذلك. مما يفيد عظيم الأمر وجلالته.

والله تعالى قادر على أن يأمر فيُطاع من غير استيثاق، ولكنه جَلَّ جلاله يُظهر عظمة الشأن والأمر، وأنه لطيف في تعامله، وكريم في أمره ونهيه، وكذلك يعطي ذلك منهجاً عملياً في حياة العباد. وأن يدركوا أهمية الإيمان والطاعة والوفاء بما استوثقهم الله تعالى به.

وبعد هذا الاستشهاد على هذا الميثاق والعهد العظيم، يأتي الحكم على من ترك وتولى عنه بأنه فاسق ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ والفاسق هو الخارج عن الإيمان[٢] فمن أعرض بالتولي عن الميثاق بعد العلم به فإنهم هم الفاسقون بخروجهم عن الطاعة.

ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ تعطي الإعراض بعد تحقق العلم، فكانت لفظة التولي معبرة عن الانصراف عن الحق والميثاق بعد العلم به، وهذا من دقائق كلام العزيز الرحمن. وفصاحة وبلاغة القرآن الكريم العظيم.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/١)

(٢)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٢/٤)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

بينت الآية الكريمة استنكار الله تعالى لمن أراد دِيناً غير دينه عَزَّ وجل، وقد أنزل به الكتب وأرسل الرسل، وأستسلم له من في السماوات والأرض، إما طوعاً وقناعة، أو مُكرهاً بما يصيبه من القهر والتسخير وسلطان الله العظيم، الذي لا يُخَالَف ولا يُمَانَع.(١)

ومن فوائد الاستهلال في الآية الكريمة، أن بدأت بسؤال استنكاري لمن جاءه الحقُ واضح، وأبلجٌ بدلالاته وآياته، ثم يستعيض عنه بما ليس له دليل ولا برهان وحجة ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أفغير طاعة الله تعالى تلتمسون وتريدون؟ فمن يلتمس الباطل ويترك الحق الذي استبان بالدليل القاطع فإنه محل استغراب، يستوجب الاستنكار لهذا الصنيع. وهو أسلوب استفهامي يستثير العقل للتفكر والتأمل والتعقل. وهذا من لطفه تبارك وتعالى أن تضمن كتابه الكريم لهذه الأساليب الاستحثاثية، والمثيرة للعقل وللعاقل بأن يعيد النظر ويستبصر الحق بأدلته، وأن يأخذ به.

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/١ - ٣٨٧)

ومن الفوائد اللغوية في تراكيب الكلام: أنه قدم المفعول الذي هو ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ على فعله ﴿يَبْغُونَ﴾ لأنه أهم[١] فللتقديم والتأخير في كتاب الله تعالى مغزى وفوائد. مما يكشف ويبين دقة الأسلوب البياني المعجز في تراكيب تقديم الألفاظ وتأخيرها.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بيانٌ أن كل من في السماوات من ملائكة وأجرام، وما لا يعلمه إلا الله تعالى، قد استسلم لله تبارك وتعالى. ودلالة ﴿أَسْلَمَ﴾ تفيد الانقياد التام. حيث انقاد له تبارك وتعالى وأذعن وأسلم واستسلم جميع من في السماوات والأرض، فخضعوا له سبحانه وتعالى بالعبودية، وأقروا له بإفراد الربوبية. كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وقال تعالى في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فالكثير من الناس حق عليه العذاب لكفره، ولكنه مقهور بسلطان الله تعالى وقوته، لا يستطيع أن يخرج عن قهر وسلطان الله تعالى. فهناك من كان إسلامه لله طائعاً كالملائكة والأنبياء والمرسلين وكذلك من دخل في الإسلام راغباً. وهناك من أذعن له مكرهاً بقهر الله تعالى وسلطانه عليهم، بأقداره وتصريفه وعقوبته لهم، فأصبح كل شيء مستسلم له تبارك وتعالى، لأنه القاهر والقهَّار، كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فمن له هذه السلطة والسلطان الكامل، فإنه يوجب ذلك عبادته تبارك وتعالى والخضوع له طواعية.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٩١/١)

ومن فوائد ذلك: منهجية التوجيه الربانية القائمة على الاستدلال للمُخَاطَب والمعني بالأمر، واستحثاثه بالأساليب التي تنبهه إلى ما يجب عليه تجاه خالقه. وهذا دليل لطفه ورحمته سبحانه وتعالى بخلقه، إذ يأخذ بأيديهم إلى الحق والنجاة بأحسن الأساليب وألطفها، مما يفيد دعوياً وتربوياً الإفادة من هذه الأساليب الربانية في التوجيه والإصلاح، بل ويمتد هذا إلى الميدان المهني والإداري والاجتماعي في كيفية التعامل التوجيهي والإرشادي والإصلاحي.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يقولوا لأهل الكتاب بهذا النص القرآني الكريم ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

فتكون هذه الآية بياناً لما هو عليه الإسلام ومن أسلم، من التصديق بالله تعالى رباً، وإلهاً واحداً، وكذلك التصديق بما نَزَل من وحي الله تبارك وتعالى، فيكون ذلك بياناً بحقيقة الإيمان، وأنه قد امتثلنا وأقررنا به، وصدقنا بما أُنْزِلَ على إبراهيم، خليل الله تعالى، وعلى ابنيه إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب، وما أنزل على الأسباط، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر، وصدقنا بما أوتي موسى وعيسى من الكتب والوحي، وبما أُنْزِلَ على النبيين من عنده سبحانه وتعالى. وأيضاً لا نصدق ببعضهم ونكذب بعضهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم. بل نؤمن بهم جميعاً، وأيضاً نحن نُدِينُ لله تعالى بالإسلام، ونتبرأ من كل دين سواه. ونحن له منقادون بالطاعة، والعبودية، وأنه لا إله غيره(١) وبالتالي فإن هذا يبين أن دين الله تعالى واحد وإن اختلفت الشرائع بما يناسب كل أمة.

ويفيد ويبين هذا أن الإسلام امتداد لما جاء عن الله تعالى على رُسُله، وأن المسلم يُقِرُّ ويؤمن بما أنزله الله تعالى على الأنبياء والمرسلين، ويوقِّر جميع الأنبياء والمرسلين ويؤمن بهم جميعاً،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٥٤ – ٥٥٥)

ولا ينتقص من أحدٍ منهم أبداً، لأنه لا يصح إيمانٌ إلا بذلك. وهذه المنهجية الإيمانية من الله تعال، دليل على صدق هذا الدين وهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي الحسم من الله تعالى في أمر الدين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فمن سلك طريقاً غير ما شرع الله تعالى فلن يُقبل منه. إذ لا دين يقبله سبحانه وتعالى من أحد غير دين الإسلام، وهو اتباع الرُّسُل فيما بعثهم الله تعالى به في أزمانهم، حتى خُتِمُوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي ختم الله تعالى به الرسالات. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به، فلن يَقْبَلَ اللهُ منه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ من الباخسين أنفسَهم حُظوظها من رحمة الله تعالى[١] فمصيره إلى النار المؤبدة عليه[٢] ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

وذُكِرَ أن أهل كل ملة اِدَّعَوا أنهم هم المسلمون، لمَّا نزلت هذه الآية، فأمرهم الله تعالى بالحج إن كانوا صادقين، لأن من سنة الإسلام الحج، فامتنعوا، فأدحض الله بذلك حجتهم[٣]

وهذا يبين أن الدين المقبول عند الله تعالى هو دين الإسلام. وهو إخبارٌ منه سبحانه وتعالى بأنه لا دين عنده مقبول ويقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرُّسُل فيما بعثهم الله تعالى به، حتى خُتِمُوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله تعالى بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل[٤]

وبهذا التقرير الربَّاني، ينتفي كل دين غير الإسلام، وكذلك ينتفي به كل اجتهاد بدعي بإضافة زائدة في الدين، أو إنقاص من دين الله تعالى، أو تحريف له عَمَّا قرره الله تعالى في شريعته

---

(١) المرجع السابق

(٢) تفسير الجلالين (٦١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٥٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٦٢)

التي أبانها النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وبهذا التقرير تتلاشى التسميات البدعية أمام دين الإسلام.

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

تعالج الآيات الكريمة حالة من علم بالحق، وأيقنه تمام الإيقان، ثم ينحرف عنه طواعية ورغبة عنه ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فكيف يوفق الله تعالى قوماً جحدوا نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، واختاروا الكفر والضلال بعد أن آمنوا وشهدوا بنبوته عليه الصلاة والسلام. سؤال استبعاد من أن تحصل لهم معية الله تعالى لهم بالهداية والتوفيق.

وقد ابتدأت الآية الكريمة بالاستفهام الإنكاري ﴿ كَيْفَ ﴾ والذي يفيد لفت وشد الانتباه وإثارة العقل والفكر إلى مَنْ حالُه قد وصل للهدى وعرف الحق ثم يخرج منه ويرتد عنه، فكيف يوفقه الله تعالى ويلطف به ويهديه، بعد أن ترك الهدى. سؤال استبعاد لمن إيمانه حسب هواه، وليس بحسب ما عرف من الحق ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ ففيه استثارة الاستحقاق، هل يستحق

هداية التوفيق؟ بعد أن حصلت له هداية الإرشاد والرشاد بمعرفة الحق، وهداية التوفيق باتباع الحق. فإن القوم الذين آمنوا وشهدوا بأن هذا الرسول هو رسول من الله تعالى، واستيقنوا بذلك، وجاءتهم البينات والآيات والحجج الواضحات بهذا الدين. ثم يرتدون بعد الاستيقان إلى الكفر والجحود. فإنهم لا يستحقون معية الله تعالى بالهداية والتوفيق. بل إنها بعيدة عنهم، لقاء جحودهم للحق الذي أيقنوا به.

ودلالة الشهادة تفيد اليقين والتيقن من المشهود عليه والمشهود له ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وبالشهادة تحصل التزكية للمشهود عليه والمشهود له، ثم يتخلى عن تلك الشهادة الصادرة منه.

كما يضاف إلى ذلك، معاينتهم للحجج والآيات البينات التي أوضحت وتجلت بأن هذا هو دين الله تعالى، وهذا نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ كما أفادت دلالة ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ على قوة البراهين والأدلة الواضحة بالظهور والبروز الذي لا غموض فيه، وأنه من وضوحها أصبحت فاصلاً بين الحق والباطل، فقامت بها الحجة، حتى بُني عليها عقوبة المخالف لها. كما أنه بهذه الحجج البينات يتحقق بها اليقين الذي يندفع به الشك والجهل. فاستوعبت دلالة ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ جميع مفردات الحق الواضح الذي لا حجة بعده، ولا عذر لمن حاد عنها ولم يستجب لواجبها ومضمونها. كما أن موقع كلمة ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ ودلالتها يبين بلاغة ودقة القرآن الكريم في بيانه وخطابه.

وقد سمى الله تعالى هذا الارتداد ظلماً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد ظلموا أنفسهم، بخروجهم عن نور الإسلام ودخولهم في ظلمة الكفر. فالذي يستحقونه من الله تعالى هو عدم الهداية، بعد خروجهم من نور الإسلام. فإنهم قد ظلموا أنفسهم بخروجهم من دين الله تعالى، وظلموا من يتأسى بهم ممن ينشأ على كفرهم مقتدياً بهم. وهذا يفيد أن الذي يستحقونه عدلاً هو عدم الهداية والتوفيق لنور الإسلام بعد معرفتهم له والخروج منه. وأما بفضل الله تعالى وبرحمته، فإنه قد تحصل التوبة للظالم في كل باب من أبواب الظلم.

ومن الفوائد أن قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قاعدة عامة فيما يستحقه كل ظالم قد تَلَبَّس بالظلم، وأن المرتد هو أحد أنواع الظالمين. وأنهم لا يستحقون هداية الله تعالى عدلاً، ولكن رحمة الله تعالى أوسع وأعظم وأشمل. وهذا من جميل لطفه سبحانه وتعالى، إذ كيف يكفر المؤمن ثم يعود إلى الإسلام، ويقبله الله تعالى، اللهم عاملنا برحمتك ولطفك لا بأعمالنا.

وتدل الآية الكريمة على أن الهداية التوفيقية بيد الله تعالى ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالْمُصِّر على كفره ابتداء أو ارتداداً بعد الإيمان، فإنه لا يستحق الهداية. إذ كيف يستحق التوفيق وقد عرف الحق وأصر على الباطل؟ وأما إذا رجع وَفَّقَهُ الله تعالى وهداه.

وتفيد هذه الآية الكريمة خطورة الارتداد عن الدين، وأن الله تعالى قد لا يوفقه إلى الرجوع إليه، وكذلك من الفوائد: عظمة الأسلوب القرآني في التحذير من هذا المسلك، بما يدفع المؤمن إلى كثرة الالتجاء إلى الله تعالى بسؤاله الثبات على الدين، والتعوذ من مخاطر الارتداد والعياذ بالله تعالى من ذلك.

ثم يبين الله تعالى جزاءهم الذي يستحقونه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ فالذي يستحقونه من الجزاء هو لعنة الله تعالى ولعنة خلقه من الملائكة والناس أجمعين، فيحصل لهم الإبعاد عن رحمة الله تعالى. لأن اللعن من الله تعالى هو الطرد والإبعاد من رحمته، واللعن من مخلوقاته، هو سؤالهم لله تعالى أن يطرد الملعون من رحمته. وقد ذكرهم الله تعالى باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذي يدل على البعد والإبعاد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ ﴾ أي: العقاب الذي يستحقونه، هو ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهو الطرد والإبعاد من رحمته عَزَّ وجل، ثم عطف على لعنته عَزَّ في علاه لعنة الملائكة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وهو سؤال الله تعالى

أن يبعدهم عن رحمته. ثم عطف عليها ثالثاً: ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: ولعنة الناس أجمعين، وهو سؤالهم أن يطردهم الله تعالى من رحمته عَزَّ في علاه.

ثم عَيَّن تبارك وتعالى لهم العذاب والخلود فيه ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ خالدين في نار جهنم، فلا يخرجون منها، وكذلك ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فلا يحصل لهم شيئاً من التخفيف، بما يفيد قوة العذاب الدائم والخلود فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ولا يُمهلون أبداً. مما يبين ويفيد التحذير من الكفر عموماً. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطريق الصحيح، وعاقبة الكفر، والتحذير منه.

ثم بعد أن صف تبارك وتعالى هذا العذاب بالخلود، وعدم التخفيف عليهم، ولا يُؤَخَّرُون ولا يُؤَجَّلُون. استثنى التوابين ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن لطفه ورحمته سبحانه وتعالى أنه يقبل توبة التائب من الكفر، وأصلح من حاله بلزوم طاعة الله جَلَّ جلاله، لأنه تبارك وتعالى مُتَّصف بالمغفرة والرحمة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالشكر والحمد لله تعالى المتصف بالمغفرة والرحمة. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وقد رأينا كثيراً من المرتدين قد أسلموا، وهداهم الله تعالى، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم. فمعناه: لا يهديهم الله تعالى ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، ولا يُقْبِلُون على الإسلام. فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك. والله تعالى أعلم[١] مما يبين عظيم رحمة الله تعالى، إذ يقبل توبة التائب من الكفر، فكيف ببقية المعاصي التي هي دون الكفر. فإن رحمة الله تعالى واسعة وعظيمة. فالحمد لله رب العالمين.

ومن فوائد ذلك أن الله تعالى يقبل توبة العبد من أعظم الذنوب وهو الكفر، وهذا من كريم عطائه سبحانه وتعالى، وفي هذا ما يعلم المؤمن أن يجتهد في الاتصاف بصفة الرحمة والصفح

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٤)

عمن أخطأ في حقه، فما اتصف الله تعالى بهذه الصفة إلا وهو يحبها ويحب من يتصف بها من عباده وعموم خلقه. اللهم ارحمنا وازقنا مسلك الراحمين.

كما أن الله تعالى استثنى مع التوبة أن يستوفي التائب الإصلاح ليغفر للتائب ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يكن الإصلاح مقيداً بنوع، ليستوعب جميع أنواع ومجالات الإصلاح، من إصلاح النفس بما يستوجب الإيمان من اعتقاد وألفاظ وأعمال، وكذلك إصلاح ما ترتب على الردة الكفرية من آثار على الغير، كبيان أنهم كانوا مُخْطِئين. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي أظهروا أنهم كانوا على ضلال، وأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغَرَّوا به من تبعهم ممن لا علم له.(١) وهو جامع لكل جوانب الإصلاح ولزوم الطاعة وفق شريعة الله عَزَّ وجل.

ومن الفوائد: اقتران مغفرة الله تعالى برحمته للتائب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فجمع سبحانه وتعالى للتائب بين أمرين: الأول: مغفرته له، والثاني رحمته به، فإذا اجتمعت مغفرته ورحمته تبارك وتعالى للعبد فقد نجا وفاز فوزاً عظيما، مما يفيد أهمية سؤال الله تعالى المغفرة والرحمة، والإكثار من الاستغفار والتوبة.

ثم يبين الله تعالى حال من استمر على كفره بعد أن كان مؤمناً، ولم يتب ويؤوب إلى الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ فهؤلاء الذين أصروا على الكفر لن تُقبل توبتهم عند المات(٢) لأنهم مقيمون على الكفر عند الموت، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر، فسماها توبة غير مقبولة، لأنه لم يصح من القوم العزم، والله عَزَّ وجل يقبل التوبة كلها إذا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥٤/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٨/١)

صح العزم[١] وقد وصفهم الحق تبارك وتعالى بالضالين ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ فهؤلاء ضلوا طريق الهدى والحق والرشاد.

فالارتداد على نوعين: نوع عاد صاحبه إلى الإسلام والإيمان واستغفر وتاب إلى الله تعالى، فأولئك يتوب اللهُ عليهم كما في الآية السابقة لهذه الآية الكريمة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ وأما النوع الثاني: فقد بينته هذه الآية الكريمة، بأنهم قد كفروا، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على الكفر، مما يفيد أن الاستمرار على الشيء يزيده رسوخاً، فالاستمرار على المعصية يُؤَصِّل جذورها، وكذلك الاستمرار في الكفر، كما أن الاستمرار على الخير يؤسس ويقوي جذوره، كما جاء في الحديث (وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابا) وفي الخير (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً)[٢]

ثم يبين الله تبارك وتعالى المزيد عن جزاء الكافرين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ فمن ماتوا كفّاراً فإن الله تعالى لن يقبل منهم ما يفتدون به لرد العذاب عنهم، فيما لو تمكنوا من ذلك، ولو بذلوا ما يملأ الأرض ذهباً، مع أنهم لا يستطيعون ذلك. ولن يجدوا، ولن يكون لهم ما يتوقون به وينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله تعالى.

ومن الفوائد العظيمة لهذه الآية الكريمة: شدة بغض الله تعالى للكفر والكافر، لأن الله تعالى نفى قبول الفدية، ونفى ما يستحيل أن يكون من الفدية فيما لو تحقق لهم ذلك، فلو كان لأحدهم ملء الأرض ذهباً فلن يقبله الله تعالى فدية لصرف العذاب عنه، وعلى الرغم من استحالته، إلا أنه يوضح ويبين استحالة العفو عنهم، ومن وجه آخر لو أنه تحقق لأحدهم ملك ملئ الأرض ذهباً فلن يتحقق لغيره، لأنه امتلك جميع ما في الأرض وما امتلأت به، مع انتفاء واستحالة تحقق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/٤ – ٨٥)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٢٠١٣/٤) برقم (٢٦٠٧)

ذلك، إضافة إلى استحالة قبوله فيما لو كان ذلك حاصلٌ. وهذه صورة بليغة ومتناهية في بلاغتها البيانية لبغض الله تعالى للكفر والكافرين بكتبه ورسله وآياته. وأيضاً صورة بليغة ومتناهية في عظمة الوعيد والترهيب العظيم من الله تعالى، بما يدفع المتأمل لسؤال الله تعالى العافية والهداية والثبات على الحق، وحسن الخاتمة، فاللهم إني اسألك لي ولمسلمين العافية والهدية والثبات على الحق وحسن الخاتمة.

ومن الفوائد: أن الكفار موعودون بعذاب عظيم، وأنه قد انتفت عنهم سُبُل الوقاية من العذاب، والنصرة. كما أن هذا النفي يفيد انتفاء الشفاعة عنهم. فنعوذ بالله تعالى من الكفر والشرك والشقاق والنفاق. ونسأل الله تعالى الثبات على الحق وحُسْن الخاتمة.

ومن الفوائد تصوير الله تعالى لحال الكافر يوم الحساب، بما يفيد الإنذار، وأهمية اغتنام الدنيا بالطاعة له سبحانه وتعالى، وأن ما يقبله الله تعالى من قليل أعمال العباد المؤمنين في الدنيا، فإنه في المقابل لا يُقبل من الكافر ما يستحيل أن يتحقق من الفدية العظيمة الكبيرة المهولة في حجمها وكثرتها، فيما لو استطاع أن يفتدي بها نفسه من العذاب. وهذا فيما لو استطاع أن يفتدي بذلك. بينما في الدنيا يقبل الله تبارك وتعالى من عباده ما يستطيعون من الطاعة والقربات التي لا كلفة ولا تعب فيها، بل ويضاعفها لهم أضعافاً كثيرة، مما يدل على أهمية اغتنام الدنيا بالعمل الصالح، وسؤال الله تعالى الثبات على الحق.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم في الآية الأولى من هذا المقطع إلى بيان طريق الوصول إلى البر، والحصول عليه. ذلك أن البر كلمة جامعة لمعاني ودلالات عظيمة، هي مطمع المؤمنين، فالبر:

الجنة. والبر: العمل الصالح[١] والبر: التقوى، وقيل: الطاعة. والبر: الخير الذي يستحق به الأجر.[٢] وهو: اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة[٣] وهذه المعاني والدلالات تبين عظيم بيان ودقة كلام الله تعالى وبلاغته، إذ استوعبت لفظة ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ جميع دلالات الخير الموصل إلى اللجنة.

ودلت الآية الكريمة على أن حصول البر يكون بمجاهدة النفس على الإنفاق مما تعلقت به النفس محبة، واستأثرت به عن غيره من جنسه. مما يفيد ويبين أن الإنفاق مما تحبه النفس وتستأثر به لذاتها عن غيره هو البر، وهو طريق إلى الجنة. كما أن من عظائم البيان القرآني الكريم أن وصف حال النفقة دون بيان عينها ونوعها واسمها، بل قال تعالى ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وبهذا تتسع دائرة وشمولية ما يحب المرء لكل خير، ولعل هذا ما جعل هذه الدلالة البيانية العظيمة تستوعب اجتهادات أهل العلم رحمة الله تعالى عليهم. حيث قالوا، هي: نفقة العبد من ماله، وهو صحيح شحيح. وقالوا: أنه الإنفاق من محبوب المال، وأنه الصدقة المفروضة، وأنها جميع الصدقات. وأنها جميع النفقات التي يبتغي بها العبد وجه الله تعالى، سواء كانت صدقة، أو لم تكن.[٤] وقد بادر الصحابي الجليل أبو طلحة بترجمة ذلك تفسيراً بفعله، فقد جاء في الحديث أن أبا طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل. وكان أحب أمواله إليه بَيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. فلما نزلت هذه الآية، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله. إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بَيرُحاء. وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله.[٥]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٦/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٢) والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٥٧/١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢)

(٥) البخاري، الجامع الصحيح (٤٥٢/١) برقم (١٤٦١)

وكذلك ترجم عمر ابن الخطاب ذلك فعلاً، فقد طلب من أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية، يوم فتحت مدائن كسرى، فدعا بها عمر بن الخطاب. فقال: إن الله يقول ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فأعتقها.[١] وكذلك تمثل زيد بن حارثه بذلك، فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بفرس له، يقال لها: سَبْلٌ، فقال: تصدق بهذه يا رسول الله. فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنه أسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله إنما أردت أن أتصدق به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد قُبِلَت صَدَقَتُك)[٢] فتلك أمثلة للنفقة مما يحب المرء، فكانت مزرعة من أبي طلحة، وجارية من عمر بن الخطاب، وفرس من زيد بن حارثه، رضي الله عنهم أجمعين.

ومن عمق البلاغة في دلالات جملة ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أن وصفت حال النفقة دون بيان عينها ونوعها واسمها، ولكن أبان الله سبحانه وتعالى حالها ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ لتشمل وتستوعب اختلاف وتنوع ما تحبه النفس، وكذلك اختلاف درجات وقدرات العباد المختلفة، فهناك الميسور والفقير القادر بدرجات قدراته المختلفة، وكذلك نوع ما يحب ويستأثر به على غيره، وهناك صاحب الكفاف، وهناك ميسور الحال، وهناك الأغنياء بدرجاتهم المختلفة، ولتستوعب كذلك قدر ونوع المحبوب، لأن ما يحبه الميسور ليس هو قدر ونوع ما يحبه الغني، بل واستوعبت حتى درجات الأغنياء، وأنواع ما يحبون ويستأثرون به عن غيرهم. فاحتضنت واستوعبت شتات المحبوب في درجاته وأنواعه المختلفة، وكذلك استوعبت تفاوت قدرات العباد. فسبحان من أعجز بيانه عباده، وأذهلت النفوسَ والعقولَ نفائس دلالاته.

وكذلك من فوائد دلالة ﴿مِمَّا ﴾ من قوله تعالى ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أنها تعني بعضاً مما تحبون وليس كل ما تحبون، وهذا من لطيف لطف الكريم الرحمن بعباده، إذ لم يأمرهم بكل ما يحبون، ثم من لطيف لطفه أن جعل عطاؤه أعظم من عطاء العباد، إذ أن عطاؤه الجنة لمن أنفق

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٧٤-٥٧٥)

(٢) المرجع السابق (٥/٥٧٦-٥٧٧)

جزءاً أو شيئاً مما يُحب وليس كل ما يحب، ليدرك المؤمن عظيم كرم الله تعالى، ويعلم أن المطلوب منه لا يقارن بما سوف يناله من الجزاء العظيم. ثم من فوائد استحثاث المؤمن على أن ينفق مِمَّا يحب، أن في ذلك تربية للنفس على البذل، وتربية لها على مجاهدة شحها على كريم العطاء، وتربية لها على اختيار أنفس ما عندها لتعطيه غيرها، فإذا جاهد المرء نفسه على هذه الخصلة الكريمة، استطاب عطاء بعض نفائس ما عنده، فإنها التربية الإسلامية التي ينتصر فيها الإنسان على شح نفسه.

ومن الفوائد المتعلقة بمعنى البر أن الله تعالى ذكر في سورة البقرة دلالة البر الشاملة، فقال تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ فجاء الإنفاق ضمن هذه الآية الكريمة بأنواع المستحقين له، لتستوعب أوجه الأنفاق. كما أن بر النفقة جزء من أجزاء البر الذي تضمنته الآية الكريمة في سورة البقرة.

والإنفاق مما تحبه النفس وتستأثر به يتطلب استجماع القلب والجوارح للإيمان والأعمال المتضمنة للبر في الآية الكريمة. فيندفع المؤمن للإنفاق مما يحب وتستأثر به النفس بعد أن استوعبت واستوفت نفسه المضامين الاعتقادية والعملية في هذه الآية العظيمة. وهذا كله من تناسق وتعاضد كلام رب البرية. فسبحان من أبدع في البيان والخطاب.

وقد وصف الله تعالى من استجمع واستوفى أجزاء مكونات البر بالصادقين المتقين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فيكون المتقي من استجمع واستوفى مكونات البر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ فذلك من عظيم البيان القرآني الكريم في تناسق الدلالات والمعاني لمراد الله تعالى. وقد بين الحق تبارك وتعالى في سورة المطففين منزلة كتاب

الأبرار ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ وفي سورة الانفطار بين سبحانه وتعالى منزلة الأبرار ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ وفي سورة الإنسان بين الرحمن الرحيم شراب الأبرار ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

ثم قال الله تعالى عن جزاء من أنفق من البر ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فأورد سبحانه وتعالى الجزاء من خلال بيان علمه عما أنفقه المنفقون، من غير تحديد ولا تعيين لهذا الجزاء، فإن في إظهار الجزاء من خلال علمه عَزَّ في علاه، ما يفيد بيان عظمة هذا الجزاء الذي يفوق ما يتوقعه العباد، بل أورد علمه عن كل نفقة ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ ﴾ مهما كانت النفقة من قليل أو كثير ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فيا أيها المؤمن مهما كانت النفقة في عينك قليلة أو زهيدة فإن الله تعالى سيثيبك عليها ثواباً عظيماً ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم بها عليم.

ثم بعد أن بين سبحانه وتعالى طريق الوصول إلى البر، انتقل البيان القرآني الكريم إلى بيان حال بني إسرائيل فيما هو حلال لبني إسرائيل من الأطعمة ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة ببيان الأصل في حكم الطعام لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، بأنه حلال إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه، وهو يعقوب عليه السلام. وفي هذا البيان الرباني آية لهم من أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى، وأن الرسول الذي أُنْزِلَ عليه هذا القرآن هو نبي الله تعالى عليه أفضل الصلاة والسلام. لأنه كشف لهم حقائق خاصة بهم، ولا يمكن لهذا النبي أن يعرفها بغير الوحي. وهذه محاجة قوية بما يعرفون، مما هو عندهم

في التوراة، بل تضمنت المحاجة الإتيان بالتوراة ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فأتوا بالتوراة فإنها ناطقة بذلك الذي قلنا. وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: أنه حرم على نفسه العروق، وذلك أنه كان يشتكي عرق النساء، فكان لا ينام الليل، فقال: والله لئن عافاني الله منه لا يأكله لي ولد، وليس مكتوباً في التوراة. وسأل محمد صلى الله عليه وسلم نفراً من أهل الكتاب، فقال (ما شأن هذا حراماً) فقالوا: هو حرامٌ علينا من قبل الكتاب.[١]

وهذا من دقائق البيان الكاشف للحقائق عند أهل الكتاب، بما لا يدع مجالاً للشك في نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإضافة إلى ذلك فإن في هذا قوة لحجة النبي صلى الله عليه وسلم على غير أهل الكتاب من المشركين، لبيانه دقائق قضايا أهل الكتاب. وفي قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ما يدل على كذبهم وافترائهم على الله تبارك وتعالى، وكذلك ما يفيد أن الجرأة في الدين تؤدي إلى الكذب، ومن تجرأ على الله تعالى بالكذب فإنه من باب أولى أن يُكذِّب بنبوة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم. كما يفيد هذا أن دين الإسلام قائم على الحجة والبرهان والدليل، وعلى المخاطبة التي تحمل الصدق بلا ريب لا شك. وإذا كان ذلك يخفى على بعض أهل ملتهم فإن الله تعالى أطلع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما أخفوا منه، وهو النبي الأمي الذي لا يعرف شيئاً عن حقائق ملتهم، التي يخفى بعضها على بعض بني إسرائيل.

ومن الفوائد أن في قول الله تعالى ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ دليل على أن التحريم كان من إسرائيل على نفسه وليس من الله تعالى، لأن الله تبارك وتعالى أضاف التحريم إلى إسرائيل عليه الصلاة والسلام، وهو ما صححه ورجحه الإمام القرطبي رحمه الله تعالى[٢]

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٨٠)

(٢)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٦)

ثم يأتي الحكم العام ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: فمن كذب على الله مِنَّا ومنكم، من بعد مجيئكم بالتوراة، وتلاوتكم إياها، وعَدَمِكم ما ادعيتم من تحريم الله العروق ولحوم الإبل وألبانها فيها ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] وهنا يظهر المزيد من العدل في الحكم الرباني، إذ حصر الظلم على من كذب بعد أن اتضحت لهم الحقيقة، مع العلم بأنهم يدركون كذبهم، والنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يدركون صدق ما جاء عن الله تعالى، ولكن كان الحكم تنزلاً مع حال وواقع كلا الطرفين. فالظالمون هم الذين افتروا الكذب على الله تعالى. مما يبين حكمة الله تعالى في نزول القرآن الكريم بحسب الوقائع والأحداث، ليعالجها بقواعد عامة، وقواعد قطعية في إظهار الحق وقمع الباطل من أي جهة كانت.

ثم يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن[٢] وفي هذا ما يفيد حصر الحكم بالصدق فيما جاء عن الله تعالى، بإثبات صدق الله تعالى فيما أنزل، وأنكم يا بني إسرائيل كذبتم. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: تعريض بكذبهم[٣] ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم. فإنه الحق الذي لا شك ولا مرية فيه، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها، ولا أبين ولا أوضح ولا أتم[٤] منها. وفي هذا تبرئة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام من الشرك، وأنه لم يتعبد ربه تبارك وتعالى بشيء من الشرك، وأن كل ما يُضاف إليه

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٥٨٨)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٩١)
(٣) الزمخشري، الكشاف (١/٣٩٧)
(٤)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٩١)

من الشرك دعوة باطلة ومبتدعة عليه كذباً وبهتاناً مُبِينَا، وذلك بتزكيته من رب العالمين في كتابه القرآن العظيم.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾

يُثبِتُ الله تبارك وتعالى للعالمين أن أول بيت وضع للناس لعبادتهم ربهم ونُسكهم هي الكعبة المشرفة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام بمكة، والذي يزعم كلٌ من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذي بناه ونادى الناس إلى حجه[١] وهذا يفيد أنه لم يسبقه بيت للعبادة قد فرضه وعيَّنَه الله سبحانه وتعالى، إذ حصر البيان الأولية لهذا البيت فقط ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي ؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال (أربعون سنة)[٢] وبكة: اسم من أسماء مكة على المشهور، لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها، ويخضعون عندها[٣] مما يفيد أن الله تعالى قد جعل لمكة خصوصية ظاهرة على من تجبر وظلم وتكبر. مما يجعل ذلك آية ظاهرة على ربوبية الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومالكه عَزَّ وجل، وأنه يعطي ما يشاء لما يشاء من الخصوصية عن غيره من جنسه، فلا ينازعه أحدٌ في ملكه وقضائه وحكمته واختياره سبحانه وتعالى، أو يفضل مكاناً على مكان ثابت فضله من الخالق المالك عَزَّ وجل، بسبب طيب هواء أو كثرة زُروع وماء. أو لغير ذلك مما يتفاوت الناس في تقييمه وتقديمه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩١/١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٦٦/٢) برقم (٣٣٦٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩١/١)

على غيره. كما يجب تعظيم ما عظمه الله تعالى امتثالاً لحكمه وتقديره، والحذر من معصيته ومخالفة أمره وتوجيهه.

ثم من خصائص هذا البيت كما في الآية الكريمة ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو مباركٌ لتضاعف أجر العمل فيه، مع البركة لكثرة الخير[١] وكذلك فإن هذا البيت فيه هدى للعالمين، فهو قبلة للعالمين، وهو رحمة كذلك، ومن قصده صَلُحَت حَالُه عند ربه. وفي هذه المعاني من الأقوال ما يجمع دلالات الهدى ومعناه، والتي ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قبلة للعالمين، فتقديره: وقبلة للعالمين. وبمعنى: الرحمة. وبمعنى: الصلاح، لأن من قصده صلحت حاله[٢]

وكذلك يُفهم منه، أن من اتجه للبيت طلباً للهدى فسيهتدي إلى الحق، مما يفيد أن الحق باقياً في مكة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وستبقى آمنة كذلك.

ومن خصائص هذا البيت العظيم ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ قال المفسرون: إن الآيات فيه كثيرة، منها مقام إبراهيم، ومنها: أَمْنُ من دخله، ومنها: استشفاء المريض منها به. وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمته. وإهلاك أصحاب الفيل، لما قصدوا تخريبه، إلى غير ذلك[٣] وفيه ماء زمزم الذي جعله تبارك وتعالى مباركاً، كما قال صلى الله عليه وسلم (ماء زمزم لما شُرب له)[٤]

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ قال ابن الجوزي: أن الإجماع انعقد على أن من جنى فيه لا يُؤَمَّن، لأنه هَتَكَ حرمة الحرم، ورد الأمان، فبقي حكم الآية فيمن جنى خارجاً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٩)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٧)
(٣) المرجع السابق (٢/٨)
(٤) ابن ماجه، صحيح ابن ماجه (٢/١٠١٨) برقم (٣٠٦٢)

منه، ثم لجأ إلى الحرم. وقد اختلف الفقهاء في ذلك[١] وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قول ابن الزبير، ومجاهد والحسن ومن قال: معنى ذلك: ومن دخله من غيره، ممن لجأ إليه عائذاً به. كان آمناً ما كان فيه. ولكنه يُخْرَج مِنْهُ، فَيُقَامُ عليه الحد، إن كان أصاب ما يستوجبه في غيره، ثم يلجأ إليه، وإن كان أصابه فيه، أُقيم عليه فيه. فتأويل ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ومن يدخله من الناس مستجيراً به، يكن آمناً مما استجار منه، ما كان فيه، حتى يخرج منه[٢] وهذا يدل على منهجية العلماء في فهم دلالة النص، بما يتوافق مع مقاصد الشريعة وأدلتها الأخرى. التي تضمن الحق لصاحب الحق، مع تحقيق ما يحقق الأمن لهذا البيت العتيق بالأحكام الفقهية. فينتفي بذلك منه أن يكون ملجأ لأهل المعاصي والجرائم. فيكون آمناً من وجهين، آمناً من المجرمين، وآمناً لمن كان فيه. كما يبقى حرماً آمناً لتعظيمه في النفوس، مخافة أن يجتر فيه المسلم جريرة، فيضاعف الله تعالى له العقاب. فيكون آمناً لأهله ولمن دخله. إذ يرتدع من كان فيه عن إتيان المعصية فيه. ويخاف من يأتي إليه أن يُصيب ذنباً، فيضاعف اللهُ تعالى له عقابه وعقوبته بذنبه، فيهتكه ويهلكه عَزَّ وجل. فسبحان من قضت حكمته ما أمر به.

ومن وجه آخر في أمان بيت الله الحرام: أن الناس كانوا يتخطفون من حوله، ولا يصل إليه جبار[٣] قال الله تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ وقد فصل العلماء في حق من دخله وقد اجتر جريرة خارجه، أو ارتكب حداً داخل الحرم، فذكروا المسائل والأوجه المتعلقة بذلك[٤]

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٠٦-٦٠٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٩٠)

(٤) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٠١-٦٠٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٩٠-٩١)

ثم يقول تبارك وتعالى عن وجوب فريضة الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقد قضى وبيَّن الله تعالى أنه افترض على الناس حج هذا البيت العتيق، ممن حصلت له الاستطاعة، والتي فَصَّل فيها العلماء تفصيلاً دقيقاً لجميع مكوناتها وما يتعلق بها، وسواء من حيث الطريق، أو الاستطاعة البدنية والمالية من الزاد والراحلة، أو الأمن والقدرة الجسدية [١] وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: فأوجب الله تعالى حجه على المكلفين المستطيعين سبيلا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزود به. ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكن تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث، وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها. فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين. ومن كفر ولم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين[٢]

وقد استنبط العلماء من قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ﴾ الإيجاب والإلزام. فاللام للإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى ﴿عَلَى﴾ والتي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب. فإذا قال العربي: لفلان عليَّ كذا. فقد أكده وأوجبه. فذكر الله تعالى الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب، تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته. ولا خلاف في فرضيته، وهو أحد قواعد الإسلام، ولا يجب إلا مرة في العمر.[٣] وهو حق واجب لله في رقاب الناس، لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته.

ومن الفوائد البيانية: كما ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى: أنه ذكر عَزَّ وجل الناس ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وفيه ضربان

(١) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٠٩-٦١٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٩١-٩٨) وكذلك كتب الفقه التي زخرت بالتفصيل والبيان والترجيح. فاللهم اغفر للعلماء.

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٥٩)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٩١-٩٢)

من التأكيد: أحدهما: أن الإبدال تثنية للمراد وتكريراً له. والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقوله عَزَّ وجل ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ بدل من ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لتقييد حال الوجوب[٢] وهذا الاستنباط من العلماء يدلل ويفيد أهمية التضلع في اللغة العربية، وفي كلام العرب، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين. وأن للعلماء فضل عظيم في بيان وشرح دلالات وفوائد كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فرحمة الله تعالى على علماء المسلمين وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ومن مزيد الفوائد: أن رحمة الله تعالى تتجلى في الاستثناء من هذا الوجوب، فاستثنى تبارك وتعالى من لم يستطع إليه سبيلا. وهو الذي لم يمنعه غير العذر. فهذا من لطفه ورحمته بعباده تبارك وتعالى، إذ لم يكلفهم بما لا يستطيعون. مما يدل على أن هذا التشريع لا يمكن أن يكون بهذه الدقة إلا من عند الله تعالى. ففي تشريعه آيات عظيمة من آية ربوبيته وألوهيته، وكمال وجمال أسمائه وصفاته الجليلة العظيمة سبحانه وتعالى.

كما أن من فوائد هذا البيان الرباني أنه يعطي المنهجية العملية فيما يتعلق بجوانب تحرير الأنظمة، من أهمية مراعاة الأحوال والاستدراك لها، بما يتوافق مع أحوال الناس وأزمانهم.

ثم قال تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر. والله غني عنه. ومن الأقوال في تفسيرها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً.[٣] وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وأولى التأويلات بالصواب في ذلك قول من قال: ومن جحد فرض ذلك وأنكر وجوبه فإن الله غني عنه وعن حجه وعن العالمين جميعاً.[٤] وعلى أي وجه كان التأويل

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٠٢/١)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٤/٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩٤/١-٣٩٥)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٤/٥)

فإن هذا يفيد أهمية هذا الركن، وأهمية الاستعجال في أدائه. وأن أركان الإسلام عماد الإسلام.

ومن الفوائد في قوله تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيان استغناء الله تعالى عن العالمين، وهم خلقه، فلا معصيتهم تضره ولا طاعتهم تنفعه تبارك وتعالى، مما يدل بالمقابل افتقار غيره إليه سبحانه وتعالى. فمعصيتهم لله تعالى تضرهم، وطاعتهم لربهم تنفعهم، ولا ينتفع الله تعالى بها، لأنه غني عنهم وعن عبادتهم. وصفة الغني عن العالمين تدل على أنه هو الْمُغْنِي لغيره، وأن غيره فقير إليه، وهو العزيز بعدم حاجته لهم، بينما افتقارهم له سبحانه وتعالى ثابت وواضح ومحسوس ومعلوم، مما يُوجب ذلك عليهم طاعته جَلَّ جلاله، والتذلل له عن غيره، فهو الغني وغيره مفتقر إليه. وهذه الصفة الربانية تحمل جميع دلالات صفة العز والقهر، والاستغناء والكمال والقوة والقدرة الباهرة. ومن الفوائد: أن في التوبيخ بهذا السخط ما يدل على عظيم وجوب الإتيان بهذا الفرض، الذي هو ركن من أركان الإسلام. وخسارة فادحة لمن استطاع ولم يأت به.

وقد أوجب الله تعالى فريضة الحج له عَزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وفي هذا تعظيم منزلة هذه الشعيرة العظيمة، وأن لله تعالى في ذمة كل مسلم حج هذا البيت ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وفيه من الفوائد وجوب تحقيق توحيد الألوهية، بأن تصرف هذه العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، بعيداً عن الرياء والسمعة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فليست هي لغيره، بل له وحده لا شريك له عَزَّ في علاه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يتوجه الخطاب الكريم من رب العالمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر أن يخاطب أهل الكتاب بسؤالهم عن علة كفرهم بحجج الله تعالى. والله تعالى شاهد ومطلع على صنيعهم من الكفر بآياته. وذلك بمخالفتهم لِمَا بأيديهم من العلم، الذي تضمن أن ما جاء به الرسول صلى الله

عليه وسلم حق من عند الله تعالى، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين صلوات الله وسلامه عليهم. وما بَشَّرُوا به من ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تتعاملون معه بالتكذيب والجحود والعناد صلى الله عليه وسلم.

وقد تضمن الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بمناداتهم بأسلوب النداء، ولم يقل سبحانه وتعالى: قل لأهل الكتاب. بل جاء السياق بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ لأن أسلوب المناداة فيه شد الانتباه للمُنَادَى، بأن أرعو سمعكم للمنادي. كما أن في دلالته لفت الانتباه لأمر عظيم، وهنا يظهر أهمية أسلوب النداء للتنبيه، وتحديد الْمُخَاطب والْمَعْنِي بالأمر.

ثم أيضاً يناديهم باعتبار مقام ما نزل عليهم من التوراة والإنجيل ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وهم في باب الجحود والتكذيب بآيات الله تعالى. ففي ذلك تنبيه وتذكير لهم بما يجب عليهم، فأنتم أهل كتاب من الله تعالى، مما يُوجِبُ عليكم اتباع ما فيه. فذلك الكتاب يستوجب تصديقكم النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، ونصرته ومناصرته لِمَا عندكم من العلم اليقيني به.

وفي هذا الأسلوب الكريم ما يفيد أهمية نوع الأساليب في استحثاث المدعو لما هو مطلوب منه، وكذلك أهمية حُسن اختيار الأساليب الدعوية في مخاطبة المخالف، كما تم بيانه عند مناداتهم فيما سبق من هذه السورة العظيمة وما في ذلك من الفوائد.

وقد جاء سياق مخاطبة أهل الكتاب بأسلوب السؤال ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ وهو سؤال استنكار، ولوم وعتاب، يستثير العقل نحو إنكارهم وجحودهم وكفرهم بآيات الله تعالى الثابتة البينة لهم. فأنتم لديكم سابق علم بهذا النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يصح منكم هذا الجحود. وهو أسلوب احتجاجي عميق في دلالته، وفي استثارته للعقل نحو لزوم الحق والأخذ به. ثم أيضاً التحذير لهم بعلم الله تعالى وشهادته عليهم ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن ربكم شاهد عليكم بما كان منكم مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد التحذير والتهديد لهم من كتمهم الحق، وجحودهم وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم. وإنها لشهادة عظيمة يرتعد لها القلب ويهتز خوفاً ووجلاً، مما يفيد التحذير لهم من شهادة الله تعالى عليهم، وما سيعقب ذلك من العذاب. وفي هذا غاية التحذير المخيف من المخالفة لله تعالى.

ثم يتكرر الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب: لماذا تصرفون عن دين الله تعالى من آمن به؟ إذ لم يكتفوا بكفرهم وجحودهم وإعراضهم، بل امتد سعيهم إلى صد من آمن، من أجل إحداث الزيغ والميل عن دين الله سبحانه وتعالى.

وفي تسمية هدفهم أو مرادهم ومبتغاهم ﴿ عِوَجٗا ﴾ ما يفيد بطلان سبيلهم، لأنه أعوج منحرف عن الحق، ويقابله استقامة سبيل الله تعالى، لأنه لا يقابل الاعوجاج إلا الاستقامة المحصورة في دين الله تعالى. كما أن في وصف سبيلهم بالاعوجاج ما يفيد حصر الاستقامة في سبيل الله تعالى، المقابل لسبيلهم الأعوج، والمائل والمنحرف عن الحق.

وقد تكرر الخطاب لهم بصيغة السؤال الاستنكاري ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ ما هو السبب الذي يجعلكم تصدون من آمن عن دين الله تعالى. وفي هذا السؤال ما يستدعي مراجعة النفس من أجل الإجابة الصحيحة. لأنه ليس هناك علة توجب عليكم ذلك، وبالتالي ما هو إلا الحسد والكبرياء، وبطر للحق، ورغبة في أن يكون الناس أمثالكم في الباطل والجحود. وهذا يفيد أن صاحب الباطل يود أن يكون الناس على مثل ما هو عليه، حتى يستأنس بهم، ولا يُؤاخَذ بجريرته وحده. وهذا الجحود وهذا الصد مع ما تشهدون بصحة ما صددتم عنه دليل على بطلان صدودكم، وبطلان ما أنتم فيه، لأن معنى شهداء في قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ ﴾ دليل على يقينهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. كما روي عن ابن عباس، وقتادة والأكثرين هو: وأنتم شاهدون بصحة ما صددتم عنه، وبطلان ما أنتم فيه.[1] من الكفر وإخفاء الحق الذي تعلمونه في كتبكم.

وهذا يفيد أن من الناس من يعرف أنه على باطل، وأن الصواب والصحة عند غيره في قول أو فعل أو غير ذلك، ولكن يمنعه الحسد والمكابرة عن الإذعان للحق. ولا سيما في أمور الدين، مما يلزم الإنسان الحذر من مساس الكبر، وأن يتفقد نفسه وحاله في دينه وسلوكه. كما يفيد من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠/٢)

وجه آخر ألا يستثير المرء غيره ممن خالفه تجاه باطله، بل يأخذه بالحكمة. فإن منهج الله تعالى في مخاطبة أهل الكتاب كان بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يستثيرهم عند نصحهم وتقريرهم بما يعرفون من الحق. بل حتى في مناداتهم فإنه لم يجردهم من الانتماء لكتابهم بالرغم من جحودهم بما فيه من دلالات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وحتى عندما أظهر باطلهم عَزَّ في علاه، فإنه قد أظهره بأسلوب الحكيم العليم، الذي يستثيرهم للحق بكل ألفاظه ومعانيه ودلالته وأساليبه، بما يبين لطف الله تعالى بعباده، وأنه ما أراد بهم ولا لهم إلا الخير والصلاح. إذ كيف يخاطبهم للهداية وهم في صدود، فلو لم يكن رحيما حليماً رؤفاً لطيفاً سبحانه وتعالى لعنفهم من غير أن يستثيرهم لقبول ولزوم الحق والأخذ به. فسبحان الله العظيم الرحمن الرحيم، فنعم اللطف لطف الله، ونعم الحلم حلم الله، ونعم الخطاب خطاب الله، ونعم السبيل سبيل الله تعالى. فالحمد لله الذي عَلَّمَ أُمَّتَهُ أساليب ومنهج الخطاب، ووجههم إلى كيف يخاطبون غيرهم، ويتعاملون مع من يعارضهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

يتوجه الخطاب من الله تعالى للمؤمنين، بتحذيرهم من مسايرة ومطاوعة أهل الكتاب والاستماع لصدهم عن سبيله عَزَّ وجل، وطاعتهم التي يردون بها من آمن إلى الكفر، فيصبحوا أمثالهم كافرين. وقد بدأت الآية الكريمة بأسلوب النداء، لشد الانتباه ولفت الذهن لأمر في غاية الأهمية. فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فخاطبتهم تبارك وتعالى بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ بما يسترعي أسماعهم ويلفت انتباههم، ويستدعي آذانهم وقلوبهم لما بعده من أمر أو نهي أو خبر. لأن في النداء ما يفيد شد الانتباه لأمر مهم، بما يُوجب الانتباه له باهتمام بالغ، وهو أسلوب دعوي وتربوي مؤثر على الْمُخَاطَب، وعلى انتباهه.

كما أن في مخاطبتهم ومناداتهم برتبة الإيمان تمجيد لهم من الله تعالى، وتقرير إيمانهم به منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم وليعلمهم ما ينفعهم، ويحذرهم من عدوهم.

ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله فإنه أولى باتباع أسلوب التلطف في النداء والخطاب. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] وهذا النداء يحمل في دلالته التكريم للمُخَاطَبين، مع شد الانتباه لهم بما يجب عليهم من إنفاذ توجيهات ربهم سبحانه وتعالى.

فتأويل الآية: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ فإن تُطيعوا جماعة ممن ينتحل الكفر من أهل التوراة والإنجيل، فَتَقْبَلُوا منهم ما يأمرونكم به، فإنهم يُضلوكُم، فيردوكم بعد تصديقكم رسول ربكم وإقراركم بما جاء به من ربكم ﴿كَٰفِرِينَ ﴾ جاحدين لما قد آمنتم به[٢]

وقد أفاد قوله تعالى ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا ﴾ أي ليس كلهم، بل فريق منهم، وهذا من عدل الله تعالى فيهم، إذ ليسوا كلهم سواء. بل منهم من دخل في الإسلام. مما يوجب العدل مع الخصوم، وتخصيص المخصوص بما يستحق، وعدم التعميم إلا فيما غلب على الغالب من المخالف والخصوم. وفي هذا لفتة تربوية لتربية العدل في الأمة مع غيرها.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٣٢/٥-٦٣٣)

كما أن لذلك العدل أثر على المسلمين في تعاملهم مع غيرهم، وكذلك سيكون له أثر بالغ على غير المسلمين لِمَا يرون من عدل الإسلام مع أعداء الإسلام.

ومن الفوائد كذلك: الكشف عما انطوى عليه بعضهم من الحقد والحسد والبغضاء والغل والغش، مما يوجب عدم الاغترار برأيهم ومشورتهم. كما يُستفاد من ذلك أن هناك من يعجز عن ترويض نفسه للحق، مع علمه ومعرفته وتيقنه منه. فإن أهل الكتاب يعلمون الحق من كتبهم علماً يقينياً، ومع هذا ينكرون ما فيها من الحق، نتيجة الحسد لغيرهم من أن تكون فيهم النبوة، فيكفرون بكتبهم، من خلال إنكار وإخفاء مضمونها. مما يعزز لدى المسلم فهم حقيقة النفس البشرية، وما ينبغي تجاهها من الترويض للحق والإذعان له في أي موطن كان.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ فما وجه عذركم عند ربكم، إن أنتم كفرتم، وآيات القرآن تتنزل عليكم، وبينكم رسوله صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد الاستبعاد أن يكون منكم ذلك، فاحذروا أعداء الله تعالى.

وقد بدأت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام المتضمن للإنكار والتعجب[١] من أن يحصل ذلك. بما يفيد التحذير بأسلوب الاستبعاد. فجاء النهي بهذه الصيغة الاستفهامية التي تستثير التفكر والتأمل أمام الحجج والبراهين من آيات الله تعالى التي تُتلى من القرآن الكريم، وأن بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحصل الكفر بها وجحودها، مع العلم اليقيني بصدق نبوته صلى الله عليه وسلم. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تأويل ذلك: فما وجه عذركم عند ربكم، إن أنتم كفرتم، وفيه هذه الحجج الواضحة، والآيات البينة على خطأ فعلكم ذلك إن فعلتموه[٢] فهذه نصيحة استباقية من الله تعالى لئلا يغتر أحدٌ من المسلمين بفريق من أهل الكتاب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٠٦/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٣٤/٥)

ونهاراً، وهو يتلوها عليكم، ويبلغها إليكم[١] مما يفيد أهمية التحذير بالتوجيه الْمُسبق عند الحاجة، إذا خِيفَ من قوة المؤثرات الخارجية على الأمة أو على بعض أفرادها.

وهذا محمول على التحذير لأمته صلى الله عليه وسلم. ثم إن هذا التحذير جاء بعد قيام الحجج والبراهين التي تُتلى من القرآن الكريم، وأن بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن ترتيب النهي والتحذير يكون بعد الإعلام. كما يفيد أن هذا الدين قائم على العلم والحق المبين. وأن فيه تشريع عظيم، ومن أخذه استقام على الطريق.

ومن دقائق البيان أن استهل السياق التوجيهي بدلالة ﴿ **وَكَيْفَ** ﴾ التي تشد الذهن والفكر إلى التأمل في الحال الذي يؤولون إليه إن حصل منهم متابعة أهل الكتاب في كفرهم وإنكارهم. فكيف سيكون حالكم؟ وفي هذا استثارة للتفكر في المآل. ودلالة ﴿ **وَكَيْفَ** ﴾ إذا وردت في القرآن العظيم فإنها تشد أفهام وعقول المخاطبين لمقاصد الآية الكريمة، فيبحر الْمُخَاطَبُون بفكرهم للاتعاظ، حتى يتوصل به الْمُخَاطَب إلى الاعتبار بالدليل الذي ساقه القرآن العظيم عن حال ذلك المشهد. فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال التغيير من الإيمان إلى الكفر. فكيف يصنعون؟ وكيف سيكون الحال؟ حين يحل بهم الكفر، ثم يحل بهم عذابُ الله تعالى. وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب، والتأمل لنتيجة الموقف إن حصلت المتابعة لفتنة أهل الكتاب لهم. وما سيمرون به إن لم يثبتوا ينقادوا لله تعالى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون. فإنه أسلوب القرآن العظيم، الذي يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

ثم يبين تبارك وتعالى منهج التَّحَصُّن والوقاية والتوقي من ذلك ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ فمن يتعلق بأسباب الله تعالى، ويتمسك بدينه وطاعته ﴿ **فَقَدْ هُدِىَ** ﴾ فقد وُفِّق وأُرشد للطريق الواضح، والمحجة المستقيمة، فيستقيم به ذلك إلى رضا الله تعالى،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٩٥)

وإلى النجاة من عذابه، والفوز بجنته.(١) يقول الزمخشري رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم(٢) مما يفيد أن في الاعتصام بالله تعالى عصمة ومنعة من الضلال، وأيضاً نورٌ يهتدي به إلى الحق الموصل إلى رضا الله تعالى وإلى النجاة من شرور الدنيا وعذاب الآخرة.

وفي هذا النص من القرآن الكريم ما يفيد منهج التَّحَصُّن والتوقي بأن يكون من خلال الاحتماء بالله، والالتجاء إليه عَزَّ وجل، والتمسك بهديه، فإن في ذلك كمال الحماية والعصمة الحافظة للمؤمن من كل شر، لأنها تؤدي إلى مسلك الصراط المستقيم، المتضمن للحفظ والتوفيق والنجاة والانتصار وبلوغ المراد ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فالاعتصام بالله عَزَّ في علاه بالدعاء والمتابعة لدينه نجاة بمسلك الحق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾

بعد أن حَذّر اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين من أهل الكتاب المعاندين لربهم، والجاحدين لآياته البينات. توجه الخطاب من الله تعالى إلى بيان المنهج الذي يحقق للمؤمنين السعادة. وقد تكرر النداء لهم بالمؤمنين.

فينادي اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين ليعلمهم ما ينفعهم، وذلك بأن يقوموا بأمور تعينهم في كل شيء من خير الدنيا والآخرة: وبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب

(١) المرجع السابق (٥/٦٣٤)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٤٠٦)

والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. وهو نداء يحمل رتبة عظيمة ومنحة كريمة بأن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم إليه. يقول سبحانه وتعالى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم أولاً: بلزوم التقوى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ ولثاني: الثبات على الإسلام ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ والثالث: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ والرابع: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ والنتيجة التي سيحصلون عليها: هي الفلاح والفوز والنجاة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فتلك هي قواعد

الفلاح والنجاة والنجاح التي جاءت جميعها بصيغة الأمر، مما يفيد وجوب التزامها وتحقيقها، والإتيان بها. وقد بدأها جَلَّ جلاله بالتقوى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وهي أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى[١] ومن الفوائد: أن الأمر تضمن المبالغة في تحقيق التقوى ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ حتى لا تتركوا من المُستَّطَاع منها شيئاً. مما يؤكد أهمية التقوى، والحرص عليها إلى درجة المبالغة في الخوف من الله تعالى من التقصير وإتيان الذنوب، وهذا سيدفع إلى الطاعة والحرص على ذكر لله تعالى وشكره عَزَّ وجل.

وقد تضمنت الآية الكريمة الأمر بالثبات على الحق حتى الممات ومفارقة الحياة الدنيا ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لأن الكريم أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه[٢] فنسأل الله تعالى الموت على ما يحبه ويرضاه تبارك وتعالى. ومن فوائد دلالات النص الكريم: أي: لا تكونوا على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، وفي هذا نهي أن يكون حال المسلم على غير حال الإسلام طوال حياته، لأنه لا يعلم متى يأتيه الموت حتى يُصلح شأنه.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين جميعاً بالاعتصام بحبله ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ والاعتصام هو التمسك والتَّعَلّق. أي التمسك بدينه تبارك وتعالى، والتعلق بأسباب الله تعالى الموصلة لرضاه جَلَّ في علاه. فتمسكوا بدين الله تعالى الذي أمركم به، وعَهْدَهُ الذي عَهِدَهُ إليكم في كتابه إليكم. من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله عَزَّ وجل[٣] ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ تستوعب ستة دلالات كما ذكرها وجمعها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه كتاب الله تعالى: القرآن العظيم. وأنه الجماعة. وأنه دين

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٣٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٩٦)

(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٤٣)

الله، وأنه عهد الله تعالى. وأنه الإخلاص لله عَزَّ وجل. وأنه أمر الله تعالى وطاعته[١] وجميع هذه الدلالات متظافرة ومتعاضدة، وكل واحدة منها لا تنفي ولا تتعارض مع بقية الدلالات، مما يبين عظيم سياق البيان القرآني الكريم في بنائه، واختيار ألفاظه، ليجتمع المراد والمقصد ومفرداته جميعاً في كلمتين فقط ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا من إعجاز في البيان في القرآن العظيم.

ومن فوائد دلالة الآية الكريمة إظهار أهمية القرآن الكريم، والتمسك بدين الله العظيم، مع الإخلاص في المتابعة لله وحده لا شريك له عَزَّ وجل، وأهمية الأُلفة وخطورة الفرقة بين المسلمين، وأن الفرقة تتنافى مع ما أمر الله تعالى به من الاجتماع. وقد أمر بالاجتماع والتكاتف مع النهي عن ضد ذلك، وهو التفرق والتمزق والتشتت، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: يعني في دينكم، كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه، وغيره: أنه يجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانا. ويكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابر، ودل عليه ما بعده، وهو قوله تعالى[٢] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع، فإن ذلك ليس اختلافاً. إذ الاختلاف فيما يتعذر معه الائتلاف والاجتماع. وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض، ودقائق معاني الشرع. وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون[٣]

ويحث الله تعالى المؤمنين بالتمسك بحبله بلازم ومُوجب ما امتن به عليهم من التآلف الذي يعيشونه بسبب هذا الدين. فقال عَزَّ وجل ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فقد كنتم بشرككم متفرقين ومتناحرين، فيقتل بعضكم بعضا عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٢-١٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٠٣)

(٣) المرج السابق (٤/١٠٣)

صلى الله عليه وسلم، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعلكم إخواناً متحابين، فأصبحتم تتواصلون بألفة الإسلام[1] ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ مما يفيد أن من محاسن الإسلام هو تحصيل التآلف والتعاضد والتكاتف الذي أصبح حاصلاً ومتحققاً بين المسلمين، وبالتالي فإن من جليل ما أنعم الله تعالى به على المؤمنين في كل وقت وعصر هو التآلف والتعاضد والتكاتف من غير أن تربطهم في ذلك مصالح دنيوية أو روابط عرق ونسب. ولكن بالمنهج القويم من رب العالمين حصلت هذه النعمة العظيمة، وبما رتب لهم من الأجر العظيم على الإحسان فيما بينهم حتى تتوثق تلك المؤاخاة، وبما يضعه الله تعالى في قلوبهم من التواد والتراحم. وفي المقابل تجد غير المسلمين يترابطون بالمصالح الدنيوية المشتركة بينهم. ويتباعدون بمقدار تباعد تلك المصالح.

ومن جليل الفوائد أن الله تعالى ذَكَّرهُم بموعظة عظيمة، من خلال بيان ما كانوا عليه، وما أصبحوا عليه بعد نعمة الإسلام، مما يفيد عملياً في التربية والدعوة والإصلاح أهمية التذكير بأضداد النعمة، حتى يستجلي العقل بها نعمة الحال، بعد أن جاوز الله تعالى به ما كان عليه سابق الحال. فإن لذلك أبلغ الأثر على النفس والعقل.

وفي وصف حال التآلف بدلالة الأخوة، دليل على أن العلاقة بمنهج الإسلام وبما يمتن الله تعالى به على القلوب من التواد ما يجعلهم كالأخوة. وهذا يدل أيضاً على أن مقام الأخوة مقام عظيم، إذ يُضرب به المثل في واقع التواد والتآلف والتآزر. مما يلزم أهمية حفظ الأخوة في النسب، وحفظها بالإسلام.

ثم يصور الله تعالى حال المؤمنين قبل الإسلام بأنهم على طرف جهنم بكفرهم ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ فقد كنتم على طرف من الوقوع في النار، ولكن بمنه وفضله سبحانه وتعالى أنقذكم منها ببعثة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا البيان القرآني تصوير دقيق وبليغ لحالة الكفر التي وصلوا إليها، من أن حال كفرهم جعلهم مُشَفِّين ومشرفين على نار جهنم، بسبب ضلال وطغيان الكفر. وفي أثناء هذه الحال أنقذهم الله تبارك وتعالى ببعثة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فأنقذهم بالإسلام من منزلق شفير النار الذي أشرفوا عليه

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٥٠) بتصرف.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا ﴾ فإنها مِنَّةٌ عظيمة من الله تعالى لكل من أسلم بعد أن كان كافراً، وعلى شفا شفير النار التي ستكون مآله لا محالة، بسبب الكفر. فما كان يمنعه منها إلا الدخول في الإسلام. وهذا من دقة التصوير البياني والبلاغي للقرآن الكريم في تصوير واقع الحال، ونعمة الإنقاذ التي تستوجب الشكر والتفاني بالطاعات والقربات، والانقياد للكريم الرحمن.

ثم يبين الله تعالى للمؤمنين حُجَجه من أجل هدايتهم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ فكذلك أظهر وبين لكم ربكم سبحانه وتعالى سائر حُجَجه فيما أنزله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، من أجل الهداية إلى سبيل الرشاد، فتسلكوها ولا تَضلوا عنها. فإن هذا فضل من الله تعالى على المؤمنين وعلى الناس أجمعين بهذا الدين العظيم، الذي يسلك بمن اهتدى به سُبُل السلام والنجاة من النار، والفوز بجناته تبارك وتعالى.

ثم يأمر الله تعالى بما يجب على من أنعم عليهم بهذا الدين، بأن تقوم وتَنْتَصِب أمةٌ من المؤمنين للحسبة، فتقوم جماعة منهم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وفي دلالة معنى ﴿مِّنكُمۡ ﴾ ما يفيد التبعيض، وليس كل المؤمنين. فيقومون بثلاثة مهام: الدعوة للخير. والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. فَتَضَمَّن عمل هذه الأمة: دعوة، وأمراً، ونهياً. دعوة للخير ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ والثاني: هو ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ والثالث: النهي عن المنكر ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ ثم أخبر عَزَّ وجل بأنه هؤلاء ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون.

وفي دلالة معنى ﴿ٱلۡخَيۡرِ ﴾ ما يدل على أنها دلالة شاملة جامعة لخصال ما ينفع الإنسان، وأعظمها وأعلاها الدعوة إلى الإسلام بشرائعه كلها. وكذلك أن لفظة ﴿ٱلۡخَيۡرِ ﴾ تدل وتبين المحتوى الدعوي، بأنه شامل لجميع أوجه الخير. وأشار الزمخشري رحمه الله تعالى إلى أن المعروف

أخص من الخير، وجيء بالعام ثم عُطف عليه الخاص إيذاناً بفضله، وكذلك المنكر أخص[١] والمعروف اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسْنُهُ. والمنكر ما يُنكر بهما[٢] والنهي عن المنكر من الخير، لأن فيه نهي وتنبيه وعظة ومنع لوقوع المنكر.

وفي هذا من الفوائد البيانية: أن كلمة ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ عامة: قد احتوت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزيادة، إلا أن التخصيص بعد العام أفاد أهمية الْمُخَصّص، وتأكيده وبيان أهميته، والتنبيه عليه، وهذا يبين منهجية بناء الأساليب الخطابية والتعليمية والتوجيهية وما يلزم فيها من تفنيد المخصوص، بما يُرَتب الأولويات، وينبه على المخصوص من الكل الذي قد لا يتنبه إليه الْمُخَاطَب، وأيضاً احترازاً من عدم فطنته له. كما أن كلمة ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ تدل على أن مضمون الإسلام كله خير، وأنه لا يدعو إلا إلى الخير، وبالمقابل فإن الإسلام لا يدعو إلى الشر، بل يسعى لإخماده وإبادته، لأنه لا يستقيم الخير إلا بإبعاد الشر عنه، وهذا من رحمة هذا الدين الذي رحم الله تعالى عباده به.

ولا شك أن في هذا العمل الدعوي مشقة على النفس، لِمَا يتعرض القائم به إلى الأذى من الغير، فكان جزاء ذلك بما وصفه تبارك وتعالى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون، وهو فوز عام يشمل جميع أوجه ومفردات الفوز والنجاة من كل مرهوب، والحصول على المطلوب من نعيم الله تعالى. مما يفيد عظيم شعيرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال السعدي رحمه الله تعالى: يدخل في هذه الطائفة: أهل العلم والتعليم، والمتصدرون للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً. والمحتسبون الذين يأمرون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهون عن المنكرات. فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة[٣]

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤١١/١)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٣١) ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن (٢٦١/١)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٦١/١)

و في دلالة معنى ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ ما يفيد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية[١] فليس على الجميع. ويُستفاد كذلك من تخصيص أمة يقومون بهذه الشعيرة، أن هذا يتطلب خاصية العلم بما يأمر به، وبما ينهى عنه، إذ كيف يأمر وكيف ينهى من غير علم، وهذا لا يتحقق لكل أحد من الناس إلا من عرف ذلك. ثم تبقى أمور معروفة من الدين بالضرورة، فلا يجهل بها مسلم، فهنا يقوم الإنسان بما عرف وأدرك إذا رأى معروفاً معطلاً، أو باطلاً يُقترف، أو يوشك أن يُقترف. وبالتالي يلزم وينوب العالم ما لا يلزم وينوب غيره من عامة الناس.

ويُستفاد من ذلك أن هذا الدين قائم على قواعد عظيمة في البناء والوقاية الاجتماعية من الزيغ عن الهدى. إذ أمر الله تبارك وتعالى بما يصون المجتمع، ويحفظه مما يعترضه من التقصير والزيغ، كما رتب على من يقوم بما أراد الله تعالى الفلاح، الذي هو الفوز والنجاة، بأن يفوز بكرم الله تعالى، والنجاة من عذاب الله تعالى. ويفيد هذا في التطبيقات العملية أهمية المكافأة التشجيعية، التي تشجع المدعو والطالب والعامل لفعل الخير وحُسن الأداء، وإلى اجتناب الشر وفعله، وهذا يَعُم جميع مجالات الحياة المختلفة.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ ﴾

يتناول هذا المقطع التحذير العظيم من رب العالمين للمؤمنين، من أن يكون حالهم كحال اليهود والنصارى في الاختلاف، من بعد ما جاءتهم البينات الواضحات، الموجبة للاتفاق على الحق والالتفاف عليه. حيث جاء الحث على الاتفاق والإئتلاف على الحق بصيغة النهي عن مماثلة غيرهم،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٦/٤)

ممن افترقوا سُبُل الفرقة على بعضهم البعض ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ ولهذ الأسلوب في النهي والتحذير أبلغ الأثر، لأن فيه عرضٌ لواقع حال غيرهم، فليزمهم الانصراف عن مماثلة غيرهم فيما وقعوا فيه من الاختلاف، فجاء النهي عن التشبه بمن واقعهم خلاف ما جاءهم من عند الله تعالى.

كما يفيد ويبين هذا النص القرآني الكريم أن منهج وبَيِّنَاتِ الله تعالى تُحقق وتُوجب الاتفاق والإئتلاف، لأن الحق فيها واحدٌ، بما ينتفي معه الافتراق. وهذا يفيد أن الكتاب والسنة النبوية المطهرة قائمة على الإئتلاف، وفيها ما يحقق ذلك الالتئام. وأن الاختلاف الموجب للفرقة مخالف للكتاب والسنة ولمراد الله تعالى. ثم بين جَلَّ جلاله مآل أولئك المختلفين ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ فجاء التحذير للمؤمنين من خلال المآل، بأن لهم من الله تعالى العذاب الشديد. وكذلك من خلال بيان حال غيرهم ممن تفرقوا عن الحق. فكان ذلك التحذير ملازم لهم طيلة الأزمان. وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في معنى الآية الكريمة: لا تكونوا يا معشر الذين آمنوا كأهل الكتاب الذين اختلفوا في دين الله تعالى وأمره ونهيه. من بعد ما جاءتهم حجج الله تعالى، فيما اختلفوا فيه وعلموا الحق فيه، فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله تعالى، ونقضوا عهده وميثاقه، جُراءَة على الله تعالى[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى: ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغى من بعضهم على بعض.[٢] مما يؤكد ويوضح أثر الهوى وحظوظ النفس في الفرقة والاختلاف على الحق الواضح المبين.

ثم يخبر الله تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة في السعادة والشقاء ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ فإن يوم القيامة يظهر فيه التباين بين العباد، كل بحسب طاعته، وبحسب معصيته. فأهل السعادة تبيض وجوههم، لما يرون من كريم المقام. وهم الذين آمنوا بالله وصَدَّقُوا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٦٢)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٦١)

رُسُلَه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فَيُسْعِدُهُمُ اللهُ تبارك وتعالى، ويدخلهم جناته، وهم فيها خالدون. وأما أهل الشقاوة فَتَسّوَدُّ وجوههم، مما يرون من العذاب، وذلك بأنهم كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعا، وأنهم يُّخُون، ويقال لهم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ سؤال لوم وتوبيخ يتوجه إليهم. فكيف اخترتم الكفر على الإيمان. ما الذي جعلكم تكفرون بعد أن عرفتم الإيمان. وقد ورد الخطاب لهم بأسلوب السؤال الاستنكاري ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ والذي يفيد تقرير ما صنعوا من الباطل، حتى يكون ذلك توبيخاً وتقريعاً لهم، باختيار الكفر بعد الإيمان.

ثم يُشار إليهم بما يستحقون من العذاب ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فذوقوا ما تستحقون من العذاب، لقاء ما كنتم تكفرون به، فذوقوا العذب بما كفرتم به من التكذيب بالمرسلين، وما أنزل الله تعالى عليهم من الكتب والحجج والبراهين، ومنهم خاتم المرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما معه من القرآن، وما جاءكم به من الآيات.

وكذلك من الفوائد البيانية في قوله تعالى ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أن أصل الذوق إنما يكون بالفم. وهذا استعارة منه، فكأنهم جعلوا ما يُتَعَرَّف ويُعرف مُتَذَوَّقاً على وجه التشبيه بالذي يُعرف عند الاستطعام أو التَّطَعُّم. إذ تقول العرب: ذقت من إكرام فلان ما يُرغبني في قصده، ويعنون: عرفت.[١] فصور أثر العذاب بقوة ما يتذوقه الإنسان بلسانه، والتي هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً. فَقَرَّب لهم شدة ألم العذاب بقوة أثر استطعام جارحة اللسان. وفي هذا توبيخ وترهيب.

وقد أعطت دلالة ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ الاستطعام والتذوق، إشارة وبياناً لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فكأن شدة العذاب من قوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى

(١) المرجع السابق (١٥/٢)

العافية في الدنيا والآخرة. وكل هذا هو لقاء كفركم، ومقابل عنادكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفركم في الدنيا. مما يفيد أن عليكم أيها الأحياء الاتعاظ بما سيكون قبل أن يكون. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم عاقبة الكفر، والاستكبار. وأن لا ينقادوا إلى أهوائهم، بل إن واجبهم هو الانقياد للحق، والتواضع له. مما يبين أن الاستكبار أساس البطر، وأساس لجميع أنواع الباطل.

ومن فوائد اختلاف الدلالات التفسيرية: أن الله تبارك وتعالى ذكر حال وجوههم يوم القيامة، ولم يذكر أصنافهم، فاستوعبت هذه الصفة تصنيفات أهل العلم، حيث قال البعض: أن الذين اسودت وجوههم، هم كل من كفر بالله تعالى بعد إيمانه يوم الميثاق، وقيل أنهم اليهود، وقيل المنافقون، وقيل أنهم أهل البدع، وقيل أنهم الحرورية.(١) فشملت من كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما بعد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فسبحان من استوعب كلامه أصناف مراده من الكافرين، مهما اختلفت المسميات. فكان العمدة على الإيمان والطاعة، أو الكفر والمعصية. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قلنا: إنهم جميع الكفار، فإنهم آمنوا يوم الميثاق، ثم كفروا، قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ وإن قلنا: أنهم الحرورية وأهل البدع، فكفرهم بعد إيمانهم: مفارقة الجماعة في الاعتقاد. وإن قلنا: اليهود، فإنهم آمنوا بالنبي قبل مبعثه، ثم كفروا بعد ظهوره. وإن قلنا: المنافقون، فإنهم قالوا بألسنتهم، وأنكروا بقلوبهم.(٢) ثم من الفوائد المتعلقة بتنمية الذهن والفكر: أن أثار القرآن العظيم فهم ومفاهيم العلماء، وفَتَّقَ عقولهم، فنمت واستوعبت مفاهيم الدلالات اللفظية والمعاني البيانية والمقاصد الشرعية، لتكون هذه المعرفة العلمية تأكيداً لمكانتهم، ومنزلتهم ورفعتهم التي رفعهم الله تعالى بها.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤/٢)

(٢) المرجع السابق (١٥/٢)

ومن الفوائد كذلك أن الذين ابيضت وجوههم على اختلاف درجاتهم، هم أهل السعادة، وهذا، فشملت ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ ﴾ جميع أصناف أهل السعادة بمختلف درجاتهم، كما استوفت ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ جميع أصناف أهل الشقاء، وهذه من غزارة وعمق البلاغة البيانية في القرآن الكريم.

ثم يزداد البيان من الله تعالى بالإيضاح والكشف عن منزلة وثواب من ابيضت وجوههم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فأما الذين ابيضت وجوههم، وهم المؤمنون ﴿ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ يعني في جنته ونعيمها، باقون فيها أبداً، بغير نهاية ولا غاية[١] وفي هذا البيان تشجيع وترغيب للعباد على الطاعة، والانقياد والامتثال. وبيان لرحمة الله تعالى بوعظه وإرشاده لعباده بما يحقق لهم سعادة الدارين.

ثم يخاطب الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فتلك حجج الله تعالى ودلائله، ينزل عليك بها جبريل، فيقرؤها عليك ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بالصدق[٢] وهذه تزكية من الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولكتابه القرآن العظيم ولسنته المطهرة، ولجميع ما ورد عن الله تعالى.

وإذا كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو بيان للمؤمنين وغيرهم من أن ما يتزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من آيات الله والحكمة، هو صدق من عند الله تعالى. لا كذب فيه، ولا كَذَّبَ الرسول فيها وبها صلى الله عليه وسلم. مما يفيد التزكية من عند الله تعالى لما جاء عنه سبحانه وتعالى، وكذلك تزكية للنبي صلى الله عليه وسلم. وأن من صفات ما نزل من عند الله تعالى أنه بعيد كل البعد عن الظلم للعباد بتشريعاته وأوامره ونهيه وجزائه وعقابه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٦٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٠٩)

فإن هذه الآيات التي ذكرناها وبيناها لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي حجج الله جَلَّ جلاله وبراهينه ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ نتلوها عليك بالصدق الذي لا باطل فيه أبداً. بما يفيد صدق هذا القرآن العظيم، بما اشتمل عليه من الأدلة والبراهين. وبالتالي فإن فيها ما يُثْبِتُ نبوتك. فتلك آيات الله التي أنزلناها إليك نتلوها عليك بما ينزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنها تأتيك ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا شك ولا مراء فيه.

ومن غزارة البيان الكريم وقوة بلاغته البيانية أن بدأت الآية باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ لتفيد الاستقصاء لجميع الآيات، مع التعظيم لشأنها ومنزلتها. ثم أضاف سبحانه وتعالى الآيات إليه عَزَّ وجل ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ لتعظيمها، مع بيان حقيقتها، بأنها حجج الله سبحانه وتعالى التي تُلِيت عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أسند التلاوة منه مباشرة سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ وذلك على الأصل من أنها من الله تعالى إلى رسوله، وأن جبريل ما هو إلا رسول الله من السماء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. كما أفاد هذا الإسناد تعظيم منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتعظيم السند، وقوة التزكية لجبريل عليه السلام، بأنه تلاه على الرسول صلى الله عليه وسلم كما تلاه الله سبحانه وتعالى عليه. كما أفاد ذلك العناية والشرف العظيم والمنزلة الكريمة لآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن الكريم. وزاد تعظيمها بتزكيتها أنها ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أنها لا باطل فيها، وبالتالي فإنها محفوظة من أن يدخلها الباطل. فهذه دقائق تبين قوة وعظمة نظم القرآن الكريم، وغزارة دلالته وبلاغته ومعانيه، ودقته التي بلغت كمال الغاية.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله تبارك وتعالى إلى بيان عظيم مراده سبحانه وتعالى للعباد، وذلك بنفي الظلم القاطع عن دينه وشريعته الغراء، وأن الغاية مما نزل من الحق، هو تحقيق العدل، ونفي الظلم. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن ربكم ما أراد لكم الظلم ولا العذاب، وبالتالي فإنه لا يُؤخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقابه عما يستحق. وبما يفيد أن ربكم

أراد بكم ولكم الخير والهداية، فلا يلوم الإنسان العاصي إلا نفسه، بسبب معصيته لربه وخالقه جَلَّ جلاله.

وكذلك من الدلالات: أن الله تعالى لم يسود وجوه هؤلاء ويعذبهم بالعذاب الأليم، ويبيض وجوه هؤلاء وينعمهم بالجنة ظلماً لأحد، بل هو بما كسب كل فريق. ولا يريد الله تعالى بهذا التشريع والجزاء والثواب أن يُلحق الظلم بأحد من العباد. بل أراد سعادتهم لمن أطاع رب العالمين، وعقاب من عصاه جَلَّ في علاه. مما يفيد أن تشريعات الله تعالى وثوابه وعقابه عدل وحق وصدق، لا ظلم فيها البتة. بل إن الله تعالى حاكم عادل لا يجور سبحانه وتعالى، لأنه الغني عن كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فيحصل عليه بظلم أحدٍ من خلقه، فالملك جميعه له سبحانه وتعالى، والأمر كله بيديه تبارك وتعالى.

وقد وردت الآية التالية متناسقة ومبينة لِمَا سبق. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فإن لربكم مُلك جميع ما على وارتفع في السماء، وجميع ما دنى في الأرض. وبالتالي فإن مَن مَلَكَ السماوات والأرض ومن فيها، ليس بحاجة أن يظلم أحداً من خلقه، بل ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فالأمور كلها راجعة إليه، فهو الحاكم المتصرف في أمر الخلائق، سواء في الدنيا أو في الآخرة. فيتعذر الظلم من كل وجه، فَتَنَزَّه سبحانه وتعالى عن ذلك، فهو العدل الرؤف الرحمن الرحيم، الحكيم، العليم، العظيم.

ومن مَزَيد الفوائد عن قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أهمية نفي الوهم عن المتوهم، من أن التكاليف الشرعية فيها مشقة ظلم على العباد، أو أن في الجزاء والثواب محاباة وظلم بغير مكتسب العباد، بل في التشريع رحمة، وفي الجزاء والثواب عدل بين العباد. وفيه أهمية الْتَّبَصُّر في رحمة تشريعه تبارك وتعالى. وهذا من لطفه عَزَّ وجل. فإن الله تعالى ليس في حاجة أن يبرر لعباده ما بينه وأوضحه لهم، ولكن من عدله ورحمته أوضح وبين لهم ما يدفع عنهم الْتَّوهم، فعزَّ جاهه، وعزَّ سلطانه. ولكن من رحمته ورأفته بالعباد أوضح وبين لهم هذا البيان الواضح العظيم، لِيُطِيعُوه فيدخُلوا الجنة، ولا يعصوه حتى لا يدخلوا النار.

فإذا كان الله تبارك وتعالى يصحح للمخلوقين مفاهيمهم، فإن المخلوقين أحوج ما يكون للتبرير فيما بينهم في الأمر والنهي والتوجيه، ليكون أدعى للقبول والأخذ به، ودفعاً للوهم والتوهم، وكذلك للقضاء على الظنون السيئة، وذلك كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فليس المخلوق أعز من الخالق تبارك وتعالى.

ومن الفوائد: أن الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى ﴿ **وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ** ﴾ سواء كان عطاءً أو منعاً، فليس لأحد أن يعطي ما منع الله تعالى، ولا أن يمنع ما أعطى الله تبارك وتعالى. كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ مما يلزم الإنسان الدعاء والالتجاء إليه عَزَّ وجل في تحقيق كل مطلوب، أو دفع كل مكروه، فالأمر كله بيديه سبحانه وتعالى.

﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢** ﴾

هذا تفضيل من الله تعالى لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها، وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس: نصحاً ومحبة للخير، ودعوة وتعليماً وإرشاداً، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر. وجمعوا بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله تعالى، والقيام بحقوق الإيمان. وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا، وكان خيراً لهم. ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحاربون للمؤمنين، ساعون في الإضرار بهم بكل مقدور لهم. ومع

ذلك فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا لو قاتلوهم لولوا الأدبار، ونصر الله المسلمين عليهم.(١)

فبين الله تعالى خيرية هذه الأمة، وعلة حصولها على هذه الخيرية، وأن هذه الخيرية ثابتة بالتزام موجبها. وستظل هذه الأمة قائمة بهذا الأمر، وأنه ثابت فيها، لأن الله تعالى أثبتها لهم على الإجمال ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ مما يفيد أهمية القيام بموجبها، ليدخل كل من قام بموجبها في هذه الخيرية. وفي هذا دليل قوي وعظيم على عِظَمِ منزلة ومكانة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الإيمان بالله تعالى. كما أن في ذكر الإيمان بالله تعالى ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ما يغني عن ذكر بقيت أركان الإيمان، لأن من لوازم الإيمان بالله تعالى الإيمان بجميع أركان الإيمان. ولذلك نوه تعالى بحصول الخيرية لأهل الكتاب لوا آمنوا ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ ويكتمل الإيمان بحصول أركانه كاملة غير منقوصة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها(٢)

ومن مزيد فوائد دلالات هذه الآيات العظيمات في جانب اللغة، أن قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أفاد الحاضر والمستقبل. لأن الفعل قد يأتي بنية الماضي. وهو راهن، أو مستقبل. كقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ ﴾ ومعناه: أنتم. ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي: سيأتي. وكذلك ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي: من هو في المهد.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٦٢-٢٦٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٠٤)

ومثله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي: والله سميع بصير[١] وتأتي ﴿ كُنتُمْ ﴾ بمعنى التمام. فيكون تأويله خُلِقْتم خير أمة، أو وُجِدْتُم خير أمة. كان معنى صحيحاً[٢] وهذا من كماليات اللغة، وعمق دلالاتها.

ثم أوضح وبين الله تعالى حال أهل الكتاب، بأنهم لن يستطيعوا الإضرار بالمسلمين ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ فنفى عنهم القدرة على الإضرار بالمسلمين أصلاً، واستثنى من عموم أصل الإضرار، الأذى فقط. وهو: الضرر المقتصر على القول، من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك[٣]وقال القرطبي رحمه الله: يعني: باللسان[٤] فلا يتجاوز ذلك.

وهذه من الفوائد الكاشفة لواقع حال أهل الكتاب، حتى يفهم المؤمنون منهجية التعامل معهم من خلال هذه الحقائق الربانية، والتي تحققت منذ بيان ذلك حتى يومنا هذا، وستظل كذلك. وإن حصل الاقتتال سينهزمون حتماً إذا تمسك المؤمنون بدينهم، كما قال تعالى ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾ تكون النتيجة متحققة في حالتين: الحالة الأولى: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ فإن قاتلوكم فإنهم لن يصمدون أمامكم أبداً ﴿ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أي: هاربون من معركة القتال. والحالة الثانية: ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ تتحقق فيهم الهزيمة. فلا يمكنهم الله تعالى من النصر بأي حال من الأحوال. وهذا حال تمسك المؤمنون بدينهم.

وفي دلالة قوله تعالى ﴿ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ كناية عن الهزيمة المتصفة بالهروب. ودليل على قوة الهزيمة، إلى درجة التولي وعدم الصمود. ويترتب على هذا عدم انتصارهم على المسلمين

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٧/٥)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤١٣/١) بتصرف

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٢/٤)

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذا الخبر من الله تعالى معجزة، مبنية على حكم الله تعالى فيهم، وليس بقوة المخلوق، وإنما بقوة الخالق سبحانه وتعالى وبقدرته وإرادته، حيث أورد الله تعالى عدم نصرهم بالفعل الذي لم يظهر فاعله. فلم يقل جَلَّ جلاله: ثم لا ينتصرون، بل قال عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ليتبين أن فاعل النصر هو الله سبحانه وتعالى، فلا يمكنهم من النصر، بما يحكم به سبحانه وتعالى. كما نصر المسلمين يوم بدر. فإن نصر الله تعالى قد يكون بما يقذفه من الرعب في القلوب، وقد يرون المسلمين أضعاف حقيقتهم.

وهذا إعجاز عملي وقدري عظيم، مما يفيد أن الحكم لله تعالى، وأنه هو الناصر، وهو المُذِل، فينصر من يشاء بقوته وإرادته، ويذل من يشاء بحكمته وقدرته. مما يفيد أن النصر ليس من الإنسان لنفسه، بل من الله تعالى لمن يشاء. إلا أن الله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً، من السنن والقوانين التي يسير عليها مُلكُه، فجعل من سُبل النصر نُصرة دينه، وأخذ العدة له بالعتاد، والقوة المادية والمعنوية، وبالدعاء والتوكل عليه سبحانه وتعالى.

ومما حكم الله تعالى به عليهم: أن الذلة مضروبة فيهم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ فضربت عليهم المذلة أينما وُجِدُوا. لتشمل جميع الأمكنة التي يكونون فيها، والأزمنة التي تطويهم فيعيشون فيها. مما يفيد أن على المسلمين أن لا يهابوهم وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك. ولكن استثنى تبارك وتعالى من هذا الأصل حصول سببين: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

فالسبب الأول: حبل من الله تعالى. والسبب الثاني: حبل من الناس. أي بعهد من الله تعالى. وهو العهد الذي يأخذونه من المؤمنين بإذن الله تعالى. أي: أنهم أذلاء إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه.(١) وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن الحبل الذي ذكره الله في هذا الموضع، فإنه السبب الذي يَأْمَنُون به على أنفسهم من المؤمنين، وعلى أموالهم وذراريهم، من عَهْدٍ وأمان

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨/٢)

تُقَدَّم لهم عُقدهُ قبل أن يُثْقَفُوا في بلاد المسلمين.[١] وكذلك تعني: بذمة من الله تعالى، وهو عقد الذمة لهم. والحبل الذي من الناس هو الأمان منهم لهم، كالمهادن والمعاهد والأسير إذا أَمَّنَهُ واحدٌ من المسلمين ولو امرأة[٢] ومجمل ذلك: أي إلا بذمة من الله تعالى، وذمة من المسلمين. فليس لهم لهم أمن إلا بالتجائهم إلى الذمة. وكذلك يشمل حبل الناس معونة الغير لهم، فيشاء الله تعالى ذلك بحكمته. ومعونة الناس لهم تكون بالنصرة والعتاد لهم، ومن وجه آخر ضعف قيام المسلمين بأمر دينهم. لأن نصر المسلمين مرتبط بنصرة دين الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة محمد ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ** ﴾

ومن فوائد المعاني أن معنى الحبل: العهد. كقول أبي الهيثم بن التيهان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتته الأنصار في العقبة: أيها الرجل إنا قاطعون فيك حبالاً بيننا وبين الناس.[٣] فدلت لفظة الحبل على العهد.

ثم يبين الله تعالى ما استوجبوا من مقت الله تعالى ﴿ **وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ** ﴾ فاحتملوا ورجعوا بغضب الله تعالى عليهم، وهذا إلزام من الله تعالى لهم بهذا الجزاء الذي لا يستطيعون الفكاك منه. وكذلك ألزمهم الله تعالى المسكنة التي تصيب القلب ﴿ **وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ** ﴾ فلا يقوى بما عنده من قوة، ولا يرى في نفسه إلا الضعف والفقر والعوز والحاجة، فهي فقر النفس وشحها. وهذا يبين ويفيد أن من قوة القلب الشعور بالقوة ولو كانت الإمكانات ضعيفة، والشعور بالاستغناء، ولو كان الموجود قليلاً، فيراه كثيراً بتوفيق الله تعالى، فيقوى قلب المرء، ويشعر بالاعتزاز. مما يؤكد حقيقة الغنى، وحقيقة قوة النفس التي تتغذى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٨٢/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٥/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٨٣/٥)

بما يجعلها الله تعالى قوية بقوة القلب: كالاستعفاف، والاستغناء، والاستكفاء بالموجود، فيستغني به ويتكفف ويتعفف.

وفي هذا من الفوائد أن قوة الله تعالى ونصرته قد تكون في المشاعر الداخلية، فيشعر المنصور والمعان من الله تعالى بكثرة ما عنده وكفايته مع قلته على وجه الحقيقة. وكذلك أن هزيمة وإذلال الله تعالى لمن يشاء قد تكون في المشاعر والأحاسيس القلبية، فيستشعر الضعف مع قوة ما لديه، فلا يرى فيما عنده الكفاية وما يحقق به مراده. كما ورد في سورة الحشر من قوله تبارك وتعالى ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو شدة الخوف الذي أرعب يهود بني النضير، حيث أخرجهم الله تعالى من ديارهم ومنازلهم، من غير قتال. فقد خرجوا خائفين ومرهوبين، ومرعوبين بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب، الذي جعلهم يخرجون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مطالبين الأمان والصلح، على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم، وذراريهم. فقد تضاءلت القوة المادية، واضمحلت وتصاغرت في عيونهم، وأصبحوا يرونها لا تغني عنهم شيئا. وأصبحت الشجاعة جبناً، والقوة ضعفاً، وأصبح الفكر والتفكير باهتاً مهزوماً عاجزا، والحيلة غير مجدية. فخارت جميع القوى[1] وكان موقع الرعب الذي هزمهم الله تعالى به هو أن أوقع في قلوبهم جميعاً الخوف الذي زعزعهم من شدة هوله.

وكذلك يستوعب هذا البيان مجالات الحياة المختلفة، فمن الناس من يستشعر الكفاف فيما أعطاه الله تعالى، من مال أو جاه أو زوج أو غير ذلك من فضل الله تعالى، ومنهم من لا يرى في الكثير إلا القلة والحاجة والفاقة.

فبين الله تعالى أنواع ما أصابهم من الجزاء العقابي، بالإذلال في الأبدان والمسكنة في القلوب. وغضبٌ من الله تعالى عليهم. وقيل الذلة: الصغار والفقر، فلا يوجد يهودي وإن كان غنياً إلا عليه زي الفقر وخضوعه ومهانته.[2] فَأُلْزِمُوا ذُل الفاقة، وخشوع الفقر[3] مما يتطلب من المؤمن اليقظة من مسلكهم في مقابلة النعمة والرحمة من الله تعالى بالمعاندة والاستبطار. أو التململ من

---

(١) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٢٩٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٢٩٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٨٨)

النعمة، وعدم شكرها، وكذلك من محاكاتهم التي تُظهر فقرهم وهم أغنياء. فالحذر من محاكاتهم وتقليدهم في مراعاة الطبيعة السفلية، بل يلزم الاستعلاء والارتقاء بالنفس وطبيعتها إلى طبيعة العابد الشاكر، المعترف بنعمة الله تعالى. لأن عقاب الله عظيم، فقد قال الله تعالى فيهم ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: رجعوا بغضب من الله تعالى.

ثم بين الله تعالى علة إنزال العقوبة عليهم من حصول الذلة والمسكنة والرجوع بغضب الله تعالى عليهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ فقد حصل منهم الكفر بآيات الله تعالى المتضمنة للحجج والبراهين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ﴾ وكذلك ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ فكانوا يقتلون الأنبياء ظلماً وعدواناً، وارتكابهم عموم المعاصي، كما قال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ﴾ فكانت منهم كثرة المعصية لله تعالى، خالقهم ورازقهم، الذي أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فارتكبوا عموم المعاصي. وأيضاً كان منهم الاعتداء، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ وهو مجاوزة الحق إلى الباطل، فيعتدون على آيات الله تعالى، وأنبيائه، بجميع أنواع الاعتداء، الذي هو الخروج عن الحق إلى الباطل. فتلك الأسباب أوجبت غضب الله تعالى عليهم.

مما يفيد الحذر من المعاصي، فإنها جالبة لغضب الله تعالى، وأن الله كريم رحيم، يحب المطيع الشاكر المستغفر التواب، الذي يثوب إلى الله تعالى، ويحافظ على النعم ولا يزدريها ولا يتهاون فيها بالإسراف والتبذير، أو بغير ذلك مما يوجب غضب الله تعالى ومقته، وأن يكون مجتهداً وحريصاً في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فإن في قصصهم عبرة وحجة من الله تعالى عليهم وعلى من يسلك مسلكهم. فتلك موعظة من الله تعالى لهذه الأمة حتى تتعظ بما أصاب غيرها. وكذلك عظة لغير هذه الأمة حتى يُدْرِكُوا هذه الحجة، وهذا الأثر البليغ، فيقبلوا بالإسلام ديناً ومنهجاً. وإن لم يقبلوا فقد قامت الحجةُ عليهم بهذه الموعظة، وبغيرها من الحجج والبراهين الربانية.

﴿لَيْسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾

ثم من عدل الله تعالى أن بين أنهم ليسوا جميعاً بذلك المسلك الكفري العنادي، فلم يعمم سبحانه وتعالى، فَيُدخِل المحسن في الظالم، ثم يُؤاخذ المحسن بالمذنب. فقال الله عَزَّ وجل ﴿لَيْسُواْ سَوَآءٗ﴾ ليس أهل الكتاب متساوون فيما هم فيه من الكفر وقتل الأنبياء، والمعاصي. وذكر بعض أهل التفسير دلالة أخرى، وهي: أن المقصود: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم. والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شُعبة، وغيرهم. أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا.[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ليس اليهود كلهم سواء، بل فيهم من هو قائم بأمر الله تعالى. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما[٢] وهذه الدلالة على الوجهين قد استوعبتها الآية الكريمة، فلا شك أنه لا تستوي أمة محمد وأهل الكتاب، وكذلك لا يستوي من آمن من أهل الكتاب ودخل مع نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبين من كفر به ولم يدخل معه، وبقي على كفره وعناده. وهذه من البلاغة القرآنية في استيعاب الحكم للمشمولين به، مهما تعددت أوجه الفهم.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى علة عدم استواء مَنْ آمن مِنْ أهل الكتاب مع من كفر ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٠٥-٤٠٦) وبعض كتب التفسير الأخرى.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٨)

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فهذه الصفات التي اتصف بها بعضهم، سواء قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، أو بعد بعثته عليه الصلاة والسلام، وذلك بإيمانهم به ودخولهم في الإسلام قد جعلتهم من الصالحين ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وَفي ذِكْرِ قيامهم بتلك العبادة مدح وثناء من الله تعالى عليهم، لِمَا اتصفوا به من تلك الصفات، والتي أولها ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ أي: أنها مستقيمة، قائمة بأمر الله تعالى، فجمعت صفة أهل الاستقامة، التي هي صفة جامعة شاملة، بحيث يكون ما بعدها بيان لمفرداتها، مما يفيد في الأساليب البيانية والتعليمية والتدريسية، أهمية التفصيل بعد الإجمال لما له من أثر في الفهم. ومن كان منهم كذلك فلن يتأخر عن الدخول في الإسلام بعد بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شُعبة، وغيرهم.

ومن ذلك التفصيل في الثناء عليهم أنهم ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يقرؤون كتاب الله تعالى أناء اليل. والمقصود في ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ما أنزل الله في كتابه من العبر والمواعظ. فيتلون ذلك أناء الليل، فيتدبرونه ويتفكرون فيه[1] وهذا يفيد منقبة من يتلوا كتاب الله تعالى خاصة في الليل، متدبراً له ومتفكراً فيه، لأن الله تعالى امتدحهم بما يقومون به من عبادة لله تعالى نوعاً وزمناً. فالنوع تلاوة الكتاب الكريم، والزمن كان ليلاً، بل كما قال تعالى ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ وهي ساعات الليل [2] وذكر سبحانه وتعالى أيضاً السجود، مادحاً لهم به ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ كناية عن الصلاة.[3] وذكر سبحانه وتعالى الإيمان ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ أي يصدقون بالله تعالى وبيوم البعث والنشور بعد الموت، وما يحدث في اليوم الآخر من الحساب والجزاء، ودخول الجنة أو النار، وبجميع ما يتعلق باليوم الآخر. كما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٩٥)

(٢) المرجع السابق (٥/٦٩٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٩)

ذكر سبحانه وتعالى أن من صفاتهم أنهم ﴿ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ فيأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به. وينهون عن الكفر بالله تعالى، وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله عَزَّ وجل. وأيضاً من صفاتهم ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ فيبتدرون إلى فعل الخيرات. وهذه الصفة أيضاً جامعة لكل خير، كما كانت الصفة الأولى جامعة للاستقامة والقيام بأمر الله تعالى ﴿ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ وقد وصفهم الله تعالى بالمسارعة في إدراك الخير واكتسابه وفعله وبذله، فهو عمل زائد عن مجرد التحصيل أو الفعل، وذلك بزيادة الحرص إلى درجة المبادرة والمسارعة خشية الفوت، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والمسارعة: فرط الرغبة فيه، لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به، وآثر الفور على التراخي[١] فجمعت هذه الجملة جانب الاكتساب والبذل للخير. فإن المسارعة للخير تكون في طلبه وتحصيله، كالمسارعة للصلاة والزكاة، وكذلك المسارعة في البذل، كالصدقة والإعانة للغير بالخير، فتشمل جميع مفردات كسب الخير العملي والاعتقادي والأخلاقي والتعبدي وغيره، وكذلك بذله. ولو تقصى القاص دلالات هذه الجملة لتفرعت منها فروع وموضوعات لا حصر لها. فسبحان من استوعب كلامه جميع مراده، بأجمل الكلام وأبلغ الألفاظ معناً ودلالة، فكان بيانه تبارك وتعالى أحسن البيان وأبلغه.

ثم وصفهم الله تعالى لقاء قيامهم بذلك أنهم من المفلحين ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهم الذين صلحت أحوالهم في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالفوز فيما عند الله تعالى من كريم العطاء، فاستحقوا الثناء، فكان جزاء الله تعالى لهم بهذه التزكية وهذا الفوز العظيم.

وفي قوله تعالى ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ قاعدة ومنهجية عملية وقائية وعلاجية وإنمائية دافعة للخير لمن أخذ بها في حياته. فكلما رأى المسلم خيراً سارع إليه وهو يخاطب نفسه

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤١٥/١)

﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ وإن تخاذلت النفس عن إتيان الخير أخذاً وبذلا، انتصر عليها وعالجها بقوله تعالى ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ وإن رأى في نفسه توانياً وكسلاً، أو طمعاً وبخلاً، أو جُبناً وخوفاً من نقص يدفعه إلى الخير، استدفع نفسه بقوله تعالى ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ لتكون هذه ركيزة وقاعدة ووَقُوداً لفعل الخير، ومنهجية مانعة للجبن من فعل الخير، فيكون بإذن الله تعالى وقوته من المسارعين في الخيرات، والمتجاوزين للتراخي عن تحصيل وبذل الخير. اللهم اجعلني وإخواني المسلمين من المسارعين في الخيرات يا ذا الجلال والإكرام.

ثم قال تعالى عنهم ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فبين الله تعالى أنه يجازيهم على فعل الخير، ولن يُحْرَم فاعله ثواب فعله. فإنه عليم بمن اتقاه. فأثبت الله تعالى مكافأته لفاعل الخير، ونفى الحيف عليهم فيما يفعلوه من خير، وأثبت الله تعالى علمه بمن يتقيه، لأن فعل الخير هو من ثمار التقوى، وكلما زادت التقوى ازداد فعل الخير، حتى أنه ليسارع فيه خشية فواته، إما بذهاب وقته، أو بفوات موضعه، أو بفوات القدرة على بذله، أو فواته بانقضاء أجل الإنسان.

كما أن جملة ﴿ مِنۡ خَيۡرٍ ﴾ قد أطلقت نوعه، وقدره، فلم تقيده بنوع أو مقدار، بل أفادت مجمل النوع والحجم من الخير، أو الكمية أو العدد، أو أي جزء ومقدار وقدرة من أنواع الخير المختلفة، كما ورد في الحديث (فليتقين أحدُكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة)[١] ومن دقائق الفوائد: العلاقة الترابطية التوضيحية بين علم الله تعالى بالمتقين، وعلمه بما يفعلون من خير، وما يستحقونه من الجزاء عليه. فالعالم بالمتقين حتماً سيكون عالماً بدقائق ما يفعلون، فما يفعلونه من خير يعلمه الله سبحانه وتعالى، ولن يحرمهم ثوابه، وفي نفي الحرمان إثبات للجزاء والمكافأة العظيمة، والجزاء الجزيل من ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٣٦/١-٤٣٧) برقم (١٤١٣)

والمتأمل في جملة ﴿ فَلَن يُكۡفَرُوهُ ﴾ يجد أن معنى كفر الشيء: ستره وتغطيته. وإنكاره وجحوده، وقد نفاه الله تعالى بحرف ﴿ فَلَن ﴾ الذي دخل على الفعل ﴿ يُكۡفَرُوهُ ﴾ فقال تعالى ﴿ فَلَن يُكۡفَرُوهُ ﴾ فيكون ثابتاً عنده سبحانه وتعالى، إثبات وتثبيت الخير لهم والإثابة عليه. فأثبته جَلَّ جلاله بنفي المضاد له ﴿ فَلَن يُكۡفَرُوهُ ﴾ ومن الفوائد التي يمكن استنتاجها أيضاً: أن الخير هو ما كان في أصله وهدف فعله خير، خالصاً لله تعالى، ذلك أن كل خير يعمله الإنسان يكون له ظاهر وباطن، فقد يكون ظاهره خير، ولكن وراءه مآرب أخرى خلاف ذلك الخير، ولا حصر لصورها، وقد يكون ظاهره وباطنه خير في هدفه وفعله ونيته، وهذا هو عمل المتقين، والآخر عمل المنافقين والمخادعين، والله عليم بالمتقين، وعليم بالمنافقين والمخادعين،

وورد السياق في الآية الكريمة عن علمه تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ لأنه المناسب مع من يخاطبهم من الذين آمنوا من أهل الكتاب، الذين كان عملهم عمل المتقين، فهو عالم بتقواهم، وهذا كله من دقة البيان القرآني الكريم وإعجازه البليغ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى حال مؤمني أهل الكتاب، انتقل السياق القرآني العظيم إلى كشف حقائق الكفار، وعن مآلهم. فالذين كفروا لن ينتفعوا بأموالهم من عذاب الله تعالى، ولن تدفع عنهم شيئاً من ذلك. لأن المال يندفع به الشر بين الناس، إما مهابة لذوي المال، أو لما يتحكم

به في شراء الذمم، أو يتقوى به في شراء القوة من الأسلحة والعتاد، ولكن لن ينتفعوا به عند الله تعالى، ليدافعوا به عن أنفسهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى. وفي ذكر ﴿شَيْـًٔا﴾ ما يبين انتفاء الدفع حتى عن الجزء ولو كان يسيراً ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلا أمل في قيمة المال إذا لم يقبل الله تعالى منه شيئا، ولا نفع له في الآخرة ما لم يكن في مساره الشرعي الذي يرضى به الله تعالى عن صاحبه. وهذا بعكس أموال المؤمنين التي ينتفعون بما قدموا منها في الدنيا لآخرتهم ولو كانت يسيرة.

وكذلك ذكر سبحانه وتعالى عدم انتفاعهم بأولادهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلا ينتفعون بأولادهم الذين هم من أصلابهم، والذين كانوا ينتفعون بهم في الدنيا، ويدافعون بهم الشر الذي يصيبهم، ويستجلبون بهم ما يحبون من متاع الدنيا. بينما المؤمنون ينتفعون بدعاء أولادهم، وبما قدموا لهم من تربية وأعمال صالحة. ثم بين تبارك وتعالى حال وجزاء الكافرين في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فأولئك محكوم عليهم بالعذاب في النار، ومصاحبتهم لها مصاحبة دائمة، وأنهم ماكثون فيها بالخلد الدائم المؤبد، الذي لا ينقطع، فلا يخرجون منها أبداً. اللهم أجرنا من النار. وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

ثم بين تبارك وتعالى حال ما يقدمه الكافر في حياته الدنيا، بأنه هباء منثورا، لا ينتفع به في الآخرة بشيء. فقال جَلَّ جلاله ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فضرب الله تعالى بذلك مثلاً لتوضيح مآل ما قدم الكافر في حياته الدنيا، وقد جاء المثل بدلالة شاملة لجميع أحوال الإنفاق وأنواعه ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ لتستوعب هذه الدلالة جميع أنواع الإنفاق وأحواله النافعة، وهذا من بلاغة القرآن الكريم في استيعاب اللفظة لمراد الله تعالى، وللمراد المقصود بأكمله. فسبحان من استوعب كلامه مراده. فإنفاق الكافر كمثل برد

شديد، وقيل: برد وجليد فيه نار، وهو معنى ﴿صِرٌّ﴾ أي: النار. فاجتمعت حارقتان في هذه الريح: البرد الشديد والنار، فأصاب البرد الشديد مع هذه النار ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي زرع قوم من الناس. وصفة هؤلاء القوم أنهم ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بمعصية الله تعالى، ومجاوزة حدوده. فبعد أن كانوا في أمل من هذه الزروع وثمارها، وما يجنون من مصالح عظيمة، احترق ذلك الخير بتلك النار القوية العظيمة ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فأبادته تماماً.

وفي هذا ما يفيد أهمية ضرب المثل لتقريب المعنى، وتوضيح الحالة أو المراد من خلال تصوير الحال بأبلغ تصوير، فيتم نقل الفهم والإدراك لحال ما يقع عما سوف يقع للكافر الذي جمع بين الكفر وبين المنافع، فيجازيه الله تعالى على كفره بسحق ذلك الذي قدَّم، مما يؤكد ويفيد أن الأعمال الصالحة مهما كانت، فإن ليس لها قيمة مع الكفر بالله تعالى. وأن الأعمال الصالحة إنما تُقبل من المؤمنين، مما يدل ويفيد أهمية ومنزلة وقيمة الإيمان الذي ترتقي به الأعمال الصالحة عند الله تعالى.

ثم بين سبحانه عَزَّ في علاه: أن ما أصابهم بسبب ظلمهم لأنفسهم، وليس ظلماً من الحق تبارك وتعالى، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأظهر الحجج ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ومن جميل كلام رب العالمين في الأسلوب القرآني الكريم النفي والإثبات: فنفى الظلم عن ذاته تبارك وتعالى لهؤلاء الكفار، وأثبت ظلمهم لأنفسهم، واختيارهم ظلم أنفسهم على سلامتهم. مبيناً ذلك بأحسن الصور والأساليب البيانية، والتي منها ضرب المثل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يوجه الله تبارك وتعالى بهذا السياق القرآني الكريم المؤمنين إلى منهجية التعامل مع الكافرين، من خلال بيان ما يكمنون في أنفسهم للمؤمنين من غل وحسد وبغضاء، وما يتبع ذلك من المكر والخديعة العدائية. فابتدأت الآية الكريمة بمخاطبة المؤمنين بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يشد انتباه الْمُنَادَى إلى المضمون الذي نُودِيَّ من أجله. والذي يفيد كذلك أهمية هذا المضمون. ثم اشتمل السياق على مخاطبتهم بخصيصتين، هما: رُتْبَة المؤمنين ورُتْبَة الإيمان بدلالة واحدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إذ أن الذين آمنوا تشتمل على تسميتهم بالمؤمنين، وعلى صفة الإيمان التي اشتملت عليها صفتهم، مما يفيد التزكية للمؤمنين بالإيمان، وتقرير إيمانهم من الله الكبير المتعال. وفي ذلك استثارة لكوامن الإيمان في قلوب المؤمنين، واستجاشة لقلوبهم، فإن هذا هو الرب سبحانه وتعالى، يُخَاطِب عبيده، فيناديهم بأجمل الصفات. وهذا تكرماً ولطفاً منه سبحانه وتعالى، مما يفيد في التطبيق العملي الاجتماعي أهمية التنادي بين المؤمنين فيما بينهم بأحب الصفات وأزكاها. وهذا دليل لطفه وكرمه ورحمته تبارك وتعالى بمن أطاعه.

ثم بعد هذه المناداة الكريمة من الرحمن الرحيم ينهاهم عن اتخاذ الكفار بطانة ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ ﴾ والبطانة: تستعار لمن تختصه بالاطلاع على باطن الأمر[(١)] أي: الاطلاع على خصوصيات الإنسان. فأكد الله تعالى النهي بصيغة الأمر عن الركون إلى الكفار باتخاذهم بطانة تخصونهم بخصوصياتكم، ويطلعون على سرائركم من دون المؤمنين ﴿مِّن دُونِكُمۡ ﴾ أي: من سواكم من المؤمنين. فلا تخصون أحداً بخصائص أموركم إلا أن يكون منكم، فاجتنبوا سواكم بأسراركم وخصائصكم. ويُستفاد من دلالة ﴿مِّن دُونِكُمۡ ﴾ أي: أن جميع من هو من غير المؤمنين.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٥١)

فإنهم في الدون منزلة منكم، فلا ترتقوا بهم إلى الخصوصية، فيعلمون أسراركم، ثم يكيدون لكم من خلالها. فهو تحذير من عالم الغيب والشهادة.

وفي هذا من الدلائل المفيدة: النهي عن اصطفاء الكفار واتخاذهم أخلّاء، فيحصل الإسرار إليهم بالسرائر والخصائص، وأما إذا كانت هناك خصوصيات وسرائر يلزم الإفصاح عنها، فلا تُفصح للكفار، بل تُفصح للمؤمنين، لأن المؤمنين غير منطوين على إضمار الشر لإخوانهم المؤمنين، بل إن الأخوة الإيمانية تُوجب المحافظة على بعضهم البعض. في حين أن الكفار أعداء للمؤمنين، فلا يريدون لهم إلا الشر. فإنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ فلا يتوانون ولا يقصرون لكم فيما يفسدكم ويضركم. والْخَبْل كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، هو: الفساد، وقد يكون ذلك في الأفعال والأبدان والعقول[1] كما بين سبحانه وتعالى أنهم يودون ما يشق ويُعَنِّت المؤمنين ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يتمنون، فيترصدون لكم ما يوقعكم في المشقة، وشدة الضرر. فيتمنون ويودون ما يشق على المؤمنين ويحرجهم بالوقوع في الحرج أياً كان نوعه. وبالتالي سيبحثون عن كل أمر يجلب العنت والمشقة والحرج للمؤمنين، بل وفي كل باب يقدرون عليه ويدخلون منه. ومن اللطائف أن الله تعالى لم يخصص العنت بباب معين، بل جعله عاماً، ليكون شاملاً لكل مدخل يمكنهم الدخول منه. وهذا من دقائق البيان المحقق للدلالة العامة غير المخصوصة.

وفي هذا البيان والكشف لما في بواطن نفوسهم، هو إظهارٌ وإعلام من الله تعالى للمؤمنين، بما يجعلهم يحذرون من الكافرين، ويدركون الحقائق النفسية لهم، حتى يدركوا حقائقهم وإن أظهروا خلاف ما يبطنون فإنه استدراج للوصول إلى ما يودون ويحبون. وهذا من نعيم العلم الرباني، الذي كشف حقائق وبواطن الكافرين، وما كان لأحد أن يعرف ذلك لولا بيان الله تبارك وتعالى له بقاعدة ثابتة.

ثم يبين الله تعالى ما ظهر من عداوتهم وما يُبطنون، فقال عَزَّ وجل ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فهذا ما ظهر من عداوتهم، وأما ما يُبطنون، فقال تعالى ﴿وَمَا

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/٤)

﴿ تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾ فالذي يخفون أعظم خطراً وكيداً ومكراً مما يظهر منهم. وقد ظهرت البغضاء بالعداوة والتكذيب منهم لكم بأفواههم، والتي هي الترجمان اللفظي للبغضاء التي في الصدور. لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم، فينفلت من ألسنتهم ما يبين بغضهم للمسلمين.

والبغضاء، والبغض: هو ضد الحب. وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة، إشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتستر الذي تبدوا البغضاء في عينه. وأخبر تبارك وتعالى أن ما يبطنون من البغضاء هو أكثر مما يُظهرون بأفواههم ﴿ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾ فما تتخفى وتتستر به قلوبهم أكثر مما تسمعون من مقولاتهم.

ثم حذَّر تبارك وتعالى المؤمنين من عدم إدراك وتَعَقُّل ما قيل لهم عن هؤلاء الكفار ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فقد تم بيان أمر هؤلاء من أن تتخذونهم بطانة من دون المؤمنين، إن كنتم تعقلون عن الله تعالى مواعظه وأوامره ونواهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم[١] فإن آيات الله تعالى دالة على وجوب الإخلاص لله تعالى، وموالاة أوليائه المؤمنين، ومعادات أعدائه الكافرين. وفي جملة ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ استثارة لإدراك هذا الأمر، واستحثاث لأخذه مأخذاً قوياً، لأنه لا يتركه إلا غير العاقل لرشده ومصلحته، وغير مكترث بنتيجة ما نُبِّه له بعد أن تبين ذلك من الخالق العليم بخلقه سبحانه وتعالى.

وهذا الأسلوب القرآني الكريم يُعطي منهجية في الاستثارة والاستحثاث للأمور التي استبان فيها الحق، حتى يدركها الْمُخَاطب، فيأخذ بها أخذ المتعقل لها. وسواء كان ذلك في الأمور الدعوية أو التربوية أو الإدارية أو بما هو مثلها.

ثم يستمر التوجيه الرباني إلى إقناع المؤمنين وصدهم عن مباطنتهم للكافرين بأسلوب المقارنة ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ ﴾ أي: تأملوا في صدق التحاب والتواد بينكم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٧١٦)

فأنتم أيها المؤمنون تحبون وتريدون لهم الإسلام والخير والنجاة، وهم يريدون لكم الشر والكفر. وقيل: هم اليهود، لأنه قبل الإسلام كانت بينهم حلف وقرابة ورضاع، فجاء الميل لهم بحكم الطباع البشرية.(١) وأياً كان المراد، فهي تشمل جميع الأوجه التي يمكن أن تكون، سواء محبة الإرادة من المسلمين لهم بالدخول في الإسلام، أو للعلاقة والقرابة، أو محبتهم بما يتظاهر به المنافقون من الإيمان، الذي هم على خلافه، وهذا من استيعاب القرآن الكريم لمعالجة الواقع وما يدخل معه من أوجه، وما يمكن أن يكون، بأسلوب يستوعب فيه الصورة الكلية كاملة، وأيضاً الحكم الجامع المانع، فسبحان من بَلَغَ بيانه العظيم هذا المبلغ العظيم. واستوعب كلامه جَلَّ جلاله شمول المقصود والمراد. وهذه من عظائم البلاغة والإعجاز القرآني الكريم.

وكذلك من أوجه المقارنة بين المؤمنين وبين الكافرين: موضوع الإيمان بِكُتِب الله تعالى ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي أنكم أيها المؤمنون، تؤمنون بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من كتب الله تعالى، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم(٢) وهذا يفيد: أهمية المقارنة في بيان الحقائق، وإيضاح أوجه المفاضلة، إذ أنه أسلوب علمي وتعليمي، يناقش الفكر والذهن بالواقع أو بالعواقب، ليستوعب العقل الأمر بقناعة وفهم، ومبناه في ذلك دليل وبراهين الحقائق.

وكذلك يفيد هذا أن القرآن الكريم لا يتحامل على أحد إلا بما فيه من الحقائق، وأنه يوجه إلى انفتاح الذهن للحقائق، وعدم الاغترار بزيف الكلام. مما يقوي لدى المؤمن قوة الفكر والتمحيص، وجميل المناقشة ودقتها، واستيعاب الحيثيات بصورة دقيقة، والارتكاز إلى الدليل فيما يحكم فيه. فهو كتاب هداية للحق. فهذا المنهج يُبعِد اتباعه المؤمنين عن الظلم، لارتكازه واعتماده على الدليل الثبوتي.

ثم يتدرج التوجيه البياني في تحصيل الإقناع إلى الكشف عن المزيد من حال المنافقين. إذ أنهم يخادعونكم بإظهار الايمان وإبطان الكفر ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٧/١)

عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ فيكشف ويبين الله تبارك وتعالى خداعهم، بأنهم إذا وجدوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان، وإذا خلوا فيما بينهم وتأملوا حال علاقة المسلمين، وما هم عليه من الألفة واجتماع الكلمة وصلاح ذات بينهم ازداد غيظهم، فعضوا أناملهم من شدة ما يجدون في أنفسهم من الحنق على المؤمنين. والعض عبارة عن شدة الغيض مع عدم القدرة على إنفاذه[١] وعض الأنامل من شأن فعل الْمُغْضَب الذي فاته ما لا يقدر عليه، أو نزل به ما لا يقدر على تغييره[٢] وقد أوقعهم الله تعالى بين قوة البغضاء وبين عدم القدرة على إنفاذ الغيض. فهي عقوبة نفسية قوية الأثر، وتزداد في النفس كلما ظهر العجز عن إنفاذ الغيض والتنفس منه، قال تعالى ﴿ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ ﴾ أي: ابقوا بغيظكم حتى تموتوا، لما ترون من اجتماع شمل المسلمين.

وكذلك من أوجه الدلالات أن هذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو عليهم، بأن يهلكهم الله كمداً من الغيظ[٣] ﴿ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ ﴾ وهو دعاء عليهم بأن يزدادوا غيظاً حتى يُهْلَكُوا بزيادة الغيظ من عزة الإسلام وأهله ورفعته. ويفيد هذا أن الغيظ الذي أصابهم ويصيب الكافرين في كل وقت وحين هو بسبب ما يرون من اجتماع كلمة المسلمين، فإنه أمر وشأن مُوجع لهم أشد الوجع، بل ويكاد أن يؤدي إلى الموت، وذلك من شدة ما يجدون في أنفسهم مما يرون من حال المسلمين. وهذا يفيد كذلك أهمية اللحمة بين المسلمين، وأنها من أشد أنواع العذاب النفسي لهم.

وفي هذا ما يفيد البشارة للمؤمنين بأن أعداءهم يتألمون غيظاً عظيماً كلما ازدهر حال المسلمين، وكذلك يفيد أهمية الحذر ممن وصل الغيظ بهم هذا المبلغ. وكذلك أن في هذا كشف وبيان من الله تعالى لما في قلوب الكافرين من الغيظ والبغضاء، الذي ما كان للمؤمنين أن يدركوه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٧/٤)

(٢) المرجع السابق (١١٦/٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٢١/٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢/٢)

إدراكاً حقيقياً إلا ببيان الله تعالى له، وبأدق بيانٍ وتصويرٍ لحالهم. لأنه كما قال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فالذي فضح هؤلاء بما في صدورهم هو العليم بما تَكِنُّهُ صدُور عباده، واحداً واحداً، فلا يغيب عنه ما يختلج في الصدور، من خير وشر، فسبحان من وسع علمه ما خفي على عباده ممن يخالطونهم ويجالسونهم. وهذا العلم من الله تعالى يكشف للمؤمنين الحقائق، ويزيدها توثيقاً وثقة، لتكون حقيقة يبنون عليها الحكم، ويدركون منها منهجية التعامل.

وهذا النص من الآية الكريمة وسيلة تربوية علاجية للنفس الإنسانية، فإذا حاك في صدر المؤمن شرٌ، استدفع ذلك الشر بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فاستغفر ربه وأناب. وإن نوى أمراً طيباً، وعجزت نفسه عنه، استبشر بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وإن خطط لأمر سيئ، توقف عنه واستدفع ذلك بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ليكون هذا التوجيه وهذا البيان قوة لردع النفس عن الشر، وضابط للنية قبل السلوك، وكذلك تسليتها عما عجزت عن فعله من خير نوته. وتصويب وتصحيح لمسار التفكير، من أن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه، وعلى ما يعتلج في قلبه وذهنه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى مزيداً من الكشف عن حال الكافرين وما يحملونه من غلٍ تجاه المسلمين ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ فإن يُصيب المسلمين نعمة وينالهم رخاء وخصب ونصرة وأُلفَةٌ واجتماع، ونحو ذلك من المنافع، فإنهم يتضجرون ويستاؤون من ذلك ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ ﴾ وأيضاً ﴿ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا ﴾ فإن أصاب المؤمنين الحزن والاكتئاب، أو مصيبة حلت بهم، فإنهم يفرحون بها، ويُسَرَّونَ بذلك. وهذا من بيان خفايا ما بداخل نفوسهم التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى. فلولا أن كشف الله تعالى ما في صدورهم، وما يمكرون به، لخفي ذلك عن المسلمين، فإن من فضله وعنايته أن كشف عالم الغيب والشهادة للمسلمين ما في كوامن الكافرين حتى وإن أظهروا خلاف ذلك، فأصبح هذا أصل متقرر فيهم. وإنها لمنة عظيمة من الله تعالى أن كشف وجرد للمؤمنين نفسية ومكر عدوهم،

وما لا يمكن أن يظهر لولا أن أظهره الله تعالى بعلمه مما تُخفي الصدور، فجردهم تجريداً يكشف به الحقائق والبواطن، التي قد يتخفى بها العدو تحت ما قد يُبطن من نوايا المكر في ظل ما يُظهر من طيب التعامل، والتي يتستر خلفها العظائم من العداوة والبغضاء.

ثم يرشد الله تبارك وتعالى المسلمين إلى ما ينبغي عليهم من اتخاذه تجاه كيد الكافرين ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ فأرشد الله تعالى المؤمنين إلى أمرين مهمين يصدون بهما مكائد الكافرين، وهما الصبر، والتقوى. فيصبروا على طاعة الله تعالى واتباع أمره فيما أمر، واجتناب نهيه فيما نهى، وبالتالي لن يضرهم مكائد الكفار أبداً، وهذا يتطلب اجتناب مباطنتهم، باتخاذهم بطانة من دون المؤمنين. وكذلك أن يُحَصِّلُوا التقوى، فيخافونه ويرجونه تبارك وتعالى، ويطيعونه ولا يعصونه. فإن تحقق هذان السلاحان فلن يضر المسلمين كيد وغوائل الكافرين أبداً، والتي يريدون بها صد المسلمين عن الهدى والحق بالمكر الذي هو الكيد ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ وفي دلالة ﴿شَيۡـًٔا﴾ ما يدل على نفي أقل أذى الكيد، لأن دلالة شيئاً تفيد الجزء وإن كان يسيرا. وذلك إذا تمسك المسلمون بهذه العصمة المتمثلة في الصبر والتقوى، فلن يصيبكم من كيدهم شيئاً أبداً، وهذا وعد من الله القوي العزيز.

مما يفيد عظيم ثواب الصبر، وأن الله تعالى مع الصابر، فإنه يعينه عَزَّ وجل، ويسدده وينصره، وكذلك منزلة تقوى الله تعالى، التي تبين طاعة العبد لربه، خوفاً وطمعاً. فخوفاً من عقابه تبارك وتعالى، وطمعاً في ثوابه ونصره. والصبر والتقوى سلاح المؤمن في جميع نشاط حياته، ثم عاقبة الحسنى في الاخرة، بدخول الجنة.

ثم يؤكد ويبين الله تعالى قدرته في إحاطته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فهو الذي أحاط بجميع أعمالهم، علماً وقدرة، بما يفيد كمال التصرف فيها وفيهم بما يشاء سبحانه وتعالى. وقد جمعت دلالة ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ الاستيعاب الكامل لجميع أعمالهم بلا استثناء، بما ينتفي أن يخرج منه شيء عن إحاطته عَزَّ وجل. كما أفاد قوله تعالى ﴿مُحِيطٌ﴾ كمال الإحاطة التي استوعبت كمال القدرة، من العلم والتدبير، والقهر والسلطان والتصرف. فكل شيء من القول والعمل قد أحاط

الله تعالى به، وطوقه بعلمه وإرادته سبحانه وتعالى، فإنه هو المطلع والمتصرف فيه، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يغيب ولا يستتر عليه من خلقه شيء، فكل غائب على غيره من خلقه مكشوف ومعلوم وظاهر له سبحانه وتعالى، وكل شيء ممتنع على غيره من خلقه، لا يمتنع عليه عَزَّ وجل، بل تحت قهره وسلطانه. فإن الذي أحاط بالشيء علماً وقدرة قادرُ عليه من كل وجه. فالله تعالى محيط بما يعمل هؤلاء من الفساد والصد عن سبيله، وبما يضمرون في قلوبهم للمؤمنين من الشر والنوايا الخبيثة والعداوة لأهل دينه، فهو محيط بذلك علماً وقدرة، وحافظ لذلك، حتى يوفيهم ما يستحقون.

فاستوفى هذا البيان الكريم كمال وتمام الوصف لله تعالى، بما هو أهله من حقائق قدرته وصفاته العظيمة الجليلة.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ
هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن
يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى غزوة أحد على قول الجمهور[١] فَيُذَكِّرُ اللهُ تبارك وتعالى نبيهَ ورسولَه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما حصل فيها. فابتدأت الآية الكريمة بقوله تعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٩/٤) ابن كثير (٤٠٨/١)

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ أي واذكر إذ خرجت. وذلك يوم أحد، حيث مشى نبي الله صلى الله عليه وسلم على رجليه خارجاً من أهله إلى أُحد، ليبوئ المؤمنين مقاعد للقتال[1] ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وجاء بيان الانطلاقة إلى أُحد بالغدو ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ الذي يعبر عن الخروج مبكراً من أول النهار. في حين أن خروج النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد صلاة الجمعة. ولكن المتأمل يجد أن الخروج يسبقه استعداد وتهيئة، بما يفيد تناسب دلالة الغدو مع ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من الترتيب والإعداد والتجهيز، فتضمن الغدو ما قَبْل المشي والسير لِأُحُد من الاعداد والتجهيز الذي كان مبكراً، حتى إذا صلوا الجمعة انتقلوا من التجهيز إلى المسير نحو أُحُد. لأن غُدُّوهُ صلى الله عليه وسلم كان ليبوئ، أي: ليهيء المؤمنين ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ فيهيئ النبي صلى الله عليه وسلم حاله والمؤمنين قبل الانطلاقة إلى أُحُد.

ثم يسوي ويرتب ويخطط وينظم في أحد، باختيار أماكن القتال، لِيُنْزِلَهُم منازلهم في أماكن القتال، ويهيئهم وينظمهم التنظيم الذي يمكنهم بإذن الله تعالى من أخذ عدوهم مأخذ المنتصر. كما بينته كُتُب السيرة النبوية. مما يدل على حِذقه وقدرته العسكرية الفائقة صلى الله عليه وسلم، كما فاق وكَمُلَ بما كَمَّلَهُ اللهُ تعالى به في كل شيء صلى الله عليه وسلم. فقد خطط لهم، ووضع الاحتمالات الممكنة، وأعلم وأخبر ماذا يصنع الذين أنزلهم جبل الرماة عند حصول النصر أو الهزيمة.

وهذا تذكير من الله تعالى بما حصل ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وربكم عَزَّ وجل يسمع ما تقولون، ويعلم منكم ما كان منكم. ويعلم ما تخفون، ويسمع ويعلم من عدوكم ما يقولون ويدبرون لكم. لأن عِلْم الله تعالى شامل لما يظهر، وما غاب مما لا يظهره العباد، مما هو في كنف الصدور. فسبحان الله السميع العليم. كما بين سبحانه وتعالى صفة السمع والعلم الشامل غير المحصور فيما حدث منكم، وإنما يدخل ما كان من المؤمنين في عموم هاتين الصفتين. وهذا من بلاغة كلام رب العالمين، من حيث دقته المتناهية بالكمال المطلق لله سبحانه وتعالى.

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦)

ومن مزيد الفوائد في الإعجاز البلاغي: أن استخدام الاسم: سميع، عليم. الذي يفيد الدوام والثبوت، أي دوام السمع والعلم المطلق لله تعالى، والذي يفيد كمال المبالغة. كما أن في دلالة قوله عَزَّ في علاه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أنه لم يحصر ذلك فيما يخصهم، بأن سَمِعَهُم وعَلِمَ بهم، بل إن دلالة ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ تتجاوز ذلك لتشملهم وتشمل غيرهم وما قبلهم وما بعدهم، فتكون صفة ثابتة دائمة، عامة ومطلقة لله تعالى بلا حدود.

ثم يُذَكِّر ويبين اللهُ تبارك وتعالى بحال الطائفتين اللتين همَّتَا بأمر، فعصمهما الله تبارك وتعالى بفضله وكرمه ﴿إِذْ هَمَّت طَّآيِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ فقد همَّ بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع حين رجع عبدالله بن أُبي ابن سلول، فعصمهم الله تبارك وتعالى، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة، بعد أن كانوا ألفاً.(١) إذ كان يُخَذِّل المسلمين بهذا التصرف، حتى يفشل المؤمنون. والفشل هو الضعف الذي يقود إلى الجبن. مما يبين أثر التخذيل على النفس البشرية، والذي تنكشف بمخاطره أهمية الثبات أمام المثبطين والخائنين، بل والحذر ممن يُخَذِّل الأمة في أي موقف من المواقف، وأن الصمود والثبات عامل مهم في المضي قُدَمَاً، وأن المنافق ومن في قلبه مرض يستغل الأحوال والفُرَص للإطاحة والإحاطة بالمسلمين.

ثم إن مجرد حصول الضعف النفسي، قد يقود إلى التفكير بالفشل المؤدي إلى إفشال المجموعة الصغيرة، أو الجماعة الكبيرة، أو الأمة، وذلك نتيجة ما قد يحصل في النفس البشرية من الشعور بالعجز والضعف المؤدي إلى الجبن، بسبب التخذيل المخيف والمخوف من النتيجة. وقد سمع الله تعالى ذلك وعَلِم به.

كما يفيد هذا أهمية الدعاء، وسؤال الله تعالى الثبات في الحق وعلى الحق. كما تبين الآية الكريمة أن الله تعالى لم يسم الطائفتين المسلمتين، بما يدل على أدب القرآن الكريم، وأهمية هذا الأدب من عدم التشهير بمن حصلت منه هَنَّة، بل أهمية الستر. وكذلك من عظيم الفوائد: امتنان الله تعالى عليهم إذ عصمهم وثبتهم، بأن تولى اللهُ سبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام أمر تلك

(١) المرجع السابق (١٣/٦)

الطائفتين ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ فحفظ الحافظ الستَّار الكريم سبحانه وتعالى قلوبَهُم عن تحقيق ما أهمّوا به، وذلك بعصمتهم وتثبيت قلوبهم مما أهموا به. فَتَمَسَّكُوا بِعِزْزِ النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه نعمة ومنقبة عظيمة، قد نالها الفريقين من رب العالمين. فانهزم العدو.

ولذلك فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: عن هذه الآية الكريمة: نحن هُم: بنو سلمة وبنو حارثة. وما نُحِبُّ أن لو لم نكن همنا، لقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾[١] وذلك لحصول هذه المنقبة، من ولاية الله تعالى لهم بالحفظ والعصمة مما هَمُّوا به، فَيُفِيدُ ذلك: أهمية النظر للنعمة وإدراكها، وإدراك حقيقتها، خاصة نعمة ولاية الله تعالى للإنسان، بتثبيته والعناية بحاله، حيث أدرك دلالتها جابر بن عبد الله ومن معه، رضي الله عنهم، فتناسوا ما هَمُّوا بِهِ نتيجة هذه العصمة الربانية والمنحة الإلهية ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ مما يفيد أن الإنسان لو ركن إلى نفسه وحاله ولعواطفه لانزلق في مزالق لا حصر لها، وربما انهمك فيها ولم يستطع الخروج منها، ولكن الله تعالى يدفع عن المؤمنين حتى شرور أنفسهم، ويأخذ بأيديهم إلى النجاة وهم ساهون لا يعلمون، وربما ظن واعتقد العبدُ أنه بقوته وقدرته وحذاقته قد حقق ما أراد مما هو فيه، وأنه دفع عن نفسه ما اندفع واندحر من شر. غير أنما حصل له بفضل الله تعالى ومِنّتِهِ. ليتأكد أهمية الثبات والركون إلى الله تعالى، والتوكل عليه والاعتصام به وبشريعته، وأهمية سؤاله الثبات على الحق، وأهمية التعلق به تبارك وتعالى، حتى يحفظه قبل انزلاق الفكر في سوء العمل، وأن يعصمه من ذلك بعصمته وحفظه وولايته تبارك وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى ما يجب أن يعزم به المؤمن على نفسه في كل موطن من مواطن حياته، حتى يكون قوياً عزيزاً بالله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ففي التوكل قوة وعزيمة للمؤمن، وعونٌ له على الصبر والثبات، لأن التوكل اعتماد على الغير، نتيجة الشعور بالضعف والعجز. والمؤمن يكون اعتماده على صاحب القوة المتين الرحمن الرحيم، فيستشعر ضعفه ولو بلغت الأسباب من القوة ما بلغت، ويستشعر عجزه عن إدراك مراده إلا بقوة الله تعالى وتوفيقه وتسديده، وأن الذي يحقق له القوة والنصر وحصول المطلوب هو الله تعالى بتوفيقه ونصرتُه له، وكريمُ عطائه.

(١) المرجع السابق (٦/١٤)

وبهذا لا يغتر المؤمن بقوة الأسباب مهما بلغت، فما أضعفها عند مراد الله تعالى، وكذلك لا ييأس المؤمن وإن قلت الأسباب وضعفت، فما أقواها عند مراد الله تعالى وقوته وقهره للموانع.

فإن الحول والقوة لله تعالى وبه. كمثل يوم بدر، الذي أعزَ الله تعالى فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين على قلة عددهم وعتادهم، وكثرة عدوهم واستعدادهم. وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بذلك النصر العظيم. حيث قال جَلَّ شأنه ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

فَيُذَكِّر اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين بما امتن عليهم يوم بدر من نعمة النصر مع قلة عددهم، وكثرة عدد عدوهم ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وهي جملة مستأنفة، سِيقَتْ لتصبيرهم، بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر.[١] فقد نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم بدر مع قلة عددهم ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ وسماهم الله تبارك وتعالى أذلة لقلة عددهم أمام عدوهم، إذ كانوا ثلاثمائة نفس وبضعة عشر، وعدوهم ما بين التسعمائة والألف[٢] فكانوا بسبب قلتهم أذلة، ولم يكونوا في أنفسهم أذلة، بل أعزة، وإنما استعير جمع الذليل لقلتهم[٣] مما يبين عملياً: أن الأسباب وإن ضَعُفَتْ فلا قوة تستطيع أن تُواجه ضعفها عند توفيق الله تعالى ونصرته وتأييده. فيأمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، وتشكروه على ما مَنَّ به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق. فإن التقوى سبيلٌ إلى شكر الله تعالى والثناء عليه. وهنا تظهر العلاقة الترابطية بين تحقيق التقوى وحصول الشكر والحمد والثناء على الله تعالى.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٧٨/١)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٦)
(٣) المرجع السابق (١٨/٦)

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وإن تصبروا وتتقوى لا يضركم كيدهم شيئاً، وينصركم ربكم، ولقد نصركم الله ببدر على أعدائكم وأنتم يومئذٍ أذلة، بمعنى قليلون. في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم. وأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله تعالى ينصركم كما نصركم ذلك اليوم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، وتشكروه على ما مَنَّ به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم[1]

فتلك موعظة من الله تعالى للمؤمنين. مما يفيد أهمية المواعظ المتضمنة للتذكير بالنعم، بما يتناسب مع الحال، لأن للتذكير أثر بالغٌ في النفوس المتلقية له. وأن بعض النفوس قد تضعف، وتحتاج إلى المزيد من التقوية بالمواعظ المناسبة لواقع حالها.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من التفصيل عن نَصْرِهِ لِنَبِيّه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين كانوا معه يوم بدر. وقد شق على الصحابة ما نما إلى علمهم من أن كُرْزَ بن جابر الْمُحَارِبِي يريد أن يمد المشركين ببدر[2] ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ فبينت الآية الكريمة مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله تعالى عنهم بما وعد الله تعالى بالإمداد من الملائكة للقتال مع المؤمنين. وفي هذا ما يفيد أهمية القوة للعزيمة حتى تمضي قُدُماً، وأهمية القائد في بث روح العزيمة. وقبل ذلك توفيق الله تعالى وقدرته، وأن للملائكة قدرة قتالية. وأن لله تعالى جنود السماوات والأرض، وأنه إذا أراد نصر عبده أو أُمَّتَهُ فإن جنوده سبحانه وتعالى لا يحصيهم أحدٌ من خلقه، وسواء كان ذلك عدداً أو نوعاً أو كيفية، فالرعب من جنده، والشجاعة من جنده، ورباطة الجأش من جنده، وقتال الملائكة من جنده. وإذا أراد هزيمة أحدٍ أو أُمَّة أو جند فلا يعجزه ذلك سبحانه وتعالى. مما يوجب طاعته وسؤاله، والاستعانة به، والالتجاء إليه، والتوكل عليه. فهو القوي العزيز.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١٦)

(٢) المرجع السابق (٦/٢٠-٢١)

وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بمخاطبة أصحابه كما في قوله تعالى ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ وفي جملة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ ﴾ أسلوبٌ إنكاريٍ لتأكيد النفي، بأنه يكفيكم ذلك المدد من الله تبارك وتعالى، وهو كذلك أسلوب استفهامي بغرض تقرير حقيقة كفاية عدد الثلاثة آلاف من الملائكة المناصرين لكم. وفي ذلك استحثاث وتشجيع بحقيقة وعد الله تعالى الذي لا يُخلف الميعاد. وقد أَمَدَّ الله تعالى نبيه والمؤمنين بما وعد.

ولهذه الأساليب الخطابية والبيانية الأثر الكبير والعظيم على النفس البشرية، وعلى التجاوب والتفاعل مع مضمونها، بما يؤكد ويفيد أهمية الأسلوب الخطابي في تراكيبه اللفظية وصياغته الخطابية، ليكون له الأثر البالغ في نفس المتلقي له. وإن كان خطاب الله تعالى لا يدنو منه خطاب المخلوقين ولو اجتمعوا، إلا أن إمكانية الإفادة منه متحققة بتوفيق الله تعالى.

ثم يقول تبارك وتعالى مخاطباً المؤمنين ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وابتدأت الآية الكريمة بلفظة ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ وهي جواب إيجاب لما بعد ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ ﴾ بل يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية، ونفى عدم الكفاية. وإن يحصل الصبر والتقوى يمدكم بأكثر من ذلك[1] ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ وهذا يفيد أهمية الصبر والتقوى، وأنها باب المدد والعون من الله تعالى. فمن أراد أن يمده الله تبارك وتعالى بالخير فليصبر وليتقي الله تعالى، ليحصل له العون والتوفيق.

وقد بين الله تعالى للمؤمنين علامة قتال الملائكة بأنهم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي كانت لهم سيماهم وعلامتهم، وقد جاء في كُتُب السيرة النبوية، وفي كُتُب التفسير: أن سيما الملائكة يوم بدر

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٢٣/١)

عمائم بيض، وقيل عمائم سود، ويوم حنين عمائم حُمْر[١] وكان سيماء خيل الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض في أذنابها ونواصيها[٢] ومما جاء في التفسير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن جبريل نزل في ألفين من الملائكة، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وميكائيل نزل في ألفين من الملائكة، عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت عن يساره. وهزم الله أعداءه[٣]

ثم يبين الله تبارك وتعالى أن هذا الإخبار بمدد الله تعالى هو للبشارة، التي تعالج وتحقق طمأنينة القلوب ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ مما يدل على أهمية الطمأنينة للمحارب، وأهمية الأسباب الحسية عند الإنسان، وإلا فإن الله تعالى قادر على نصرهم من دون الملائكة، ولو بتكثير المؤمنين في عيون الكافرين، وبإلقاء الرعب في صفوف وقلوب الكافرين، ولكن لله تعالى الحكمة البالغة. وكذلك يفيد هذا خطورة ما يُضاد الاطمئنان ويُضاد التفاؤل، وهو الخوف والرعب الذي يقود للتخاذل، مما يفيد خطورة بث روح الخوف والجزع، لما لهما من الأثر السيء على معنويات الجند المقاتلين. بل وفي جميع أحوال الإنسان. وبالمقابل أهمية الاستبشار بالخير والنصر والضفر، ورفع المعنويات التي تدفع القلب نحو الاطمئنان.

ثم يؤكد اللهُ تعالى حقيقة قوام النصر، من أنه ليس بالكثرة، بل بتوفيقه وتأييده وعونه بجنوده التي لا يُحْصِيها إلا الله تبارك وتعالى، سواء في عددها أو نوعها، فله سبحانه وتعالى جنود السماوات والأرض. وقد جاء في تمام الآية الكريمة ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فحصر الله تبارك وتعالى النصر من عنده، مما يفيد أن التوفيق هو من الله تعالى، وليس بقوة الأسباب. وأن ضعف الأسباب ليس هو السبب في عدم تحقق الأهداف، بل إن توفيق الله تعالى وراء كل نعمة تتحقق، وأن خذلان الله تعالى وراء كل هزيمة وهدف لا يتحقق. مما يوجب الدعاء والاستعانة بالله عَزَّ وجل، والتوكل عليه جَلَّ جلاله، والأخذ بطاعته مع التحلي

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٠/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥/٢) وأورد الأقوال في ذلك.

(٣) المرجع السابق (٢٦/٢)

بالصبر والتقوى قبل كل شيء، لأنه تبارك وتعالى هو العزيز الذي لا يُغلب ولا يُغَالَب في حكمه، وهو الحكيم في نصره ونُصْرَتِه، وفي منعه وحجبه.

ومن الفوائد كذلك: العلاقة بين النصر وبين عزته وحكمته ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فهو العزيز، صاحب العز المطلق الذي لا يُغلب، وهو يغلب ويقهر ويُعز ويرفع، ولا يُهزم ولا يُغْلَبُ جُنْدُه. فلا يكن النصر خارج عن إرادته، وأن القلة إذا أراد الله تعالى لها النصر انتصرت بِعِزّتِه وإرادته، وإذا أراد للكثرة الذل والخذلان والهزيمة، خذلها بقوته وعزته التي لا تُقْهَر. وهو الحكيم في نصره لمن يشاء، وإذلاله لمن يشاء، فَيُقَدِّر الأشياء والأحداث بحكمته سبحانه وتعالى، وهو أعلم بها وبعواقبها، وما ينبني عليها من خير أو شر. وحكمته باب واسع عظيم من العلم فيما بَيَّنَ تبارك وتعالى.

ثم يبين اللهُ تبارك وتعالى الحكمة من النصر للمؤمنين، وهزيمة الكافرين يوم بدر ﴿ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ فقد نصركم الله تعالى ببدر ليهلك ﴿طَرَفٗا﴾ أي: فريقاً من الذين كفروا ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ ﴾ فيخزيهم بالخيبة مما طمعوا ورجوا من الظفر بكم. فيرجعوا عنكم خائبين، إذ لم يصيبوا منكم شيئاً مما رجوا أن ينالوه منكم.[١] ومن دقائق البيان القرآني الكريم أن القطع ليس لكل الكافرين، بل لطرفٍ منهم. وهم المخصوصون ببدر.

ثم يبين اللهُ تعالى أن الحكم له في الدنيا والآخرة ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ وقد جاء في صحيح البخاري رحمه الله تعالى: أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع، من الركعة الآخرة من الفجر يقول: اللهم العن فلانا، وفلاناً، وفلاناً. فأنزل الله تعالى ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾[٢] وعن أنس رضي الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٤١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣/١٠٧) برقم (٤٠٦٩)

عنه: شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ، فقال (كيف يُفلحُ قومٌ شجوا نبيهم؟) فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[١] وقيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هَمَّ أن يدعو على المشركين، فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فليس لك أيها النبي شيء غير ما أُمِرْتَ به. فالأمر كله لله تعالى فيما يقضي ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ مما هم فيه من الكفر، فيهديهم بعد الضلالة. ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم. ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي يستحقون ذلك.[٢] أي: فإن عذبهم فبما يستحقون.

فإذا كان هذا النفي لرسوله صلى الله عليه وسلم، بأن ليس له من الأمر شيء، فكيف ببقية الخلق. مما يُوجب أهمية الأدب مع الله تعالى في خلقه، وأن يدرك المسلم أن الأمر كله لله تعالى، هداية وتوفيقاً، ومغفرة وعذاباً، وخاتمة وسيرة، وبدأً ونهاية. ورزقاً وتقتيراً، ورفعة وخذلاناً. فمن اهتدى فبتوفيق الله تعالى، ومن هو على معصية فقد يرجع ويتوب عن معصيته. فاللهم اهدني واهدي اخواني المسلمين لما تحبه وترضاه، ووفقني وإياهم لكل خير، وثبتنا على دينك القويم. فلا حول ولا قوة لنا ولا لأحد من خلقك إلا بك، ولا توفيق لنا ولا لأحد من خلقك إلا بفضلك وحدك لا شريك لك.

وفي قوله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ قاعدة عملية في تهذيب النفس، وكبح جماح استعلائها وتسلطها. وكذلك قاعدة في حُسْنِ تصورها وفهمها لتدبير الله تعالى. والارتقاء بأدبها مع أحكام الله تعالى وحكمته في تدبير ملكوته. وكذلك منهج في إدراك عزة الله تعالى. فإذا رأى المؤمن خلاف ما يتوقع من تدبير الله تعالى وقضائه، قال لنفسه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ وإذا أدَّب أو وعظ ونصح ولم يُستجاب له، قال لنفسه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٠٧/٣) باب (ليس لك من الأمر شيء)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٠/١)

﴿ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذا خالفه غيره في صواب بعد البيان، قال لنفسه ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذا رأى من نفسه استعلاء على غيره بنعمة، هذبها بقوله ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذا تأمل تفاوت خلق الله تعالى، هذب نظرته في حكمة الله تعالى بقوله ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذا رأى طائعاً لله تعالى، وهو قليلُ الحال، قال سبحان الله العظيم، وتأدب بقول العزيز الحكيم ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذا رأى عاصٍ لله تعالى، قد وسَّع اللهُ تعالى عليه رِزْقَهُ، قال الْمُلْكُ لله تعالى، وتأدب بقوله عَزَّ وجل ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ وإذ رأى من الناس معترضاً على شيء من تدبير الله تعالى وعظه بقوله عَزَّ في علاه ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ فيكون هذا التوجيه الإلهي قاعدةٌ مُصْلِحَةٌ للنفس، ومهذبة للفكر، ومؤدبة للفؤاد واللسان. فلا يُسأل عَمَّ يفعل وهم يُسألون. كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾

وبعد هذا النفي من أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم شيء من الأمر، يُثْبِتُ الله جَلَّ وعلا لنفسه كمال الملك، وأن جميع الأمور في السماوات وفي الأرض إليه وله وحده لا شريك له ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإن لربكم مُلك جميع ما في السماوات والأرض.

ثم بين سبحانه وتعالى أن المغفرة والعذاب له سبحانه وتعالى ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن من صفته سبحانه وتعالى اللازمة والمتلازمة لربكم جَلَّ في علاه هو كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتها في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة[١] فأثبت تبارك وتعالى لنفسه المغفرة لمن يشاء، والعذاب لمن

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٦٨/١)

يشاء. فتكون المغفرة لمن تاب وآمن، وأن العذاب لمن استكبر وأصر على كفره. ثم إن الله تعالى بعلمه السابق يعلم بما سيكون عليه العبد وبما سيُقدِمُ عليه، من حُسن الخاتمة أو غيرها، فقد أسلم بعض ممن قاتل مدافعاً عن الشرك والمشركين، وصاداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فقد أسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. فلله تعالى الملك الكامل والعلم الخالص بخلقه، وبما سيكونون عليه في مستقبل أمرهم. فاللهم احفظنا بحفظك وتولنا فيمن توليت من عبادك الصالحين.

ومن رحمته تبارك وتعالى تأكيده لمشيئته بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ربكم مُتَّصف بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، مهما كانت ذنوبه، فيفتح باب الرجاء لعباده بالمغفرة والرحمة، فيدعوهم للتوبة من الذنوب مهما كان حجمها، فإن الله ربكم ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فتوبوا وعودوا إلى ربكم عَزَّ وجل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

يتوجه الخطاب الكريم من رب العالمين إلى المؤمنين بما يجب تركه من خصال الشر، وما يجب التحلي يه من خصال الخير. وقد ابتدأت الآية الكريمة بمناداتهم بخصال الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: كل ما في القرآن من قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي. لأن الإيمان هو: التصديق الكامل، بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح[1] مما يفيد أن الإيمان هو الركيزة الأساسية في بناء الإنسان الصالح، وأن الإيمان هو الأساس الذي تُبنى عليه بقية الأعمال والأركان، فبقوة الإيمان يتقوى المؤمن على فعل الطاعات وترك المنهيات. فهو القاعدة الرئيس لبناء الإنسان في جميع المطالب والخصال، وهدم وإزالة منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

وقد سبق بيان المزيد من فوائد نداء الله تعالى للمؤمنين بهذه الرتبة العظيمة الجليلة فيما تقدم من هذه السورة، وكذلك في سورة البقرة.

فهذه آيات كريمة، فيها بيانٌ وموعظةٌ وهدايةٌ للمؤمنين، ليتوقف بها عرض ما يتعلق بغزوة أحد، ومن ثم يتم الاستئناف عن الغزوة بعد هذه المواعظ الكريمة من رب العالمين. ولعل من فوائد هذا التوقف، أهمية المضمون الذي توقف من أجله تسلسل أمر الغزوة، وكذلك ما يحصل بالانقطاع من التشويق لمعرفة تمام الغزوة، وفي هذا الانقطاع بيان على أهمية هذه التوجيهات الربانية في النصر والتمكين، إذ انقطع بها تسلسل أمر الغزوة المباركة، وليعلم المؤمنون أن في القيام بمضمون هذه الموعظة ما يحقق الخير في مواطن الحياة المختلفة، والتي منها ملاقاة العدو، وكذلك ما سيجده المؤمن في آخرته عند الله تبارك وتعالى من جزيل الأجر العظيم.

وقد بدأ التوجيه الرباني بمعاملات الربا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ فهذا النهي مرتبط بما قبله من النداء بصفة الإيمان، بما يفيد أن موجبات الإيمان تستلزم منكم الاستجابة لأمر النهي عن أكل الربا. مع تصويره بأبشع ما فيه من صور الجشع والجبروت الذي يقع على من لا يستطيع أن يدفع ما عليه عند حلول الأجل. فإن الدائنُ يُضَاعِف على المدين زيادة الدين، مقابل التأجيل لوقت وزمن قادم. فيزداد المدين مشقة على ما به من

[1] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٢٧٠)

المشقة التي قد حالت بينه وبين سداد ما التزم به من السداد، فألزمته الحاجة والفاقة إلى قبول المزيد من تراكم الدين عليه، وما يتبع ذلك من تراكم شدائد الدين ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ وهذا مخالف لمنهج الإسلام القائم على الإحسان والتعاون على البر والتقوى، بالإقراض والتيسير على المعسر، والنظرة إلى ميسرة، والصدقة منه على المنتفع به من المحتاجين. لأنه منهج رباني قائم على الرحمة بين الناس في تعاملاتهم، فكانت الموعظة مُبْتَدِئة بالنهي عن الربا الذي تم إظهاره في أبشع صوره. وهذا يؤكد ويبين عناية الإسلام بالمقاصد التي تحقق المصالح والتراحم والترابط، وأنه ينهي عن الجشع والقسوة واستغلال حاجات وعوز الناس. فهو دِينُ الرحمة من الرحمن الرحيم.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فجاء الأمر بالتقوى بعد النهي عن الربا مباشرة، لما في التقوى من ضبط النفس والوقوف عن ما نهى الله تعالى عنه. فالتقوى تستوجب ترك الربا في جميع صوره وأشكاله. ثم إن التقوى تؤدي وتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، والذي هو الفوز بثوابه، الموصل إلى مرضاته وجناته سبحانه وتعالى.

ثم يتكرر الأمر بالتقوى مع التحذير ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فالأولى الأمر بالتقوى ليتحقق بها الفلاح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والثانية: التحذير المقيد بالنار التي أعدت للكافرين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فهذا وعيد تحذير. وذكر ابن الجوزي قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذا تهديد للمؤمنين، لئلا يستحلوا الربا. قال الزجاج: اتقوا أن تحلوا ما حرم الله فتكفروا[١] مما يبين شدة النهي والزجر. حتى أورد الله تعالى لزوم التقوى بالتحذير من النار التي أعدها عَزَّ وجل للكافرين. لإظهار المبالغة في النهي، وأنه لا يقوم بالربا إلا أهل الكفر الذين استحقوا عذاب النار.

وتبين الآية الكريمة أن النار أعدت للكافرين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وبالمقابل أن الجنة أعدت للمؤمنين، مما يفيد الحذر مما أعد للكافرين من العذاب بسبب التهاون

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٨)

والجرأة على أوامره ونواهيه عَزَّ وجل. ثم الدخول في المعاصي وكبائر الذنوب بسبب هذه الجرأة. وفي هذا غاية الزجر والنهي.

وفي تتابع الأمر بالتقوى، ما يفيد أهمية الموازنة بين الترغيب والترهيب في الموعظة وفي التربية وفي الدعوة وفي كل مجال وأمر يقتضي ذلك. فإن هذا الأسلوب الرباني الكريم يُعَلِّم أهل الإسلام حقيقة التوازن في أدق مجالات ومواقف التوجيه والإرشاد والتعليم والتحذير.

ثم ينتقل التوجيه الكريم ولموعظة الإلهية إلى وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ أي: فيجب عليكم أيها المؤمنون طاعة ربكم، والاستجابة فيما نهاكم عنه من الربا، ثم عطف على طاعته عَزَّ جل طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ وجاء الأمر بالطاعة لله جَلَّ جلاله ولرسوله صلى الله عليه وسلم مطلقاً، فليس للمؤمن غير ذلك. ثم تبين الآية الكريمة مآل الطائعين ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ فإن الرحمة تتحقق بحصول الطاعة والامتثال لله تعالى ولنبيه صلى الله عليه وسلم. والرحمة من الله تعالى إنعام وإفضال في الدنيا والآخرة على من يرحمه الرحمن الرحيم. فهي جامعة لخصال البر والخير والإنعام. فاللهم ارحمني وارحم إخواني المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن دقائق البيان ورود تحقيق تحصيل الرحمة بالترجي ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ الذي يُظهر الرجاء منهم في ربهم أن يرحمهم بطاعتهم وامتثالهم لربهم عَزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي الندب والحث على المسارعة والمبادرة في فعل الخيرات ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ وهنا جاء التوجيه الرباني بالمسارعة التي تقتضي المبادرة، وعدم التريث والتراخي، فضلاً عن الانقطاع تارة، أو التوقف أحياناً، أو التسويف بالتشاغل. ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ فالمسارعة تستوعب جميع ما يقتضي متطلبات المبادرة وعدم التأجيل، وبكل ما يحقق ويُوجب حصول مغفرة الله تعالى للعبد.

وقد جاءت المسارعة للمغفرة أولا ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ثم جاء ترتيب الجنة ثانياً ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ مما يفيد أن مغفرة الله تعالى أساس لدخول الجنة، فمهما عمل الإنسان من طاعة فإنها لم تستوف حقوق الله تعالى عليه إلا برحمته ومغفرته.

كما يفيد السياق البياني: أنه تم تحديد الهدف الذي يُراد الوصول إليه، وهو مغفرة الله تعالى وجنته. ولم تُحدد ما يُسارع به للمغفر والجنة، لتستوعب مجال ومساحة المسارعة جميع ألوان المبادرة ومضامينها المتنوعة بتنوع الطاعات، والتي قد تتفاوت من واجب ومندوب ومباح، وبحسب طاقة الفرد ووسعه، وواقع الحاجة وحجمها، وما يقتضه واقع الحال. ولذلك استوعب النص القرآني الكريم جميع المعاني التي ذكرها الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فقد أورد ابن الجوزي، رحمه الله تعالى. أنها عشرة: الإخلاص، أداء الفرائض. الإسلام. التكبيرة الأولى من الصلاة. الطاعة. التوبة. الهجرة. الجهاد. الصلوات الخمس. والأعمال الصالحة.(١) فليتأمل المؤمن كيف استوعب هذا البيان الكريم جميع هذه الدلالات، والتي أعمها: الأعمال الصالحة التي لا حصر لها من أعمال البر. وهذا من بلاغة القرآن الكريم في استيعاب النص أو اللفظة لكل أجزاء وأنواع لمراد، فتكون وقد وسعت مراد رب العالمين، فما ضاقت عنه ولا به آية ولا لفظة. فسبحان من استوعب كلامه مراده بكل التفاصيل.

وقد تضمنت الآية الكريمة بيان سعة الجنة، من خلال وصفها بما يعرف ويُدرك معه القارئ والسامع أنها عظيمة السعة، لا يمكن أن يتصور حجمها، حيث قال تعالى عن سعتها ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تُقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض، كما تُبسط الثياب، ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله. وهذا قول الجمهور(٢) فتم بيان عرضها بما يحسه ويشاهده الْمُخَاطَب،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٣١)

مع أنه لا يستطيع أن يحيط بمسافة عرض السماء، كما أنه لم يذكر سبحانه وتعالى طولها. لإفادة المبالغة في سعتها، فسبحان الله الذي له كمال الملك.

ثم بينت الآية الكريمة مُستحِقي هذه الجنة، بأنهم أهل التقوى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وجاء هذا الترغيب بها، بعد التحذير من النار ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ وقبلها كان الأمر بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فليتأمل المؤمن: كيف جاء الأمر بالتقوى، ثم الأمر باتقاء النار، ثم جاءت البشارة لمن اتقى. فهو انسجام بياني، وترابط توجيهي، غاية في دقة السبك والبيان، والجمال في محاسن تراكيب الكلام، مع المراعاة في قوة التأثير والوعظ والإرشاد. وقد اجتمعت فيه الدلالات المؤثرة تربوياً ونفسياً، والموجهة للسلوك والتطبيق ترغيباً وترهيباً، بل وداعية للمُخَاطَب باستيعاب مقدار ومنزلة التقوى من خلال الجنة التي أعدت للمتقين. اللهم ارزقني وإخواني المسلمين التقوى.

وهذه الآية الكريمة قاعدة تربوية عملية لاستنهاض الهمم نحو جميع أنواع الخير والفضل والطاعة. فإذا تكاسلت النفس عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، استنهض قوته بقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا بخلت النفس بما يمكن أن تجود به من معروف في طاعة الله تعالى، استحثها نحو البذل والجود والكرم بقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا استهوت النفسُ شيئاً من المعاصي كبح جماحها وشهواتها عن الغي والفساد بقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا رأى غيره بمثل ذلك وعظه بقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ

وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ لتكون هذه الآية الكريمة قوة يستقوي بها المؤمن على طاعة الله تعالى في أوجه البر والخير كله، ويكبح بها هوى النفس عن ما لا يجوز لها.

ثم تلى ذلك بيان أعمال المتقين الذين قد أُعدَّت الجنة لهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾ فإن من أعمال المتقين: الإنفاق ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وقد ذكر تعالى أحوال المتقين حين الإنفاق على حالتين: الأولى: الإنفاق ﴿ فِي ٱلسَّرَّآءِ ﴾ التي تمثل الرخاء والسعة والصحة والنشاط والقدرة. وهي المتضمنة لحالة الاستشراف والتطلع للمستقبل بما يملك، ومخافة نقصه وقصوره عن تحقيق مطمعه إن نقص منه شيء. والحالة الثانية: الإنفاق حال ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وهي الحال التي تمثل الشدة، والضيق والمرض، وضعف القدرة وقلتها، وهي الحالة التي يطمع فيها المرء ويمسك مخافة حصول الفاقة والقلة. ففي كلا الحالتين التي يعيشها المتقي يكون منفقاً معطاء على قدر ما يستطيع، بعيداً عن البخل والقتر، وذلك لعلمه وليقينه بأن الله تعالى هو الذي أعطى، وهو الذي يُخلف عليه بما أنفق، ولأن الله تبارك وتعالى يُحب منه ذلك في كلا الوجهين، فامتثل لله تعالى فيما يحب، وقدم ما يحبه الله تعالى من العطاء على ما تحب النفس وتميل إليه من الإمساك، خاصة في حال الشدة والقلة.

ومن عظيم فوائد البيان القرآني الكريم أنه لم يحدد هنا مصارف الإنفاق، لتستوعب جميع أوجه مصارف الإنفاق وأحواله المختلفة، التي يحبها الله تعالى، والتي بينتها شريعته من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولم تُحدد كذلك نوع الإنفاق ومقداره، ليستوعب التوجيه البياني الكريم جميع أنواع الإنفاق، من المطعم والمشرب والمركب، والمال والعلم، وغيرها من أنواع ما يُنفق من النفقة. ولم يحدد مقدار ذلك، ليحصل التنافس، وتتحقق المسارعة في النفقة بالمقادير التي لا حصر

لها. وليستوعب كذلك اختلاف القدرات، فسبحان من استوعب كلامه جميع مراده، بأدق البيان وأبلغه: لفظاً ومقصداً وغاية. فعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقه من جنه وإنسه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر من أعمال وأحوال المتقين، وهي أعمال القلوب، التي ينعكس أثرها على السلوك، فقال تعالى ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ وهم الذين يكتمون أثر الغيظ والغم والحزن، فيمسك ألمه وغضبه عن الظهور، فيحجبه متكتماً عليه، وهو قادر على إظهاره، ولكن يتحفظ عليه في جوفه، ويدفعه عن الخروج والظهور بجميع طاقته وقدرته، وبأي صورة كانت. حتى يظهر لغيره كأنه لم يتأثر بما حصل له مما يستوجب الفعل أو القول المعبر عن ذلك الغيظ. فإنها تحمل صورة قوية من التدافع النفسي المثير، والتي إذا تعودها المرء مكنته من حفظ توازنه، وأمسكته عن شر الغضب. فإن الغيظ أصل للغضب، ومُشعلٌ له. فمن كظم غيظه، ضبط غضبه، وتحلى بمكارم الصبر.

ثم بين تبارك وتعالى نوعاً آخر من أعمال وأحوال المتقين وهو العفو عن الناس ﴿ وَٱلْعَـٰفِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو خُلُق المسامحة عن الحقوق التي للمرء على غيره، فيتنازل عن حقه، رغبة في ثواب الله تعالى. ولم يقتصر العفو على نوع معين من الحقوق، بل جاء عاماً، ليستوعب جميع أصناف العفو التي لا حصر لها. وهذا يدل على أن منهج الإسلام هو منهج أخلاق، رفيع في مستواه ومكانته، بل ويرتقي بسلوك المؤمن إلى أفضل وأعلى درجات الكمال البشري. مما يدل على أن منهج الإسلام قائم على التواد والملاينة بين أفراده فيما بينهم ومع غيرهم، بما يجذب غيرهم للإسلام بهديه وسماحته. بل من مزيد الفوائد: أن الله تبارك وتعالى بحكمته لم يحصر العفو بين المسلمين، بل قال ﴿ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ ليشمل ذلك جميع أنواع الناس.

فهذه الخصال هي من الإحسان، والتي تُمثل المحسنين الذين يحبهم الله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنها اشتملت على الإحسان للغير بالفعل والجود وضبط النفس، وكبح جماحها عن ما يُفسد العلاقات والحياة الاجتماعية. فجاءت العلاقة بين الإحسان وتلك الصفات في تجانس بين الفعل وصفاته، وبين المتمثل به وما يتصف به، وبين من يتمثل به وبين ما يستحقه من وصف الإحسان، الذي يحبه الله تعالى ويحب من يتصف به.

ثم إن الله سبحانه وتعالى رفع من مكانة الإحسان والمحسن، وذلك بمحبته له عَزَّ وجل، فأي درجة ومثوبة وميزة أعظم من هذه الميزة والمنقبة العظيمة، أن ينال العبد محبة الله تعالى له، وأن يوصف بما يحبه الله تعالى من الإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهي قاعدة عظيمة في تربية السلوك والقلوب على الإحسان. وأنها منهجية عملية ووقائية وعلاجية وإنمائية دافعة للخير لمن أخذ بها في حياته. فكلما رأى المسلم وجهاً من أوجه الإحسان بادر وسارع إليه وهو يخاطب نفسه ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن تخاذلت النفس عن إتيان الخير أخذاً وبذلا، انتصر عليها وعالجها بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن رأى في نفسه توانياً وكسلاً، أو طمعاً وبخلاً، أو جُبناً وخوفاً من نقص يدفعه إلى الخير، استدفع نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن رأى غيره من القادرين قد امتنع عن وجه من أوجه الإحسان وعظه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لتكون هذه ركيزة وقاعدة ووَقُوداً لفعل الخير، ومنهجية مانعة للجبن من فعل الخير، فيكون بإذن الله تعالى وقوته من المسارعين في الخيرات، والمتجاوزين للتراخي عن تحصيل وبذل الخير. اللهم اجعلني وإخواني المسلمين من المسارعين في الخيرات يا ذا الجلال والإكرام.

ثم جاء الوصف الحكيم والسياق العظيم من الله رب العالمين إلى بيان الشأن المتعلق بسلوك الإنسان مع نفسه. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فأول الفوائد: أن الله تعالى لم ينزه الإنسان من الوقوع في الإثم ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ وهذه من رحمة الله تعالى، بل أثبت ما يمكن أن يحصل من المؤمن، ولكن صفة المتقين وأحوالهم تجعلهم إذا وقع من أحدهم الإثم على

سبيل الندرة يذكرون الله تعالى، فيستغفرون ربهم وخالقهم من ذنوبهم التي وقعوا فيها ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾

وذكر الله تبارك وتعالى مجمل ما يقع من الذنوب في صفتين: الفاحشة، وظلم النفس. والفاحشة هي الفعلة القبيحة الخارجة عَمَّا شرع اللهُ عَزَّ وجل. وأصل الفُحش: القُبحُ، والخروج عن الحد.[١] وكذلك هي الفعلة المتزايدة القبح[٢] وقيل أنها الزنا، وأنها كل كبيرة[٣] فاشتمل واستوعب الْفُحش: الذنوب والمعاصي المختلفة المتزايدة والمتعاظمة في القبح. وهذا من بلاغة كلام رب العالمين في كتابه القرآن الكريم. وأما ظلم النفس فهو الذنب الذي يُؤَاخَذ به المذنب[٤] وقيل أنها الصغائر[٥] وبهذا جمع الوصفان اللذان هما: الفاحشة والظلم، عظائم الذنوب وصغائرها. ففي لفظتين: اجتمعتا فيهما أنواع الذنوب ومقاديرها المختلفة. وهذا بيان بلاغي إعجازي في كتاب الله تعالى.

ولكن من صفات المتقين أنهم عندما يقعون في شيء من تلك الذنوب، يتذكرون الله تعالى، فيدفعهم ذلك إلى سرعة الاستغفار ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ فسرعة ذكر الله تعالى تجعلهم يستعجلون الاستغفار، لمعرفتهم بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وهذا سؤال استفهام تقريري، يقرر به الله تعالى أنه ليس هناك أحدٌ يغفر الذنوب إلا الله تعالى. فهل هناك أحد يستطيع أن يغفر للعباد ذنوبهم فلا يحاسبهم، ففي هذا السياق شد الانتباه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١/٦)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٢٨/١)

(٣)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٢)

(٤)الزمخشري، الكشاف (٤٢٨/١)

(٥)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٢)

لعقل الإنسان بأنه ليس هناك من يستطيع مغفرة الذنوب إلا الله تعالى، فانحصرت الإجابة، وتنحصر المغفرة في الغفور الرحيم سبحانه وتعالى. اللهم اغفر لنا وارحمنا يا أرحم الراحمين.

ومن مزيد الفوائد: أن المتقين كثيري الذكر لله تعالى، فإنهم يتذكرونه عَزَّ وجل عند أعمالهم وأقوالهم، فيتوقفون عن المعاصي. كما أن كثرة ذكر الله تعالى، تُعَجِّل بالْمُذْنِب إلى الاستغفار، وبالتالي لا يتمادى في الذنوب، بعكس اللاهي عن ذكر الله تعالى وطاعته، فإن لهوه يشغله عن ذكر الله تعالى. وهذا يدل على أن مغفرة الله تعالى هي الطريق لدخول الجنة، وهذا يؤكد أهمية الاستغفار والمحافظة عليه، وقد جاء في الآية الكريمة صفة كريمة في المتقين، وهي عدم الإصرار على الذنب ﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فلا يتعمدون إتيان الذنوب بالإصرار والعزم بالقلب على فعلها، وترك الإقلاع عنها. وبمثل ذلك ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى[1] وبهذا فإن معنى عدم الإصرار يدل على أنه لم تكن هناك عزيمة قلبية سابقة لفعل الذنب. وإنما يقع في حينه، مع عدم سبق الإصرار عليه. فلم يتعمدوا ويثبتوا ويعزموا على ما فعلوا، ولا يقيمون على الذنوب التي تحصل منهم، وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا. فلا يعمدون ويتعمدون المعصية. بل إنهم غير مُصرّين على الذنوب وهم يعلمون قبحها، بنهي الله تعالى عنها، ووعيده على فعلها. فلم يستمروا على المعصية غير مقلعين عنها.

مما يفيد أن المرء قد يقع في الذنب دون إصرار، لغفلة أو لحالة ضعف طارئ من غير تعمد وإصرار، فبذكره لله تعالى يترفع عنه ويقلع عن المعصية، تائباً لله تعالى ومستغفراً لذنبه الذي وقع منه. ولَمَّا أن معنى عدم الإصرار يدل على أنه لم تكن هناك عزيمة قلبية سابقة لفعل الذنب. وإنما يقع في حينه، مع عدم سبق الإصرار عليه. فإن ما يؤكد هذا هو قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً) فدلالة ﴿إِذَا﴾ تفيد المفاجأة. والمفاجأة تفيد عدم الديمومة، وكذلك غير المتوقع. فكأنه تفاجأ بما حصل منه. فأفاد حرف ﴿إِذَا﴾ أنه إن حصل منهم الفاحشة أو الظلم. فهو على سبيل الندرة. وليس على سبيل الديمومة والإصرار. فليس لهم عادة في اغتراف الذنوب، وليس نهجاً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٦)

لهم. وإنما يجتهدون في الابتعاد عنها، غير أن الطبيعة البشرية لا تخلو من الزلل، وأن الفارق بينهم وبين غيرهم هو عدم الإصرار على الذنب. والله تعالى أعلم.

ثم بين تبارك وتعالى جزاء هؤلاء المتقين الموصوفون بتلك الصفات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ فاشتمل ثواب وجزاء رب العالمين للمتقين المتصفين بتلك الصفات: المغفرة منه تبارك وتعالى على ذنوبهم، وكذلك دخول الجنة التي تجري في أسافِلِها وخلال أشجارها الأنهار، جزاء لهم على صالح أعمالهم، وأن من عظيم خصائص الجنة الخلود ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فإن مقامهم مقام دائم في هذه الجنات العظيمة، لا ينقطع ولا ينتهي أبداً.

وقد ختم الله تبارك وتعالى الآية بالثناء على أجر وثواب الجنة، لما فيه من عظيم النعيم المقيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ فأعظم به من ثواب وأجر للعاملين بطاعة ربهم جَلَّ جلاله. وكذلك يتضمن هذا المدح والثناء التنويه بأعمال المتقين ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ فدلالة ﴿ أَجۡرُ ﴾ تفيد الثواب، ودلالة ﴿ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ متضمنة للعامل والعمل، إضافة إلى الثناء على الأجر بدلالة ﴿ وَنِعۡمَ ﴾ الذي يستوفي كمال الثناء على هذا الأجر الذي هو الجنة ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ فتضمنت أربع مقاصد بجملة قصيرة واحدة، وهذا من دقة وبلاغة كلام رب العالمين في كتابه القرآن الكريم. وهو الإيجاز في غير إعجاز مع تمام البيان وكمال المراد.

﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ
ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

ثم تنتقل الموعظة تدريجياً إلى بيان حال المكذبين من الأمم التي قد مضت، بما يعزي المسلمين عن يوم أُحد. لما في ذلك من العبر. وقد استهلت الآيات الكريمات ببيان ما سبق للأمم من جروح الحروب والقتل، وذلك أنه لَمَّا أُصيبوا يوم أُحد، وقُتل منهم سبعون تأثر المسلمون بما أصابهم، فكان هذا البيان تسلية لهم عما أصابهم، وحتى يدرك المسلمون عموماً سنن الله تعالى بما مضى من أحداث الأمم السابقة. فبين العليم الحكيم حال من سبقهم من الأمم. فقال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ فقد جرى نحو هذا على الأمم التي كانت من قبلكم، من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين[١] والسنن عموماً هي: الطرائق والشرائع. فهي الطرائق في الكفار بإمهالهم، ثم أخذهم[٢] مما يفيد أن المداولة التي حصلت في أحوال من سبق من الأمم مع أنبيائهم، هي من شرائع وسنن الله تعالى في خلقه. فإن الأمور لا تكون على وتيرة واحدة، بل تتقلب بحكمة الله تعالى، وبما يقتضي تقديره عَزَّ وجل وحكمته من الدلالات العظيمة الحكيمة على جميع الأوجه، بل وحتى في عموم حياة الإنسان. وهذا يعطي المسلم قدراً من الاطمئنان النفسي في النتائج، وأيضاً يعلمه أن الحكم لله تعالى، وكذلك يعطي المؤمن قدراً كبيراً من التفكير والإفادة من سُنن الله تعالى التي مضت عبر التاريخ في حياة البشرية، من النصر والفوز والهزيمة، أو من التمكين أو التراجع، وكذلك تقلبات وتداول الأيام والأحداث في جميع أنواعها ومجالاتها وأوجهها. لتكون مدرسة للمؤمنين، فيتعلمون من أقدار الله تعالى وحكمه وحكمته ما يثبتهم ويعينهم على فهم الحياة الدنيا.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٧/١)

(٢) تفسير الجلالين (٦٧)

ولذلك وجَّه عزَّ وجل المؤمنين بقوله تبارك وتعالى ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فامشوا وسيروا في الأرض، وتأملوا فيما حصل لمن سبقكم. وفي هذا تسلية وتعليم للمؤمنين، من أن الله تبارك وتعالى قد يؤخر أمر هلاك وهزيمة المكذبين الجاحدين، فيمهلهم لوقتهم الذي أَجَّلَه لهم، والذي ينصر اللهُ تعالى فيه المسلمين، ويقطع دابر الكافرين، فالأمر كله لله تعالى. وهذا يعلم المؤمنين أن انتصار الباطل أحياناً، لا يعني العاقبة النهائية الختامية، بل له أوجه وغايات حكيمة من لدن عزيز حكيم. فيلزم المؤمنين إدراك ذلك، وهو الأمر والشأن الذي يُبنى على مقتضياته الفهم والعلم ولحكمة التي يريدها ويحققها سبحانه وتعالى. فانظروا وتبصروا يا أيها المؤمنون كيف كانت عاقبة من كذب الرسل ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فقد كانت الهزيمة والذل والصغار للمكذبين الجاحدين.

ومن عظيم فوائد ودلالات قوله تعالى ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أهمية السير في الأرض مع التأمل في ابتغاء الحكمة في كل شأن وأمر، ومن ذلك أحوال من سبق من الأمم. فامشوا في الأرض وتأملوا فيما حل بالأمم السابقة، لتكون لكم آية وعبرة وحججاً، وبياناً. فأمر سبحانه وتعالى بالسير في الأرض للاعتبار ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فتأملوا كيف هي نهاية ومآل الذين كذبوا رُسُلي، بما أصابهم من العذاب الذي حاق وأحاط بهم، فأهلكناهم بكفرهم. مما يفيد أنه سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يريده لهم، ولو أراده لهم لما بعث المرسلين، ولما عذب الكافرين وأهلكهم. وقد أفادت دلالة كلمة ﴿ فَسِيرُواْ ﴾ أهمية إنشاء السفر للعبرة التي تحقق للإنسان مصلحته، بل أعظم مصلحة في الدنيا والآخرة، وهي النجاة من النار، ودخول الجنة بالإيمان والاستسلام لله تعالى.

وأفاد الأمر ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أهمية سبر أحوال الأمم، وعقد الأسفار والبحث، من أجل الوصول للحقيقة التي تُنجي العبد من النار، مما يدل على عظمة الإيمان وأهميته، وأنه جدير بأن يتحمل الإنسان المشاق من أجل أن يدرك الحق ويأخذ به، ولو تكبد من أجله الأسفار، وليدرك من وفقه الله تعالى للإسلام أنه قد حصل على الخير العظيم من غير عناء.

وفي دلالة كلمة ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ ما يبين ويُظهر أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى.

كما أن دلالة كلمة ﴿كَيۡفَ﴾ تستثير الذهن ليتصور الإنسان مَشَاهِد الأمم وأحوالها، وما حصل لها من النكاية والعذاب، فلفظة ﴿كَيۡفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور تلك المواقف من الأمم، وما حل بها، فيتأملها ويتصورها وكأنها حادثة أمامه، بل وكأنه يعيش تلك اللحظة. ولفظة ﴿كَيۡفَ﴾ هي حرف استفهام، يتوصل بها إلى الدليل من خلال حال الأمم، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال تلك الأمم، وحال أمته فيما لو أصابها ما أصابهم، أي فكيف يكون حالهم؟ وكيف يصنعون؟ فيما لو حل بهم عذاب الله تعالى كما حل بمن سبق. وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب، والتأمل لموقف سيمر به هؤلاء إن لم ينقادوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع العذاب بهم. إن أسلوب القرآن العظيم يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

فإن عاقبة المكذبين آيات باقية ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ليفيد هذا التوجيه الكريم أهمية بل وجوب أخذ العبرة من الغير، فإنها شواهد وأدلة على قدرة الله تعالى، ووقوع العذاب، وأن الله عَزَّ وجل لا يريد لعباده الكفر. فإن في هذا البيان الكريم دلائل تدل على أن الله تعالى يريد لعباده الخير ولا يريد لهم الكفر.

وهذا يفيد في عموم حياة المسلم، أنه حينما يواجه شيئاً من ظلم الظالمين وما يتحقق لهم من صولات فإنها لحكمة، وأن صولة الباطل قصيرة الأمد، وأن الحياة مداولة بين الحق والباطل، ولكن العاقبة للمتقين، وأن لله تعالى حكمة بالغة في ذلك، يعلمها العليم الحكيم.

ثم يبين الله تعالى فائدة ما أوضحه للمؤمنين ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فإن ما أوضحه لكم ربكم وعَرَّفَه لكم هو بيان وتفسير للناس عموماً إن قبلوه. وأما للمؤمنين فهو هداية دالة على سبيل الحق ومنهج الدين. وموعظة بالتذكير للصواب والرشاد. وفي قوله تعالى ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله جَلَّ ثناؤه المؤمنين، وتعريفهم حدوده، وحضهم على لزوم طاعته، والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم. فهذا الذي أوضحت لكم وعَرَّفْتُكُمُوه هو بيان وشرح وتفسير.[1] وهذا الهدى والموعظة من الله تعالى إنما يستفيد منها المتقون، فيأخذون بها، فينتفعون بما فيها من الخير.

فشمل قوله تعالى ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أمرين عظيمين: أولهما: بيان عام ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: لجميع الناس. والأمر الثاني: خاص بأهل التقوى ﴿ وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فمن كان من أهل التقوى فإنه سوف يتعظ، وأما من كان من الذين لا يتقون، فإنه لن يتعظ. لأن التقوى مركز وثمرة أولي الألباب. مما يبين أهمية التقوى وأثرها على الاتعاظ. والتقوى تشمل الخوف من العذاب، والعواقب، والرغبة في السلامة والنجاة. فالمستكبر والحاسد وصاحب الهوى ليس عنده شيء من ذلك.

فالمتقون ينجذبون إلى بيان الله تعالى وتفسيره للأحداث التي تبين سُنَنَه في خلقه، فيهتدون ويتعظون بمواعظه الكريمة. مما يدل على التجاذب والتفاعل بين من يتقي الله تعالى وبين آياته ومواعظه وبيانه ونهيه وأمره سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن ذلك من علامات التقوى.

ثم يَنْهَى اللهُ عَزَّ وجل المؤمنين عن أمرين ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ فينهاهم تبارك وتعالى عن الضعف والجبن، وعن الحزن لما أصابهم. مما يفيد أن الإنسان بمقدوره بعد توفيق الله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٧٥)

تعالى وعونه أن يتجاسر ويقاوم عوامل الضعف، بالجد والمثابرة والعزيمة، وأن يتغلب على العوامل النفسية القلبية المحزنة، أو الجالبة للحزن.

ثم يدفعهم الله تعالى إلى ذلك ببيان العاقبة والبشارة لهم بها ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فستكون لكم عاقبة النصر والظفر. وبهذا فإن ما يلزم المؤمن في حياته عموماً، وعند التعامل مع العدو خصوصاً ألا يستضعف للموجعات وللمصائب، والأحزان والخسائر، وأن يستدفع الحزن بالأمل والإيمان بالخير من الله تعالى. ويدرك أن الإيمان قوة لمواجهة المصاعب والفتن والمثالب، والخسائر، حيث قال تعالى للمؤمنين ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فأثبت سبحانه وتعالى للمؤمنين العلو والارتقاء ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ واشترط لتحصيل ذلك العلو الإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فالإيمان شرط للعلو والانتصار على المكذبين الصادين عن دين الله تعالى، وهو المقصود به في هذه الآية الكريمة. ويمكن أن يُستفاد من ذلك في مجالات الحياة المختلفة، لأن مصائب الدنيا كثيرة متنوعة، والعلو والانتصار كذلك متنوع في مجالات الحياة، فإن التغلب على المصائب يكون بالتجاسر ومقاومة الضعف والحزن بالإيمان الذي هو القوة التي يستمد بها المؤمن العون من الله تبارك وتعالى.

ثم يبين الله تبارك وتعالى سُنَنُهُ، وأحوال النفس البشرية فيما يصيبها، مما يقوي عزيمة المسلمين بفهم تلك السنن والأحوال ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ والقرح هو: الجراح، وذلك يوم أحد، فقد فشا في أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم القتل والجراح، فأخبرهم الله عَزَّ وجل أن القوم قد أصابهم مثل الذي أصابكم من أعدائكم[1] فهذه المماثلة تُهَوّن على المؤمنين ما أصابهم، بما يفيد أهمية النظر إلى الجوانب الأخرى من المكتسبات التي ترفع من المعنويات، وأن لا يقتصر النظر على جوانب الألم والإصابة، دون النظر لما أصاب

---

(١) المرجع السابق (٦/٨٠-٨١)

الخصم من الخسارة. لأن في ذلك رفع للمعنويات واستحثاث للنفس نحو الاستقواء واجتثاث الحزن واليأس.

بل زادهم الله تعالى بالمزيد مما يدفعهم للصبر والقوة، ويستدفع عنهم الضعف والحزن، فقال جَلَّ ثناؤه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فنجعلها دولاً بين الناس، مُصَرَّفَةً بين المسلمين والمشركين. وذلك أن الله تعالى أدال المسلمين من المشركين يوم بدر، أي نصر المسلمين في بدر. فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين. وأدال المشركين من المسلمين يوم أحد، فقتلوا منهم سبعين، سِوى مَنْ جُرِحُوا منهم[١] وهذا يفيد أن من سُنن الله تعالى المداولة بين الناس، لحكمة يعلمها رب العالمين. ومن علل ذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنما كانت هذه المداولة ليعلم الله تعالى المؤمن من المنافق، فيميز بعضهم من بعض[٢] وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء[٣] والله تبارك وتعالى يعلم ذلك من غير وجود الأسباب الدنيوية، ولكن لتكون أفعالهم شاهدة عليهم. ولأن الله تعالى أجرى الحياة وفق سُنن اقتضاها. فقد جرت سنة الله تعالى بإجراء السنن الكونية والشرعية في هذا الكون وما فيه. فسبحان الله العظيم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى أن من مقاصد المداولة اتخاذ الشهداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي يُقتلُون في سبيل الله تعالى، ويبذلون مُهجهم في مرضاته. ثم يبين سبحانه وتعالى أن انتصار المشركين على المؤمنين لا يعني محبته لهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالله لا يحب المشركين وإن أنال الكفار على المؤمنين، وإن أحل ألماً بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين.[٤] وهذا يعطي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٧٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤١٧)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٠)

فائدة عظيمة جداً، أن ما يصيب المؤمن من كرب، وضائقة، وألم، أو انتصار ظالم وباغ عليه، فإنه لا يعني ذلك أن الله تعالى يبغض المؤمن، فأدال عليه ما أدال من ذلك. بل لله حِكْمَة في فعله وقراره وحُكْمِه، كما اتضح وتبين من هذه الآيات الكريمات من الْحِكَمِ العظيمة.

ثم يبين الله تعالى للمؤمنين: أن مِنْ حكمته ومراده عَزَّ في علاه فيما حصل لهم، هو: أن يمحصهم ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والتمحيص يأتي بمعنى: الابتلاء والاختبار، ويأتي بمعنى: التنقية والتخلص[١] والتطهير. فإذا كان بمعنى الابتلاء والاختبار فيكون ليختبر الله تعالى الذين صدقوا اللهَ ورسولَه، حتى يتبين المؤمن المخلص الصحيح الإيمان من المنافق.[٢] وإذا كان بمعنى التنقية والتخلص والتطهير فيكون ليكفر عنهم من ذنوبهم[٣] ولا تمنع دلالة المعنى أن تشمل المعنين: ليبتلي ويختبر، وأيضاً ليكفر عنهم ذنوبهم، بل إن هذه الشمولية للمعنيين، هي من البلاغة القرآنية الكريمة، والمقاصد الربانية الجليلة، ويدل على ذلك ويقويه الآية التي بعدها.

ثم من مراد الله تعالى بهذه المداولة محق الكافرين ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: ويستأصل الكافرين بالهلاك. والله تعالى لا يخفى عليه حقيقة أمر كل أحدٍ من خلقه، ولكن جرت سنة الله تعالى بإجراء السنن الكونية والشرعية في هذا الكون وما فيه. فسبحان الله العظيم.

وهذا يفيد المؤمن: أن الله تعالى قد يبتليه بما شاء، وعليه أن يثبت ويصبر ويدعو، ويرجو رحمة الله تبارك وتعالى. وأيضاً أن في التمحيص والابتلاء ما يطهر وينقي المؤمن من الذنوب، وما يرفع به الدرجات. فسبحان الله الكريم المتعال. ويبين هذا أهمية معرفة سنن الله تعالى، وأهمية معرفة مراده بما يصيب المؤمن، حتى يهتدي بمواعظ الله تعالى وبيانه، فيفهمها، ويعرف كيف يتعامل معها.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤/٢)

(٢) أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٩/٦)

(٣) أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٧/١)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة المزيد من مراده فيما يحصل من الابتلاء للمؤمنين، ومن ذلك أن الابتلاء بابٌ لدخول الجنة، وكذلك باب للتمحيص، حتى يتبين بذلك المؤمن المجاهد، والصابر على ما يصيبه ويناله من جروح ومكروه وآلام في ذات الله تعالى. مما يفيد عظيم أجر الجهاد، وأهمية الصبر ومنزلته وما يؤل بصاحبه إلى الخير والجزاء العظيم. ولقد كنتم تمنون القتال، فقد رأيتم ما كنتم تمنون ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ وقد جاء التعبير عن لقاء العدو في ساحة المعركة بالموت ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ** ﴾ فكنتم قبل هذا تمنون لقاء العدو، فقد رأيتم الموت، وشاهدتم وقت حد الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال، والمتكلمون يعبرون هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس[1] فمشاهدتهم لما يدور من حركة المعركة، وما يحدث فيها من القتل والجرح، كأن كل واحد قد شاهد الموت وعاينه أمامه. لأن القتل متوقع به وسط اشتباك الرماح والأسنة وبريق السيوف.

ومن الفوائد دقة القرآن الكريم مع عظيم بلاغته في تصوير الموقف، إذ حقق تصوير مسألة الموت تحقيقاً بليغاً، فَعَبَّر عن مشاهدتهم للموت بأثره الواقع على من قُتل ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ**

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٧/١)

تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ فإن دلالة كلمة ﴿ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ واقعة على الموت المتمثل في المقتولين وهم يُقْتَلُون، بينما ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ واقع على مشاهدة القتلى بنظر العين، فالرؤية متعلقة بالحدث، وهو الموت الحادث أمامكم، والنظر واقع على الأثر الذي تبصرونه من القتلى. وذلك للفرق بين دلالة الرؤية، ودلالة النظر، فالرؤية قد تكون بالنظر وقد تكون بالأثر المشاهد على أثره، فالموت لا يمكن رؤيته بالعين، ولكن رأيتم أثره على الميت أو القتيل، بينما النظر يكون بالعين المجردة للمقتول. وسمى الله تعالى لقاء العدو بالموت ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ مما يفيد أن لقاء العدو قد يتحقق به الموت، فإنه يمثل الموت الذي قد تموت بسببه، وقد تَسلَم منه بقدر الله تعالى وقدرته عَزَّ وجل.

ثم يبين الله تعالى بشرية وإنسانية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه يسري عليه ما يسري على البشر من سُنن الله تعالى، كسابق الرُسُل من الموت ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ فإنه صلى الله عليه وسلم له أسوة بالرُسُل من قبله في الرسالة، وفي جواز القتل عليه. وفي تخصيص ما يمكن أن يقع عليه من الموت والقتل بالرسل دون البشر ما يفيد الرفعة والمنزلة وخصوصية الاصطفاء والرسالة، وهي قاسم مشترك بينهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين، وهذا من رُقِي الأسلوب ودقته في القرآن الكريم، والذي يؤكد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، مما يُفِيد في بناء الأساليب البيانية أهمية حُسن اختيار الألفاظ والمعاني، وإنزال الناس منازلهم.

ثم قال تبارك وتعالى منكراً على من حَصَلَ له الضعف والتقهقر أمام العدو ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ أي: أفإن حصل للرسول صلى الله عليه وسلم الموت الطبيعي، أو القتل رجعتم وانقلبتم على ما كنتم عليه قبل نبوته صلى الله عليه وسلم؟ سؤال يستثير به ما يجب على المؤمنين أن يكونوا عليه من الثبات على الدين في جميع الأحوال وتغيرها وتبدلها، والتي منها موت الرسول صلى الله عليه وسلم إذا حصل.

وقد تلى الصديق رضي الله عنه هذه الآية، لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وكان يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان أبو بكر أمير الشاكرين، وأمير أحباء الله، وكان أشكرهم، وأحبهم إلى الله تعالى[٢] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصّديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم[٣] وفي هذا دلالة على عمق فقهه رضي الله عنه. فكان فعلاً هو الأحق بالخلافة رضي الله عنه.

ومن عظيم نزول القرآن متدرجاً بحسب الحوادث والمتطلبات هو ما حصل يوم أحد من الإشاعة بمقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما نزلت به هذه الآية الكريمة توطئة للمسلمين وتربية وتوجيهاً لهم، من أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مماثل لمن سبقه من الْرُسُل، فلن يبقى بينهم، بل سيموت عليه الصلاة والسلام، وأنه بموته إذا مات يلزمكم ويجب عليكم الثبات والبقاء على ما كنتم عليه معه صلى الله عليه وسلم. فأوضح وبين الحق سبحانه وتعالى لهم، ما يجب عليهم قبل حدوث موته صلى الله عليه وسلم. فقد كان ما حدث من إشاعة مقتله صلى الله عليه وسلم مجالاً لتعليمهم رضي الله تعالى عنهم تعليماً سباقاً لما يلزمهم حال وقوعه.

ثم بين تبارك تعالى جزاء من يتقهقر عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ فمن يرجع منكم عن دينه فلن يلحق دين الله تعالى شيئاً. فذلك لن يوهن عزة الله تعالى، ولا سلطانه، ولا يدخل بذلك نقص في ملكه عَزَّ وجل، بل يضر المرتدُ نفسَهُ بِردتِهِ[٤] وفي هذا ما يفيد أن دين الله تعالى قائم وثابت بقدرته وقوته

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٨/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٨/٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٣/٤)

(٤) المرجع السابق (٩٧/٦)

سبحانه وتعالى، وأنه باقٍ بما حكم الله تعالى له به، وقَدَّرَهُ بظهوره على الدين كله، وليس متوقف على أحد من خلقه، وإنما الذين ينشرون دينه سبحانه وتعالى وينافحون عنه فإنما يقومون بالأسباب الظاهرة فقط، ويكسبون بذلك ثواب الله تعالى ومرضاته ورضاه عَزَّ وجل. بما يُعَلِّم العباد أن دين الله تعالى ثابت البقاء كما أراد الله تعالى، فاغتنموا أن تكونوا من دعاته وجنوده، وخادميه.

ثم بين تبارك وتعالى حال من يثبت على دين الله سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فَسيُثِيبُ اللهُ تعالى ويجزي من يثْبُت على هذا الدين، وهم الذين شكروا الله تعالى على نعمة الهداية بلزومها والثبات على الدين. ولذلك كان يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان أبو بكر أمير الشاكرين، وأمير أحباء الله، وكان أشكرهم، وأحبهم إلى الله تعالى[١] وفي هذا القول ما يبين منزلة ومكانة الصديق رضي الله تعالى عنه عند الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. كما يدل ذلك على عمق التربية النبوية التي جمعتهم على التَّآلف والتواد والحب، وازاحت منهم التباغض والتحاسد، وكله بفضل الله تعالى ورحمته وهدايته وتوفيقه.

ثم يبين الله تعالى العلاقة بين حصول الموت والأسباب ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا ﴾ فما يموت محمدٌ ولا غيره من خلق الله تعالى إلا بعد بلوغ الأجل الذي جعله الله تعالى غاية لحياته وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه الله تعالى له، فحينئذ يموت، وأما قبل ذلك فلن يموت بكيد كائد، ولا بحيلة محتال[٢] وهذا يزرع ويغرس في المؤمن التوكل على الله تعالى، وكذلك الشجاعة القلبية، لعلمه أنه لن يموت قبل أن يستوفي أجله الذي كتبه الله تعالى له. وهذا يغرس الطمأنينة في نفس المؤمن، وكذلك الرضا بما يحدث له ولغيره، وهي التي لا يمكن الحصول عليها بغير هذا الإيمان.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٨/٦)

(٢) المرجع السابق (١٠٦/٦)

ثم يبين الله تعالى نوع الهدف عند الإنسان في أعماله والثواب عليها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ فمن كان عمله للدنيا فقد نال منها ما قَدَّرَهُ الله تعالى له، ولم يكن له في الآخرة من حظ ولا نصيب. ومن قصد بعمله الآخرة، أعطاه الله تعالى منها. وكذلك ما قسم له في الدنيا(١) وفي هذا ما يبين ويفيد أن من أراد الآخرة بعمله، جمع الله تعالى له بين ما أراد من ثواب الآخرة، وبين ما كتبه الله تعالى له في الدنيا. فكان الفائز الحقيقي. وهو الذي أكده تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فهو تأكيد لما تقدم من إيتاء مزيد الآخرة(٢) وهذا يؤكد أن الله تعالى سيجزي بعطائه وكرمه، الشاكر الذي شكر الله تعالى على هدايته وتوفيقه، فاستقام شاكرا، قولاً وعملاً واعتقاداً.

ومن فوائد دلالة الشكر: أن الشكر: تصور النعمة وإظهارها، وهو ضد الكفر الذي بمعنى نسيان النعمة وسترها. فالشكر هو الامتلاءُ من ذكر الْمُنْعِم عليه، وهو ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على الْمُنْعِم، وشكر سائر الجوارح بالعمل(٣)

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤١٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٤٦)

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٢٦٥)

وفي هذه الآيات الكريمة تقوية وتسلية للمؤمنين عن الذي وقع لهم في غزوة أحد، وذلك بلفت الانتباه إلى من كان قبلهم من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين، وما يجب عليهم من التأسي والاقتداء بهم. وكذلك لطف الله تعالى بالمؤمنين ورأفته بهم، إذ يلفت انتباههم إلى ما أصاب غيرهم من الأنبياء وأتباعهم. وهذا يفيد أهمية القدوة والأسوة، وأهمية لفة الانتباه إليها، وأن للقدوات أثر وأهمية فيمن بعدهم. وأهمية الاعتبار، بالغير. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ أي: فكم من نبي ﴿ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي: قاتل معه جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين آمنوا بهم، فأصابهم قتل وجراح، وغير ذلك، ولكنهم ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ فهؤلاء تَغَلَّبُوا بفضل الله تعالى على صفات ثلاث ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ فما جَبُنُوا، ولا انكسرت عزائمهم، ولا أرعبهم الخوف في سبيل الله تعالى ومرضاته. وكذلك ما ضعفوا عن الجهاد ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ بالخضوع لعدوهم. فتلك ثلاث صفات نفسية قلبية، تُؤدي إلى إحباط التفكير، والشرود به إلى رؤية الأمور في صورة العجز وعدم القدرة، فتنعكس على قرار الثبات والمواجهة والاندفاع، وذلك أنها تتجه بالنفس للخضوع والخنوع.

وفي وصفهم بمغالبتهم وانتصارهم على تلك الصفات، ما يدل على مقدرة واستطاعة الإنسان أن يتغلب عليها، لأنهم تَمَنَّعُوا أن يُوهِنُوا أنفسهم، مع ما أصابهم من الأسباب التي بها يكون الوهن والضعف والاستكانة، كالقتل والجرح، أو ما قد يُشاع في صفوفهم، أو ما قد يحدث في المعركة من المداولة بالهزيمة تارة، والغلبة تارة أخرى. وهذا كله يحتاج إلى الصبر. فشجعهم الحق تبارك وتعالى عليه بمحبته لمن يتصف بهذه الصفة ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ فأي نعمة أجل وأعظم من أن يحب الله عَزَّ وجَلَّ من تصبر وصبر. فإنها منزلة عظيمة، وفيه معونة من الله تبارك وتعالى يحظى بها الصابر على طاعة الله تعالى، وخاصة في مثل هذه المواقف العظيمة الجليلة.

والصبر: نقيض الجزع. وهو: حبس النفس عن الجزع. وأما التصبر فهو: تكلف الصبر[(١)] وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: هو خُلُق فاضل، من أخلاق النفس. يمتنع به من فعل ما لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل. وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها[(٢)] مما يفيد ويُعَلِّم المؤمن أن عليه بالصبر، وتوصية غيره بذلك، وأن يلزم الصبر في مواجهة العدو، والصعاب، ومقابلة ما يحدث من غيره له بالروية والصبر، المتضمن للحكمة، والبعد عن الغضب، الذي يبدد ويعطل تحقيق الأهداف. كما يبين هذا أهمية الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في صبره وعموم سيرته العطرة عليه الصلاة والسلام.

بل كان قولهم في تلك المواطن العصيبة هو ما قاله عنهم تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فطلبوا من الله تبارك وتعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، وما أسرفوا فيه منها، بتخطيهم الصغائر إلى العظام[(٣)] فعرفوا أن الذنوب والإسراف من أعظم موانع النصر، بل إنها من أسباب الخذلان، وأن التخلي عنها والاستغفار منها هو من أسباب النصر والتمكين، فسألوا ربهم مغفرتها ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾ ثم لم يعتمدوا على جهدهم وجهادهم وهم يسيرون في سبيل الله تعالى، بل سألوا الله العزيز المعين الثبات والتثبيت عند لقاء العدو ومقارعته ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ وأن ينصرهم على الكافرين ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فجمعوا بين الإقرار بما يستوجب طلب المغفرة، وبين الصبر، وبين التوبة والاستغفار، وبين الاستنصار بربهم سبحانه وتعالى، فنعم المولى ونعم النصير. ومن قواعد مواجهة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (٤/٤٣٨-٤٣٩)

(٢) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين، ص (١٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١٢٠)

المصاعب هذا الدعاء العظيم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فكانت النتيجة ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأعطاهم الله تبارك وتعالى ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ النصر والظفر على عدوهم ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وهي الجنة. لأن الله سبحانه وتعالى يحب المحسنين ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا الذي قاموا به من الإحسان الذي يحبه الله تعالى، ويحب من اتصف به. فهذا صنف من أصناف الإحسان، مما يبين أن باب الإحسان واسع في محتواه. وأن الله عَزَّ وجل يحب المحسنين كما يحب الصابرين. فاتصف هؤلاء بصفتين يحبهما الله تبارك وتعالى، وهما الصبر ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ والإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ويُستَشَفُ من قوله تعالى ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يُسْتَشَفُ منها قاعدة عظيمة لتثبيت النفس فيما يمر عليها مما يوهنها ويُضعفها من أمور الدنيا. فإذا واجه المؤمن أمراً مما يترتب عليه شيء من الاستكانة والضعف والوهن، استدفع ذلك بقوله تعالى ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وإن جاءه شيء من الحزن والأسى الداعي إلى الشعور بالضعف، استنهض قواه بقوله تعالى ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهكذا في كل حال من الأحوال التي يهجم فيها على القلب ما يجر ويقود إلى الاستكانة والضعف أمام المصائب والابتلاءات، أو أمام ما هو مرغوب ومطلوب، أو مدفوع ومكروه، أو في أي شيء من مثل ذلك. بل ويعظ بها غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ
فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ
وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ
ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ
وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا
تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ
أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ
قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ
شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ
مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ١٥٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى توجيه المؤمنين بما يجب عليهم حيال الكافرين، وما يخص غزوة أحد من دروس، فابتدأ توجيه العزيز العليم الرحمن الرحيم بمخاطبة المؤمنين بياء النداء، وبخصيصة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الذي يفيد لفت الانتباه، وارعاء السمع باهتمام لما يُقال، خاصة وأن المخاطبين قريبين من الله تعالى، وليس هم عنه ببعيد. ثم بعد النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ خاطبهم بخصوصية الإيمان، ومنزلته العظيمة الجليلة القدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مما يبين لطفه ورحمته تبارك وتعالى، بما يُعَلِّم المسلم منهجية وأدب الخطاب، بأن يكون في أفضل عبارة، وما يلزم ذلك من حُسن انتقاء الْكَلِمِ، ومخاطبة الغير بأحب الألقاب إلى النفس، فإذا كان الله تعالى يخاطب عباده بما يحبون من الصفات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فكيف بالعبد مع العبد.

وقد تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. وهو نداء يحمل رتبة عظيمة ومنحة كريمة بأن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ثم يأتي النهي على صيغة الإخبار بنتيجة الاختيار أو التخيير، لأمر مُعلل بمغبة الخيار وما ينجم عنه ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ انتبهوا من مطاوعة الذين كفروا، فإن أطعتموهم فإنهم ينتكسوا بكم إلى الكفر. وإذا جُمع بين أسلوب مخاطبتهم بالإيمان وبين صيغة التوجيه بالتخيير والتعليل، تكون الدلالة: بأن الذي

يليق بالمؤمنين هو اختيار عدم طاعة الكافرين، الذين في طاعتهم الانقلاب بالخسارة بعد الربح، وهو ربح الإيمان. وهذه الصيغة من الصيغ الجاذبة للاستماع وإلى الطاعة والتطبيق، لما حوته من التوجيه المعلل بالنتيجة الحتمية، وهذا من كريم لطفه وتعليمه تبارك وتعالى، مما يعين تربوياً وإدارياً على الإفادة من صياغة البيان والتحذير الذي يستدفع المُخَاطب إلى التنفيذ والانقياد.

ومن دقائق السياق في البيا أن وصف الله تعالى الارتداد بالنكوص على الأقدام، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ فإن حالتهم وهيئتهم حين يرتدون إلى ما كانوا عليه من الشرك، كمن يمشي على مؤخرة قدميه، فيكون مسيرهم إلى الخلف، والذي يفيد التراجع بعد أن كانوا يسيرون متقدمين في الحق والخير على نور من ربهم بكامل قوتهم. مما يدل على شدة الرجوع الممتلئ بكل معاني الخسارة والذل والهوان. فهو تصوير بليغ في وصف حال العودة إلى الخسارة بعد الربح.

فإن طاعة الكافرين تُوجب الانكسار والتردي في عموم المعصية، سواء كانت في الكفر أو في غيره، فإنهم ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ وفي هذا إخبار بعلة التحذير من طاعة الكافرين ونتيجتها التي يجب توخيها والحذر منها. ففي قوله تعالى ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ تفيد العودة على ما كنتم عليه من فقدان الدين. فتخسروا بعد تحقق المكاسب التي هي الإيمان والطاعة والجنة. لتعودوا كما كنتم قبل الإيمان. ومن دقائق البيان أنه لم يُحدد سبحانه وتعالى نوع الخسارة، لتستوعب جميع أنواع ودرجات الخسارة، وسواء ما يخص الدنيا، أو الآخرة. وهذا يفيد أن الخسارة حاصلة بطاعة الكافرين بعد حصول المؤمن على الربح العظيم، الذي هو الإيمان أو العزة، وغيرها من مرابح الدنيا والآخرة، فكيف تتركون ما حصلتم عليه من الربح بسبب طاعة الكافرين. وهي صورة مؤثرة في النفس، لأنها مبنية على الخسارة بعد الربح. فاللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

ثم يبين الله جَلَّ في علاه أن ولايته للمؤمنين كافية وناصرة لهم، فلا يحتاجون موالاة الكافرين أبداً ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ فلا تحتاجون لغير ربكم الله في النصر. بل هو خير من ينصركم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ فهو الذي يحفظكم من عدوكم

وينصركم عليهم، لأنه ﴿ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ والتي أفادت أنه لا أحد يستطيع أن ينصركم أفضل وأكمل من نصر ربكم لكم. وبالتالي لا تحتاجون الكافرين في شيء، فيجعلكم تطاوعونهم في شيء من أموركم. فلا حاجة لكم فيهم أبداً.

وفي قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ قوة وقاعدة عظيمة، يستقوي بها المؤمن على شياطين الجن والإنس، فيستعين بالله تعالى على كل ظالم وكل موطن ظلم، آخذاً بالأسباب ومتوكلاً عليه سبحانه وتعالى، ومعتقداً اعتقاداً جازماً: أنه لا ناصر ولا منصور إلا من نصره الله تبارك وتعالى، وأن من كان الله تعالى معه فلن ينتصر عليه مخلوق. فإذا واجهته مخاطر استنهض قواه بقول الله تعالى ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ وإن أعجبته قوته انتصر على عُجبه بقوله عَزَّ وجل ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ وإن تخاذلت النفس من قلة الأسباب قال ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ وإن أبهرته قوة وسلطان من يعاديه قال لنفسه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ بل ويعظ بها غيره، فإنها قوة يخاطب ويعالج المؤمن بها نفسه، وغيره من المؤمنين.

ثم يبين تبارك وتعالى وسيلة عظيمة ومهيبة من وسائل نصره. فقال عَزَّ وجل ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف. الذي إذا قذفه سبحانه وتعالى في قلب أحدٍ، جعله يرتعد مما يراه، أو يسمعه، أو مما يتوهم منه، فيتعاظم الأمر في قلبه وفي بصره، وسمعه وحواسه، فتزداد خشيته وخوفه منه، فسبحان الله القوي العزيز الذي تكاثرت وتنوعت وسائل نصره، وتعدد جنده بما لا يحصيه ولا يدركه أحدٌ من خلقه، إلا بما يبينه سبحانه وتعالى. وإن من

خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أن الله تعالى ينصره بالرعب (نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر)[١] فالذي أمده عليه الصلاة والسلام بالرعب هو الله اقوي العزيز.

ثم يبين تبارك وتعالى سبب وعلة قذف الرعب في قلوب الكافرين ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ فهذا الرعب بسبب كفرهم المبني على الشرك الذي نهى عنه العزيز الحكيم، وحذر عباده منه ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ فلم ينزل عليهم به حجة ولا برهاناً حتى يتخذوه وسيلة للطاعة. بما يفيد أنه افتراء من عند أنفسهم.

ثم بين وأوضح جَلَّ جلاله مآل الكافرين، والنتيجة الحتمية لهم ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ فإن مرجعهم الذي يأوون إليه يوم القيامة هو النار. ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ وبئس المقام مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم، باكتسابهم ما أوجب لهم النار.

ثم أوضح وبين الله تعالى حقيقة النصر والهزيمة في غزوة أحد، بأنه سبحانه وتعالى وعدهم بالنصر ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ فهذا بيان عن صدق وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر على أعدائهم الكافرين. كما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، حيث قال عليه الصلاة والسلام للرماة (أثبُتُوا مكانكم ولا تبرحوا وإن رأيتُمُونا هزمناهم، فإنا لن نزل غالبين ما ثبتم مكانكم)[٢] وحصل النصر والظفر للمؤمنين أول المعركة ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ والحس هو القتل، إي إذ تقتلونهم. فيقتل المسلمون الكافرين

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٢٦/١) برقم (٣٣٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٨/٦-١٢٩)

بالسيوف. وقد قَرَنَ سبحانه وتعالى الحس أو القتل بإذنه عَزَّ وجل ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ فإن هذا القتل الذي ترونه بأعينكم، وبجميع حواسكم هو بمعونته وتوفيقه وحكمه وقضائه جَلَّ جلاله، بأن سلط المؤمنين على الكافرين ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ فلو لم يأذن به الله تعالى لما حصل قتلكم لهم بالسيوف. وهذا يبين أن النصر ما هو إلا من عند الله تعالى وبتوفيقه، وليس بالأسباب فقط، فَرَبُّ الأسباب هو الذي يُمَكِّن الأسبابَ من تحقيق المطلوب، أو تنخذل تلك الأسباب، بما يقضيه عَزَّ وجل بتدبيره وحكمه. وهذا يوسع فقه المؤمن في جميع أمور حياته، فما التوفيق إلا بالله تعالى، فليطلبه المؤمن من الله عَزَّ وجل، ويستعين على قضاء حوائجه بالله تبارك وتعالى.

ثم أوضح وبين المولى عَزَّ وجل أثر مخالفة الرماة على مسار النصر الذي تحقق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى إذا ﴿فَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم وضعفتم، ثم حصل التنازع ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ واختلفتم في أمر الله تعالى ﴿وَعَصَيْتُم﴾ وخالفتم نبيكم صلى الله عليه وسلم، وتركتم أمره، وما عهده إليكم، وذلك بمخالفة الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، ونزولهم إلى جمع الغنائم، فتمكن خالد بن الوليد قائد المشركين آنذاك من أخذ موقع الرماة، فالتف على المسلمين [1] فحصلت الهزيمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ فحصلت الهزيمة من بعد أن تحقق لهم ما يحبون من النصر. وهذا يفيد أهمية الثبات على أمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. وأن المؤمن إذا حصل له خير، فلا يجعل سروره وفرحه به يُنسيه الطاعة، فيقصِّر في أمر الله تعالى، فتحصل له الانتكاسة، فإن الأمر كله لله وبيد الله تعالى.

---

(١) المرجع السابق (١٣٦/٦)

وهذا يفيد أن من وسائل الهدم بعد البناء ثلاثة مرتكزات: هي: الفشل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ والثاني هو: التنازع ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ والثالث هو: المعصية لأمر الله تعالى ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ مما يؤكد أهمية الطاعة للقائد ما أطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن في معصية القائد وولاة الأمر شر عظيم.

ثم فنَّد سبحانه وتعالى حال الرماة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وذلك أنه لَمَّا هَزَم النبيُ صلى الله عليه وسلم الكافرين، ورأى الرماة الغنائم، قال بعضهم: أدْرِكُوا الغنائم، وقالت طائفة أخرى: بل نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَنَثْبُتُ مكاننا. لأن الطاعة تحقق ثواب الآخرة، وأن طلب الدنيا يقصر عن ثواب الآخرة. فيكون هذا سبب التنازع الذي ذكره الله تعالى في الآية الكريمة. فتنازعوا وفشلوا، وعصوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فأوجفت الخيل فيهم قتلا[1]

ثم بعد بيان حال الفريقين، أوضح وبين سبحانه وتعالى كيف كانت إدارة المعركة، التي بها تحول النصر إلى هزيمة. فقال عزَّ وجل ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فصرف عزَّ وجل المؤمنين عن الكافرين، بعد ما أراهم ما يحبون من النصر والغنيمة، فَرَدَّ وجوههم عن المشركين، بسبب مخالفتهم التي وقعوا فيها ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ ليختبركم، فيتميز الصابر من الجازع. فحدث القتل في المسلمين، ومنهم حمزة رضي الله عنه، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن الله رؤف رحيم بعفوه وكرمه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾ فعفا عن العقوبة بفضله ورحمته.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٥٢-١٥٣) بتصرف

ثم بين تبارك وتعالى تفضله على المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذ عفا عنهم وغفر لهم، ولم يستأصلهم بعد المخالفة، وذلك لفضله سبحانه وتعالى على المؤمنين.

وهذا يبين أن مطامعُ الدنيا إذا نازعت قلبَ المؤمن عن الآخرة، وجب مقاومتها، وإيثار الآخرة عليها، وأن عون الله تعالى ونصره يكون مع الطاعة والصبر عليها، وأن المسلم لا يأمن أن ينزع الله تعالى منه ما أعطاه من خير بسبب المعصية، سواء في حوزته ممتلكاً لها، أو كان قريب الحصول عليها. ثم من رحمته وكريم تعامله تبارك وتعالى أنه يعامل المسلم بما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فيعفو ويصفح ويغفر، ولولا ذلك، لما أمكن المؤمن أن يتوب ويستغفر فيما لو عجل له العقوبة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإن ربنا تبارك وتعالى متصف بالفضل على المؤمنين، الذي يشمل جميع مفردات الخير. فإن دلالة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ﴾ توضح الصفة الثابتة لله تبارك وتعالى من الإكرام والإعطاء لجميع الناس، ولولا ذلك لأصبح الكفار في عوز وحاجة وعنت، ولكن فضله عظيم على الناس أجمعين. ثم خص هنا المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فأفاد التخصيص خصوصية ليست لغيرهم من الناس. فعليهم الالتزام بدينهم ليحصلوا على هذا الفضل المخصوص.

ثم يبين تبارك وتعالى حالة الذهول التي حصلت ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فبعد أن رأى المسلمون النصر والغنيمة وفرحوا بها ثم خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، تغير الوضع إلى الخوف، حتى توجهوا إلى الجبل صعوداً من الفزع الذي أصابهم ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ فكان حالهم الْجِدُّ في الهرب، حتى أنهم لا يلوون على أحد، فينظرون إليه أو يلتفتون نحوه. مما يبين مقدار وصورة الفزع الذي حل بالمؤمنين، جراء مخالفة البعض لأمر رسول صلى الله عليه وسلم، مما يبين قوة أثر مخالفة أمر

الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وكيف ينقلب النصر إلى هزيمة بإذن الله تعالى، وهم في جهاد في سبيل الله تعالى. فكيف عندما تكون المخالفة والمعصية في غير طاعة، وفي عموم أمور الحياة.

ثم يوضح ويبين الله تبارك وتعالى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أثناء المعركة. فقال الله تعالى ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ﴾ فموقع الرسول عليه الصلاة والسلام في آخرهم، مما يلي القوم، وهو يناديهم (إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله)[١] فيطلب منهم الرجوع، والعودة إليه صلى الله عليه وسلم لمواجهة العدو. مما يبين شجاعته وثباته صلى الله عليه وسلم. فإنه النبي والقائد الثابت الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً وشجاعة وقوة.

وكون وجود النبي صلى الله عليه وسلم وراءهم من جهة العدو فإن الانهزام ليس له مبرر، والرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وبين العدو. ولكن ليكون في الأمر دروس وعبر بأنه عندما يُصِيبُ الجماعة أو المجموعة الفشل والنزاع، فإنه يؤدي بهم إلى المخالفة التي تنتزع بها معونة الله تعالى، وتتحول إلى هزيمة، حتى ولو كان مطلعها الفوز والانتصار، كما قال تعالى من قبل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ وكم من مرغوب يقترب من طالبه حتى يكاد أن يكون في حوزته، وجازمٌ بحصوله، ثم يبتعد عنه، وينقطع الأمل في تحققه، بسبب مخالفة يقترفها العبد، وربما تكون فرحاً بالأسباب ونسيان رب الأسباب، وذلك في نشوة وغمرة السعي والفرح بالأسباب.

ثم يبين الله تعالى قضاءهُ الرحيم، ومعاملته الرؤوفة بهم ﴿ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فجازاكم على ما حصل منكم بغم متصل بغم آخر، فكان كرباً قد تَبِعَهُ كرب. فالغم الأول: هو: فوات النصر ومحبته بعد أن عاينوه، وكذلك فوات الغنيمة بعد أن لمسوها، ثم حصول

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٧/٦)

الهزيمة والخوف، ثم تواصل هذا الغم بغم ثاني: قد أنساكم كل غم، وهو الإرجاف بسماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل، ولكن من رحمته بكم، وأنه رؤف رحيم بالمؤمنين، جعل ذلك الغم رحمة منه بكم، لكيلا تحزنوا ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ فلما عرف الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُقْتَل هان عندهم كل ما فات من مصالح ومصائب. وقد قُتل في تلك الغزوة سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن فوائد المعاني والدلالات: أن الله تبارك وتعالى سمى العقوبة ثواباً ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ لأنه عِوض عما حصل من بعضهم، ويُسمى العوض ثواباً، سواء تكرمة أو عقوبة[1] قال الفراء: الإثابة ها هنا بمعنى عقاب[2] ولكن سماها الله تبارك وتعالى ثواباً لأنه تحقق بها نعمة إزالة أثر الحزن فيما فاتهم ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ وأيضاً ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ في الأبدان أو في إخوانهم. فعلة ما أصابهم من الغم بالغم للإحسان بهم ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ فالغم لما قبله من المخالفة كان عقوبة، ولما بعده من أثر كان لإزالة حُزْن ما فات، فكان حُزْن المصيبة ثواباً. فاجتمع في الغم الجزاء والثواب. فهو معجزة في الأثر، ومعجزة في البيان، ومعجزة في المضمون. فهو نعمة من الله تعالى، إذ لم يجعل الغم على المؤمنين عقوبة ثابتة، بل جعلها متشبعة بنعمة الرحمة والرأفة، فهو سبحانه وتعالى الرؤف الرحيم بالمؤمنين.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٩/٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤١/٢)

وفي هذا المصاب تعويد وتمرين على تجرع الغم، وتحمل الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع، ولا على ما يصيب من المضار[١]

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان سعة علمه عَزَّ وجل ﴿ **وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ** ﴾ فالله عالم بأعمالكم ونواياكم، وما كان منكم، مما يُوجب الحذر من النوايا والأعمال التي تخالف أحكام الله تعالى. فكانت موعظة عظيمة ومؤثرة في النفوس. مما يفيد أهمية التذكير بالمواعظ في ختام النصح والتوجيه والتعليم. وأن للموعظة أثر في النفس عظيم. وأن في تكرارها خير عظيم، كما تكرر ذلك في آيات القرآن الكريم. لأن الإنسان إذا أدرك هذا، واستصحب يقينه بعلم الله تعالى له في سكناته وحركاته وأموره وما يختلج في صدره، قاده ذلك إلى الكمال البشري، الذي يسعى به المؤمن إلى رضا الله تبارك وتعالى.

ومن لطف الله تعالى ورحمته بالمؤمنين قوله عَزَّ وجل ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ** ﴾ فأنزل الله جَلَّ ثناؤه الأمان ﴿ **أَمَنَةً نُّعَاسًا** ﴾ على طائفة المؤمنين، من بعد الغم الذي أصابهم، وهم الطائفة المذكورة في الآية الكريمة. والأمنة التي أنزلها تبارك وتعالى هي النعاس ﴿ **أَمَنَةً نُّعَاسًا** ﴾ وهذا دليل على فضل الله تعالى، إذ أنه جعل في خاصية النعاس الذي غشيهم طمأنينة وراحة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان[٢] قال أبو طلحة رضي الله عنه: كنت في من أُنزل عليه النعاسُ يوم أحد أَمَنةً، حتى سقط من يدي مراراً. يعني سيفه.[٣] وكون النعاس جاء بعد الغم، فهذا يبين مزيد فضل الله تعالى ورحمته، وأنه رؤف رحيم بالمؤمنين.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٤٣٩-٤٤٠) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٨٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٢٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١٦١)

ودلت الآية الكريمة على حصر أمنة النعاس في طائفة دون أخرى، فالطائفة التي خصها الله تعالى بأمنة النعاس، هي طائفة المؤمنين، وأما الطائفة الأخرى فهي طائفة المنافقين، التي لم يكن همهم إلا أنفسهم ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ ودلالة ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ ﴾ بمعنى: أقلقتهم وأذابتهم أنفسهم[١] فانحصر تفكيرهم واهتمامهم في ذواتهم، مما يدل ويبين أنهم لم يهتموا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أمر المؤمنين، ولا أمر هذا الدين، وهذا يفيد أن حال المؤمن الاتصاف بصفة الإيمان، من الاهتمام بالمسلمين وأمرهم، وأمر هذا الدين، وبرفعته ونصرته، ونشره والدعوة إليه، وبكل وجه يمكن أن يقدمه للإسلام والمسلمين، وأن حصر الاهتمام بالنفس فقط هو من أخلاق المنافقين، الذين وصل بهم الأمر إلى أنهم ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ فهم يظنون بالله تعالى ظنوناً كاذبة، مخالفة للحق، وهي ظنون أهل الشرك، شكاً في أمر الله تعالى، وتكذيباً لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه لن يُنْصَر. لأنهم اعتقدوا أنه لما ظهر المشركون تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، من أنه إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[٢] مما يتأكد به خطورة الظن الذي لا يليق بمقام الله تعالى وسلطانه ورحمته وجلاله، وأن صفة الإيمان تجعل المؤمن يُحسن ظنه بربه سبحانه وتعالى.

وتفيد دلالة معنى ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أن فيها بيان شامل لمجموعة مفردات ما يظنه أهل الجاهلية في الله تعالى، من أنواع الشك والشرك وغيرهما، لتجتمع في كلمتين جميع صفة الموصوف في عقائده وفكره سلوكه على اختلاف تنوع مجالاته في العدد وفي النوع. وهذه من البلاغة الإعجازية البيانية للقرآن الكريم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٦/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٧/١)

وأيضاً من اعتقاد الفرقة الباطلة من المنافقين أنهم ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ وهو استفهام يحمل معنى الجحود. أي ما لنا شيء من أمر الخروج، وإنما خرجنا كرهاً، بدلالة قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ﴾[١] فهم يَسِرُّونَ هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] يقول الشيخ السعدي: وهذا استفهام استنكاري، أي: مالنا من أمر النصر والظهور شيء، فأساءوا الظن بربهم، وبدينه، وبنبيه صلى الله عليه وسلم، وظنوا أن الله تبارك وتعالى لن يُتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم.[٣]

فيرد الله تعالى على فهمهم القاصر بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وهذا الأمر يشمل: الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى[٤] فليس الأمر مقصوراً على اجتهاد العقول، والتحرز والتحوط فقط، وإن كانت من الأمور الشرعية، لأن هناك الأمر القدري، الذي هو: قَدَرُ اللهِ تعالى. وهذا يُعَلِّمِ المسلمَ أن واجبه الشرعي هو العمل بالأمر الشرعي، من الأخذ بالأوامر والنواهي، والعمل بالأسباب، مع سؤال الله تعالى التوفيق والتسديد، وتحصيل الخير ودفع الشر فيما يُقَدِّرُهُ تبارك وتعالى. لأن الأمر كله لله العزيز الحكيم.

والأمور مهما تعددت وكثرت فهي بالنسبة لله تعالى بمثابة الأمر الواحد. لأن أمره سبحانه وتعالى للشيء إذا أراده، فإنما يقول له عَزَّ وجل ﴿ كُن ﴾ فيكون ما أراد تبارك وتعالى. وقد جاء اللفظ القرآني الكريم بلفظ المفرد ﴿ ٱلْأَمْرَ ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ليشمل مفردات التنوع والتعدد كلها في أمر واحد إذا أراد العزيز الحكيم، بما يُظهر سهولتها على الله

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٦/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٧/١)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٨٢/١-٢٨٣)

(٤) المرجع السابق (٢٨٣/١)

تعالى، فإن جميع الأمور كائنة في أمر واحد إذا أراد أمراً. ثم يتأكد ذلك بدلالة ﴿كُلَّهُۥ﴾ فليس بعضه: نوعاً ولا عدداً، بل جميع مفرداته وأنواعه لله تعالى في أمر واحد إذا أراد.

وهذه قاعدة عظيمة جليلة للمؤمن، إذ يتحقق بها طمأنينة النفس وسعادتها في كل أمر ومطلب محبوب ومرغوب، أو عند دفع مكروه ومدفوع، يُخَافُ منه المؤمن، وسواء حصل أو لم يحصل. فإذا اجتهد المؤمن في تحقيق محبوب ومرغوب ومطلوب، ولم يتحقق، قال لنفسه ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وإن اجتهد في دفع مكروه ومدفوع يخاف منه، طَمْأَنَ نفسه بقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وإن خاف من شيء، أو أوجس منه خيفة، طرد الخوف من نفسه بقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وإن استشرفت نفسه أمراً، سَعَى إليه بطمأنينة وهدوء، مستشعراً قوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وإن واجه مؤمناً راغباً أو خائفاً طمأنه ووعظه بقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهي قاعدة في طمأنينة النفس، ودافعة للتوكل على الله تعالى في كل أمر وشأن.

ثم يبين الله تبارك وتعالى منهج نفاق الكافرين، بأنهم يتعاملون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضمون هذا البيان القرآني ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ جمع المفسرون رحمهم الله تعالى في ذلك ثلاثة أقوال: الأول: لو كنا في بيوتنا ما قتلنا ها هنا. والثاني: إسرارهم الكفر والشك في أمر الله تعالى. والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد[1] فمسلكهم هو ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وكذلك ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وكذلك ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فقد

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٤)

أوضح تبارك وتعالى مكنون نفوسهم وعقائدهم. ليعرف المؤمن حال الكفرة، فيكون تعامله معهم من خلال بيان الله تعالى.

ودلالة ﴿يُخۡفُونَ﴾ وهو لفظ عام، يشمل جميع ما كانوا يخفونه عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال أو نوايا أو أعمال، وبهذا فإن جميع ما بينه سبحانه وتعالى هو مما كانوا يخفون، وهو ما استدل به العلماء بتلك الأقوال مما بينه العزيز الحكيم، فإن جميعها مجتمعة كلها فيهم، وكل نوع مما كانوا يخفون يندرج تحته مفرداته، وبذلك لا يمنع دخول غيرها فيما كانوا يخفون، وأنها مقصودة في الوصف، فإن الله تبارك وتعالى بين ما يخفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستوعب الإخفاء جميع تلك الدلالات وغيرها، وهذا من دقة البيان في كلام رب الأنام، ذو العزة والجلال، فشمل كلامه عَزَّ وجل جميع الوصف الخاص بما يخفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو العليم بتفاصيل ودقائق أمرهم، وجميع أمر عباده. فسبحان من لا تخفى عليه خافية. وهذا يبين دقة علم الله تعالى، مما يُعَلِّم المؤمنَ ما يجب عليه أن يعتقده من إحاطة علم الله تعالى الشامل للظاهر والباطن، فيتعامل ويعمل باعتقاد جازم أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وألا يسري إلى قلبه شك ولا ريب.

ثم يبين الله تبارك وتعالى مزيداً من أقوالهم التي يخفونها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيقول تبارك وتعالى ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله تعالى، وتسفيه منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولرأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله تبارك وتعالى عليهم[1] ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ فيبين الله تعالى لهم: أن قَدَرَ الموت والآجال التي قدرها سبحانه وتعالى لا يردها شيء من الاستخفاء في البيوت، فَمَن انتهى أجله، وكُتِب عليه القتل سيخرج إلى مصرعه، ولن يُنجيه اجتهاده بالقعود عنه، بل سيذهبون إلى ﴿مَضَاجِعِهِمۡ﴾ التي هي مصارع القتل. وهذا

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٨٣/١)

يغرس في المؤمن قوة وشجاعة إيمانية، بأن الآجال مكتوبة، وأن الحذر لن يرد الموت عَمَّن حان أجله الذي كتبه الله تبارك وتعالى له. وهذه العقيدة الإيمانية الغيبية تغرس في المؤمن الطمأنينة والشجاعة. وأن الحذر الشرعي من المخاطر لا يرد الأمر القدري الذي قَدَّره الله تبارك وتعالى.

ثم يبين الحق تبارك وتعالى مراده من ذلك ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي ليختبر الذي في صدوركم من الشك، فيُظهر للمؤمنين نفاقكم. وبهذا الابتلاء يتبين المؤمن من المنافق. والله تبارك وتعالى عالم بحالهم دون ابتلاء، ولكن جرت السنة الشرعية أن يُجازى الإنسان بما كسب. وكذلك من مراد الله تعالى تمحيص القلوب وفحصها ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وليتبين ما في قلوبهم من الاعتقاد لله تعالى من الولاء أو العداوة، التي تظهر بالقول ولسلوك، لأن العقائد أصلها في القلب، وتظهر في الأقوال والأفعال.

ثم بين سبحانه وتعالى علمه بما في صدور عباده قبل أن يظهر منهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإن علم الله سبحانه وتعالى بما تحويه الصدور هو علمٌ مُسبق لفعل كل فرد من عباده. وهذا يبين علة الابتلاء والتمحيص، لأنه جرت السنة الشرعية أن يُجازى الله تبارك وتعالى عباده بما كسبوا. ولتتبين الحقائق العملية من الإنسان لغيره، فتتبين حقائق المنافقين للمؤمنين، حتى يكونوا شهداء عليهم. كما قال صلى الله عليه وسلم (أنتم شهداء الله في الأرض)[١]

ثم يبين سبحانه وتعالى سبب من تولى يوم أحد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فالخطاب للمؤمنين، عن من تولى وفَرَّ من العدو، والجمعان هما: جمع المؤمنين، وجمع المشركين. وذلك يوم أُحد. [٢] وكان سبب ذلك التولي أن حملهم الشيطان على الزلل، بسبب ما

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٠/١) برقم (١٣٦٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٥/٢)

عملوا مخالفتهم للرسول صلى الله عليه وسلم. مما يبين أن الشيطان يتسلط على الإنسان بسبب ما اكتسب من الذنوب والخطايا، مما يوجب حذر المسلم من المعاصي، وإن حصلت منه المعصية التي لا يسلم منها البشر، بادر إلى التوبة والاستغفار، حتى لا يتسلط الشطان عليه، فيغويه عن جادة الطريق.

ثم إن هذا هو ﴿ **بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** ﴾ فكيف لو كان بكل ما اكتسب المؤمن من الذنوب، وهذا لأن الله تبارك وتعالى عفو كريم ورحيم، كما قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ **وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ فقد تجاوز الله تبارك وتعالى عن عقوبتهم على جميع ذنوبهم. فصفح عنهم. فهو غفور للمذنبين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والكفارات من المصائب المكفرة للذنوب. وهو ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ لا يستعجل على من عصاه، بل يحلم عليه، ويُعطيه من الوقت ما لعله يتوب ويستغفر، ويعمل صالحاً حتى يكفر الله تعالى بها الذنوب. وهذا والله من لطفه ورحمته بعباده سبحانه وتعالى، فالحمد والشكر له عَزَّ وجل.

وفي معالجة الله تعالى لحال المسلمين في غزوة أحد ما يبين الحكمة في نزول القرآن متفرقاً ومتتالياً، حتى يعالج قضايا المؤمنين في جهادهم، وعباداتهم، وإيمانهم، وأخلاقهم، وسائر أمورهم، ليبقى القرآن الكريم النور الذي يشع بهديه وبركاته وعلاجه لأمر المؤمن والمؤمنين ما بقية الحياة، وفي جميع الأحوال الخاصة والعامة، وكذلك ليكون هداية للمؤمنين في تعاملهم مع غيرهم ممن هم على غير دينهم، وفق الوقائع والأحداث.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يخاطب الله عَزَّ وجل المؤمنين، بأسلوب النداء ولفت الانتباه، وبأكرم الصفات، وهي الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهم الذين صَدَّقُوا الله ورسوله بما جاء به من عند ربه سبحانه وتعالى. فكان هذا النداء للنهي عن سلوك مسلك الكافرين فيما يعتقدون من أن الحذر يمنع القدر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ فإن أهل الكفر يقولون بحسب معتقدهم الباطل فيمن خرجوا للتجارة ﴿ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أو خرجوا للغزو ﴿ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى ﴾ ثم أدركهم الموت أو القتل ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ فإنهم يُعيدون ويرجعون ما حصل من الموت أو القتل للأسباب فقط، فقد علَّلُوا ما أصابهم بإسناده للأسباب والتحوط منها فقط، فلم يدركوا أقدار الله تعالى التي يسوق بها العبد إلى قدره من موت أو قتل، أو غير ذلك. وهذا الجهل بسبب الكفر الذي جعلهم في حسرة وألم من قضاء وأمر الله تعالى ومشيئته ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فجعل عَزَّ وجل اعتقادهم الباطل ألماً يتحسرون به على من مات أو قُتِل. وذلك بكفرهم الذي قَصُرَت به عقولهم عن إدراك ما يستبعدون به الحسرة.

مما يفيد أن في عقيدة المؤمن ما يُذْهِب الحسرة عن المؤمن عند وقوع القدر. فيعلم المؤمن أن ما أصابه أو أصاب غيره لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. فلا تحصل عند المؤمن الحسرة عند حدوث الموت ولا عند وقوع القتل، ولا عند فوات الربح، أو حدوث الخسارة، ولا في أمر من أمور الدنيا، فيعلم أن الأمر كله لله سبحانه وتعالى. فجعل الله تبارك وتعالى ذلك الموت والقتل حسرة وحزناً وغماً في قلوب أهل الكفر، لجهلهم بأقدار الله تعالى، نتيجة كفرهم.

ثم بين الله تعالى تقديره للحياة والموت، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ ﴾ فالحياة والموت بيد الله تعالى، فهو الذي كتب الحياة لمن عاش، وكتب الموت لمن مات. فليس في تحرز الإنسان ما يمنعه من قدره عَزَّ وجل. وهذا الإيمان الاعتقادي يمنح المؤمن رضاً، وطمأنينة وصبراً، ويمنع عنه كل حسرة وندامة. ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه بصير بما يعملون ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ فإنه لا يخفى عليه تبارك وتعالى شيء من أعمال العباد، فهو يراهم ويبصر ما يجري من أعمالهم، مما يوجب الحذر من معصيته سبحانه وتعالى، واستحضار مراقبته التي توجب طاعته. وهذه العقيدة الإيمانية في صفات الله تعالى تغرس في العبد الاستقامة على منهج الله تعالى، لأنه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله تعالى يراه، ويرى ما يعمل من عمل، فيدفعه ذلك إلى عمل الخيرات، والحذر والانكفاء عن أعمال الشر، بسبب إيمانه بأن الله تعالى يُبْصِرُ عمله، وما يُقْدِمُ عليه أو ما يتوقف عنه من أجل ربه سبحانه وتعالى.

ثم يبين الله تعالى للمؤمنين الحالتين التي يمكن أن تكون للسائر في سبيله، وهي إما القتل، أو الموت ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ فلو حصل القتل له، أو الوفاة من دون قتل، سيجد من الله تعالى المغفرة والرحمة، التي هي خير من مكاسب الدنيا إذا قُورنت بها. وفي هذا بيان لفضل الجهاد على مكاسب ومرابح الدنيا. ثم يبين الله تعالى المآل لمن قُتِل أو مات، فإن مصيره إلى الله تعالى ﴿ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ فليس الموت هو نهاية من مات، بل هو رجوع إلى الله تعالى، ليأخذ الجزاء. وفي هذا تقرير لعقيدة البعث والنشور والجزاء. لأن الموت نهاية الحي، والحشر إلى الله تعالى، دليل البعث والحياة مرة أخرى، حيث يكون الجزاء والثواب.

ثم يبين الله تبارك وتعالى شيئاً من صفة وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ فبفضل من الله تبارك وتعالى عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم جعلك ربك متواضعاً لأصحابك رضي الله عنهم. فيمتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم ليناً رفيقاً بالمؤمنين،

وذلك برحمته وفضله سبحانه وتعالى على نبيه وعلى المؤمنين، إذ جعل هذا النبي رحيماً ليناً عليهم، لا غليظاً شديداً معهم. مما يبين ويفيد أن صفة اللين صفة محمودة كريمة، وأنها من واجبات المؤمن التي يلزم التحلي بها تأسياً برسوله صلى الله عليه وسلم، ولما فيها من الخير العظيم، حتى أن الله تعالى امتن بها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، ليدركوا فضلها.

ثم بين النقيض فيما لو حصل ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ فالغلظة والفظاظة، مليئة بالجفاء والتجهم، فتكون منفرة للخلق عن صاحبها، مما يفيد أن مَنْ أحب أن تجتمع الناس به وعليه، أن يكون ليناً، وكثير الاحتمال لغيره، وأن لا يكون فظاً في القول ولا غليظاً في فعله، بل رفيقاً رحيماً ليناً كما كان صلى الله عليه وسلم، فاجتمع عليه أصحابه صلى الله عليه وسلم، بل أحبوه حباً عظيماً، ووصفوه بأنبل الأخلاق وأكرمها. ولو كان فظاً غليظاً لتفرقوا وانفضوا من حوله بسبب الفضاضة. ومن الفوائد كذلك: أن هذا الوصف الرباني قد بين أن مكان الغلظة هو القلب ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ فينعكس ذلك على الأخلاق والأفعال في التعامل مع الغير. مما يتطلب من المؤمن أن يتخلق بأخلاق رسوله صلى الله عليه وسلم. ويدرك اثر الرحمة في الاجتماع، وأثر الفظاظة في النفرة والاختلاف.

وفي الآية الكريمة أسلوب المقارنة بين فعلين متناقضين. بين اللين وبين الغلظة والفظاظة. ليدرك الْمُخَاطَب حال وأثر الصفتين على إقبال وإدبار الناس لمن اتصف بها. وكذلك قد بينت أوجه المقارنة مكانة ومنزلة وأهمية اللين، وعظيم رحمة الله تعالى أن جعل هذا النبي الأُمّي رفيقاً ليناً. مما يؤكد أهمية أسلوب المقارنة للإثبات والتعليم والبيان. ثم كذلك من الفوائد الدعوية والتربوية والإدارية، أهمية لين الجانب في التعامل من الداعية مع المدعو، ومن المربي مع المتربي، ومن الإداري مع من يعملون معه، بل إنها كذلك مهمة في رحاب الأسرة بين أفرادها، وكذلك في دائرة المجتمع بين الناس.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعدد من الصفات الخلقية الكريمة ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فتضمنت هذه التوجيهات الربانية ثلاث صفات، وهي: العفو، والاستغفار لهم، ومشاورتهم. فيعفو بالتجاوز عن سيئاتهم وأخطائهم، وأن يطلب من الله تعالى المغفرة لذنوبهم وأخطائهم، مما يبين أن من الأخلاق الكريمة المحمودة

التجاوز عمن أخطأ، وأن يُتبع ذلك بسؤال الله تعالى المغفرة لمن أخطأ في حقه. وهذا بلا شك من أرفع مقامات مكارم الأخلاق، لأنه إحسان بعد عفو.

والعفو: هو تنازل من صاحب الحق عن بعض حقوقه أو كلها. وأشار الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى قول العلماء: أن الله تبارك وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر بتدرج بليغ، فقد أمره أن يعفو عنهم فيما له في خاصته عليهم من تبعات، فلما صاروا في هذه الدرجة من العفو عنهم، أمره أن يستغفر لهم فيما لله تعالى عليهم من تبعة أيضاً. فإذا صاروا في هذه الدرجة، صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور[١] حيث أمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ بأن يطلب منهم الرأي، فيعلم ما عندهم من رأي. وقد كان صلى الله عليه وسلم كما أمره رَبُّه سبحانه وتعالى في كل شأن، والتي منها المشورة، حتى قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ويدل هذا على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون، ومن التأويلات: أن ذلك أعطف لهم عليه، وإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم، فما أمر الله تعالى نبيه لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من فضل، ولتقتدي به أمته من بعده[٣] وفي هذا من الفوائد الشيء العظيم على المستشير وعلى المستشار وعلى موضوع الاستشارة وعلى من تخصهم الاستشارة، فيعود نفعها على الجميع. فهي عبادة لمن قصد بها التقرب إلى الله تعالى. وهي تجمع وتُليّن القلوب، وتوحد الصفوف، وتبني التكاتف والتآلف بين المتشاورين في الأمر الذي يخصهم جميعاً. ويُسْتَخْرَج بها أحسن الآراء في تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وهي تربي وتعلم خطورة الانفراد بالرأي فيما يخص الجماعة، وتربي في المستشارين وفي الأمة وأفرادها

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٦٠)

(٢) الترمذي، صحيح الجامع (٤/١٨٥-١٨٦) برقم (١٧١٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٦١)

منهج المشورة. وإذا كان الله تعالى يأمر نبيه بمشاورتهم، وهو أكمل الناس عقلاً ورأياً وأغزرهم علماً، ومُسددٌ من الله جَلَّ في علاه، فكيف بحاجة من هو دونه للمشورة.

ثم يأمر الله عَزَّ وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أنه إذا تقرر عنده الأمر بعد المشاورة، فيعزم الأمر ويتوكل على الله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي دلالة هذا ما يفيد تقرير التوكل بعد الأخذ بالأسباب، والاعتماد على حول وقوة الله تبارك وتعالى، فيتبرأ المؤمن من الاتكال على حوله وقوته الشخصية، أو على الأسباب وقوتها، وما يُبهره منها، في كثرتها أو نوعيتها وقوتها. فإن كل قوة وحول لا قيمة له من غير حول الله تعالى وقوته ونصرته وسلطانه على كل حول وقوة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى محبته لمن توكل عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ففي التوكل حصول محبة الله تعالى للمتوكل عليه، وكذلك التفويض إلى القوي العزيز، الذي بيده كل شيء، ومن أحبه الله تعالى أعانه وسدده فيما هو فيه، سواء بتحصيل المطلوب، أو بعدم تحصيله، فقد يكون في عدم حصول المطلوب خير وصلاح للعبد في علم الله تعالى، لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه العبد، فيكون الرضا والتوكل على الله تعالى نعمة عظيمة الأثر، ومن ذلك أن المؤمن بعد توكله يكون راضياً بما ينتهي إليه الأمر. لأنه كله خير على أي وجه كان. وقد بينت الآيات التالية أن من ينصره الله تعالى فلا غالب له من أي قوة كانت.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولمن بعدهم ميزان النصر وتقريره لهم، فقال الله تعالى ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾ فإن يعطيكم الله تعالى قوة النصر، ويمنع عنكم عدوكم لن تُغْلَبُوا أبداً. وجاء البيان الرباني بصيغة التقرير النافي لحدوث ما هو ضده، فإن قرر الله تعالى نصركم، فلن يحدث ما هو ضده من الهزيمة أبداً، فلن يكون لأحد أن يغلبكم أبداً، مهما كانت قوة العدو واستعداده. وإن قرر الله تعالى خذلناكم فليس لأحد القدرة على نصرتكم ﴿ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ وجاء البيان التقريري بصيغة الاستفهام التعجيزي الاستنكاري، ليفيد مبالغة النفي، وتقرير العجز عن النصر، وتأكيد نفي القوة التي يمكن أن تنصركم إن قضى الله تبارك وتعالى ترك معونتكم ومعيته لكم.

وبهذا التعليم والبيان الرباني، والجزم في عملية تحقيق النصر والخذلان، ما يوجب اندفاع المؤمنين إلى طاعته عَزَّ وجل، والتي تحقق معيته ونصرته سبحانه وتعالى، وكذا التوكل عليه، الذي ينفي به المؤمن حوله وقوته الذاتية عن تحقيق مراده، ويُثبت حول الله تعالى وقوته في اعتقاده وفعله، وأن اعتماده عليه وحده لا شريك له، وقد خُتِمَت الآية الكريمة العظيمة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ فأمر المؤمنين بالتوكل عليه. كما أن في ربط التوكل بالإيمان، ما يدل على أن من موجبات الإيمان التوكل على الله تعالى، وكذلك فيه بيان للعلاقة الوطيدة بين الإيمان والتوكل، فلا توكل بدون إيمان ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ وفي تكرار التوكل في هذه الآية وما قبلها ما يدل على أهميته، وعلاقته بتوفيق الله تعالى وتأييده ونصرته، لأنه عَزَّ وجل يُحب المتوكلين، كما بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ فعلى المؤمن أن يأخذ بما يحبه الله تعالى.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى نفي الخيانة عن الأنبياء ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ فالنبوة تنافي الغلول، فما يصح له أن يكون غالاً.[١] صلى الله عليه وسلم. فيستحيل ويمتنع هذا الْخُلُق على نبي أبداً، وفي هذا تنزيه لمقام النبوة الكريمة. والغل: خيانة المال على قول الأكثرين.[٢] وهو أخذ شيء من المغنم خفية.[٣] وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون[٤] ومن لطائف هذا الأسلوب الرباني الكريم في كتابه العظيم، ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية من ألطف التعريض، إذ قد ثَبَّتَت براءة ساحة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول. فدل على أن الغلول في غيره[٥] وذلك أن هذه الآية العظيمة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قطيفة فُقِدَت من مغانم القوم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها. ورويا في ذلك روايات[٦]

وهذا الأسلوب في التعريض كقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ ما يبين أهمية هذا الأسلوب من التعريض في البيان، دون التصريح بالتحديد والتعيين. والذي أثبت نفي الغل عن النبي صلى الله عليه وسلم، دون ذكر اسم الذي غل، وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى عن قتادة والربيع بن أنس رضي الله عنهم: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غَلَّ بعض أصحابه[٧] وقد كان هذا النهج الكريم من أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (ما بال أقوام يشترطون شروطاً، ليس في كتاب

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٤٤٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٩)

(٣) المرجع السابق (٢/٥٠)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٣٠)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٩-٥٠)

(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١٩٤)

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٣٠)

الله)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)[٢] من غير تعيين لأحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ثم يبين تبارك وتعالى جزاء من غل ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي: يأتي به حاملاً إياه على ظهره، يُعذّب به يوم القيامة[٣] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر الغلول. فعظَّمه، وعَظَّمَ أمره. وقال (لا أُلفين أحدَكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء)[٤] وفي هذا ما يفيد التهديد بالوعيد، وكيف إذا كان من الله تعالى. وقد بين مثاله النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه أبلغ أثراً في نفوس المؤمنين. مما يبين ويفيد أن بيان وإعلان الجزاء ونشره له أكبر الأثر على ضبط السلوك.

ثم يبين الله تعالى موافاة النفس بما عملت يوم الحساب والجزاء ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وفي هذا تذكير بالمآل والعودة والرجوع إلى الله تعالى يوم الحساب والجزاء، حيث يستوفي كل أحدٍ ما له وما عليه، من دون ظلم لأحد. فهو عدلٌ فيه الحساب والجزاء. واسأل الله تعالى العافية لي وللمسلمين، وأن يغمرنا ربنا تبارك وتعالى برحمته وفضله وكرمه وإحسانه ومغفرته.

ثم يبين الله تعالى حالتين متناقضتين في طاعته جَلَّ جلاله ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فهل يستوي من تابع ما يُرضي الله تعالى في اعتقاده وأقواله وأفعاله ومن عصى فاستوجب غضب الله تعالى عليه؟ وهذا سؤال استفهامي تقريري، ليقرر الْمُخَاطَب بنفسه الإجابة التي لا تكون إلا بالنفي، وهي: لا يستويان.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/١٦٣-١٦٤) برقم (٤٥٦)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤/١١٠) برقم (٦١٠١)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٨٨)

(٤) البخاري (٢/٣٧٩-٣٨٠) برقم (٣٠٧٣)

ليتبين للمُخَاطَب بنفسه مقام الحالتين، وهي من الأساليب التربوية والدعوية المقنعة، ويمكن قياساً عليها والإفادة منها في مقام التعليم وغيره، وفي جميع المجالات المجتمعية. لما في هذا الأسلوب من الإقناع، من خلال إعادة فكر المتعلم إلى الحق بنفسه. كما تضمنت الآية الكريمة أسلوب المقارنة بين حال من اتبع هدى الله تعالى، وحال من اكتسب ما يُوجب سخط الله تعالى وغضبه. وهو أسلوب يدعم التفكير والتأمل والترجيح والاختيار، والاستهداء بالأفضل والأخير.

والآية الكريمة جاءت في سياق بيان من يغل ومن لا يغل، ولكنها مع هذا أفاد توجيهها الكريم العظيم: المقارنة بين عموم الطاعة لله تعالى، وعموم المعصية لله سبحانه عَزَّ وجل. قال الضحاك رحمه الله تعالى: أمَّن أدى الخمس كمن غل؟ فباء بسخط الله تعالى. وقال ابن جرير الطبري مؤيداً ومختاراً لقول الضحاك: لأن ذلك عقيب وعيد الله جلَّ ثناؤه على الغلول، ونهيه عباده عنه(١)

ثم بين تبارك وتعالى جزاء من باء بسخطه عَزَّ وجل ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فمصيره إلى جهنم، ثم وصف العزيز الحكيم هذا الجزاء بأنه ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وكلمة بئس، استجمعت جميع أنواع المذام، أي أنها مستوفية لجميع خصال الذم. وهو من البؤس الذي يمثل وصف سوء الحالة. وهذا الترهيب بالجزاء يربي في الْمُخاطب حبس النفس عن هواها المنافي لرضوان الله تعالى، ويقمع به المؤمنُ ما يطرأ عليه من ضعف قد يحل به عند رؤية مرغوب ومَطْمَعٍ فيه. فتضعف مقاومته له، فإذا تذكر ترهيب الله تعالى ووعده وجزاءه انكفأ عن مراده الخاطئ. وهذا يفيد أهمية بيان العقوبة وحجمها للمعني بها، حتى تكون رادعاً له، وحجة قائمة عليه.

ويوضح العزيز الرحيم منازل الصنفين عنده سبحانه وتعالى ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فالفريقان مختلفان منزلة عنده سبحانه وتعالى، فإن من اتبع رضوانه سبحانه وتعالى له منازل الكرامة والثواب الجزيل، وأما من باء بسخط الله تعالى فله منازل المهانة والعذاب الأليم. فالذين يسعون لمرضات الله تعالى يعطيهم عَزَّ وجل من الدرجان والمنازل على قدر

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٩/٦)

جهدهم وسعيهم، ويعطي الذين سخط عليهم من العذاب بقدر ما اكتسبوا من الإثم. وفي هذا حقيقة العدل بين الفريقين، وبين أفراد كل فريق بحسب ما اكتسب من طاعة أو معصية. وفي هذا ما يدفع المؤمن إلى التسابق نحو طاعة الرحمن الرحيم، وعدم الاقتداء والاكتراث بمن لم يهتم بأمر الآخرة.

ويلي هذا البيان وهذه التوجيهات والمواعظ الكريمة، بيان نعمة البعثة النبوية ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ فيمتن الله تبارك وتعالى على عباده ببعثة رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن ﴿**مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به. كما قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا** ﴾(١) وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بمبعثه صلى الله عليه وسلم.(٢) وكونه من أنفسهم، ما يفيد ويدل على إقامة الحجة، إذ أنه بشر مثلهم، يستطيعون التعامل معه، وفهمه، وأنهم يعرفون حاله بما يرونه وبما رأوه منه.

وكذلك يكون حجة لمن كان بعيداً، وذلك بما سمع عنه ووصله من نبوته عليه الصلاة والسلام، وكذلك حجة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بما بقي من نبوته من الكتاب والسنة، فإن العلم به يكون من خلال ما ينقله أصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ثم يتناقله جيل بعد جيل، بفضل الله تعالى وتوفيقه. فتكون الحجة قائمة على الإنسان ما بقيت الحياة. بل من آيات نبوته هذه العناية الدقيقة بالقرآن والسُّنَّة وسيرته صلى الله عليه وسلم، وسيرة أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٣٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٤٤٧)

وقد بينت الآية الكريمة عظيم امتنان الله تعالى ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بما يقوم به من أعمال النبوة وخصائصها ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم، فيقرأ عليهم القرآن، وكذلك ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وذلك بما يأمرهم به، وينهاهم عنه، فتزكوا نفوسهم وترتقي، وتتطهر من الدنس، ومن خُبث الشرك، وظلامه وضلاله ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهو القرآن الكريم، والسُّنَّةَ المطهرة.

وبينت الآية العظيمة علة الامتنان ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فَقَبْلَ هذه البعثةِ النبويةِ، كانوا في ضلال من الغي والجهل الواضح الْبَيّن الجلي لكل أحد[١] وفي ذكر عموم الضلال، وليس في نوع منه، ما يدل على عمق وسعة مساحة سلطان الضلال الذي ساد حياة أهل الجاهلية بجهلهم للوصول إلى ربهم بما يحبه ويرضاه من الاعتقاد والأقوال والأفعال. مما يدل على نعمة البعثة النبوية الكريمة التي أنقذ الله تعالى بها من آمن بها.

وفي ذكر هذه المهام التي يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم، وامتنان الله تعالى ببعثته صلى الله عليه وسلم، والقيام بهذه المهام العظيمة من تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما يأمرهم به وينهاهم عنه لتزكوا نفوسهم وتعلوا وتطهر، ما يفيد منزلة من يقوم بهذا الأمر، أو ببعضه من بعده صلى الله عليه وسلم، ويدخل في ذلك معلم الناس الخير، والداعية والعالم، وكل ما يقرب العباد إلى الله تعالى.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٣٣)

بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

يعاود السياق القرآني الكريم إلى غزوة أُحد، بعد توجيهات ومواعظ ربانية مباركة، بما يفيد أهمية دعم بيان المواقف بما يناسبها من العلم والتعليم والتوجيه والمواعظ، وشحذ القلوب نحو الطاعة، كما هو السياق القرآني الكريم الذي يستقطع البيان في غزوة أحد بما يناسبها من ذلك. لإظهار أهمية ما قطع البيان من أجله، ولاستثارة النفس بالتشويق نحو المتابعة.

وقد بدأ هذا السياق الانتقالي باستفهام تقريري عن ما أصابهم يوم أحد ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي ما أصابهم يوم أحد، من مقتل سبعين من المسلمين ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أي يوم بدر، حيث قتل المسلمون سبعين من المشركين، وأسروا سبعين منهم ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ فتقولون: من أين جرى علينا هذا؟ من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل؟ وهذا الحال والتساؤل من المسلمين يفيد أن الإنسان قد يغيب عنه ما أخطأ فيه، لذهوله من واقع الأمر الذي أصابه، فيقول الله تعالى لهم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فيبين الله تعالى أن سبب الهزيمة لم تكن إلا بسبب ما حصل منكم، كما جاء التوضيح في آيات سابقات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ ويفيد هذا أن الإنسان بطاعته لله تعالى يسدده ويوفقه وينصره ربه تبارك وتعالى، وأنه بمعصيته تصيبه الخسارة والانتكاسة، ومع ذلك يقدر الله تعالى للمؤمن الخير. لكرمه وجوده ورحمته ورأفته بالمؤمنين سبحانه وتعالى. فإن عاقب فإنما يعاقب ببعض ما اكتسب المؤمن.

وبالرغم من هذا التذكير من الله تعالى عن سبب هزيمتهم التي يتساءلون عنها، إلا أنه سبحانه من رحمته بهم، قد ذكرهم بما امتن عليهم يوم بدر من النصر العظيم، ليكون ذلك تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد. مما يفيد أنه عند ذهول المُخْطِئ عن خطئه، ويُراد تنبيهه على ما وقع منه

من خطأ، ألا تُغلق عليه الأبواب، بل يُجمع له ما بين النعمة عند وقوع الطاعة، والجزاء عند وقوع الخطأ، ليكون ذلك مدعاة للتذكر، والربط بين العلة وموجبها، فيكون ذلك أكثر أثراً وتعليماً له.

ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى على النصر مع قلة وضعف أسباب النصر، وكذلك قدرته على تحقيق الهزيمة مع قوة أسباب النصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن ربكم أيها الناس على كل شيء قدير، وبدون استثناء. وهذه القدرة الربانية تبعث الأمل في نفس المؤمن، من أن قدرة الله تعالى هي الحاكمة، وهي المسيطرة على الأسباب، وليست الأسباب في معزل عن مشيئته وقدرته سبحانه وتعالى. وطالما أن الأمر راجع له عَزَّ وجل، فإنه بالطاعة والاستنصار به، والتقرب إليه، والتوكل عليه يتحقق الخير وإن ضعفت الأسباب ووهنت، وأن في الْبُعْدِ عن الطاعة ما يُبعد الخير والنصر والتأييد عن الذي عصاه وإن قوية الأسباب. فالأمر كله لله سبحانه وتعالى.

وهذا النص القرآني الكريم جاء في سياق الهزيمة والنصر، غير أن دلالة لَفْظَهُ ومعناه عام في كل أمر، وليس مقتصراً على سياق بيان الآية الكريمة فقط، وهذا من عظيم الإعجاز البياني في سياق الآيات العظيمة.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المزيد من الأسباب القدرية في غزوة أحد ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالذي أصابكم لم يكن خارجاً عن إذنه، فلو لم يأذن به لما حصل ما كان قد حصل، وفي هذا مزيد تسلية وتطيب لهم رضي الله تعالى عنهم، كما أن في هذا اللطف من الله تعالى ما يناسب صفاته العظيمة، من أنه لطيف رؤف بالمؤمنين سبحانه وتعالى، فمع التعليم والتنبيه والوعظ، يجمع للمؤمنين ما يفيد حكمته المتضمنة لرحمته.

كما أن في هذا بيان لأقداره سبحانه وتعالى المتضمنة لعظيم حكمته، والتي منها ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليعلم الذين ثبتوا وصبروا ولم يتزلزلوا، وكذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ ففي ذلك تعليم وبيان لكلا الطرفين، ومن ذلك ليظهر المنافقون بما يكون منهم من خذلان، ومن الشماتة

بالمؤمنين، والذي من صفاتهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ ويعني سبحانه وتعالى بذلك عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، وأصحابه الذين رجعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله تعالى عنهم. حين سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين يوم أُحد، فقال لهم المسلمون تعالوا قاتلوا معنا المشركين، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، وكنَّا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال[١] فلم يقاتلوا عن الدين، ولم يدافعوا عن البلاد، ولم يذودوا عن الأهل، ولم يسهموا في تكثير سواد المؤمنين. مما يبين أن من سمات المنافقين التخلي عَمَّا يجب عليهم حال الحاجة إليهم، وخاصة إذا توقعوا أن الضرر قد يلحق بالمؤمنين، فيتراجعون تخذيلاً منهم، وإضعافاً لصف المؤمنين.

ومن دقة السياق القرآني الكريم، أن أورد اللفظتين المعبرتين عن حالين مما يجب على المنافقين، فالأولى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ والثانية: ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ فالقتال مشاركة فعلية في الضرب، وأما الدفع فيكون بتكثير السواد الذي يحصل به دفع العدو خوفاً من الكثرة المهيبة. قال السُّدِّي وابن جريج وغيرهما: كَثِّروا سوادنا، وإن لم تقاتلوا معنا، فيكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدو، فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو[٢] فمن عظيم الفوائد: دقة البيان القرآني الكريم في دلالة اللفظة.

وهذا يفيد خطورة المسلك النفاقي، بالتخلي عن نصرة الأمة عند الحاجة لمن ينصرها، وأن الإيمان الصادق يحقق الثبات على سنن الهدى. كما يفيد هذا أهمية اللحمة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل معهم على الظاهر منهم، بالرغم من علمه بنفاقهم، ولكن الله تبارك وتعالى بينهم بهذه المواقف التي تبين جلالة وعظمة حكمة الله تعالى. وإلا فإن الله تبارك وتعالى عالم بهم من غير الأسباب الموجبة لفحصهم وتمحيصهم، ولكن قضت حكمته عَزَّ وجل أن يحاسب على ما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٢١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٧٠)

يقترف العبد، وكذلك ليعلم المؤمنون حال المنافقين، فيحذروهم، وليحصل لهم بذلك خير كثير من الفوائد التي نجمت عن كشفهم وكشف مسلكهم الخطير على الأمة.

ثم يبين الله تعالى حال المنافقين ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ لأنهم فيما قبل لم يُظهروا مثل ما أظهروا، فكانوا بظاهر حالهم فيما قبل أقرب إلى الإيمان[١] ولكن أصبح ظاهرهم اليوم موضحاً بأنهم أقرب إلى الكفر من الإيمان. أي بينوا حالهم وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق[٢] وهذا يفيد أن واقع الحال يكشف معادن الناس، ويكشف حقائق الإيمان، ومقدار قوته في الإنسان. وأن المنافق متخاذل مع المؤمنين عندما يتوهم أن الدائرة على أهل الإيمان، فإنه سرعان ما يتخلى عنهم.

ثم يبين الله تعالى المزيد من وصفهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فإن هناك مفارقة كبيرة وواسعة بين أقوالهم للمؤمنين وبين ما في صدورهم مما يتكتمون عليه. مما يبين أن القول بأفواههم خلاف ما في قلوبهم. وهذا يعني ويفيد التأكيد البياني على النفاق الذي يحملونه، فيُظهرون خلاف ما يبطنون. ثم يبين الله تبارك وتعالى عظيم وعمق علمه بهم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ فسبحانه وتعالى أعرف ويعرف ما يكتمونه ولا يظهرونه، ومن يعلم مكنون ما يكتمون، فإنه هو العليم العزيز الحكيم الخبير، الذي يجب أن يُطاع ويُعبد. وأن يُهاب مقامه وعلمه الذي أحاط بمكنون سرائر القلوب، فعلمه تبارك وتعالى يخترق ما يكتم ويكن العبد في صدره.

ثم بين سبحانه وتعالى فساد عقيدتهم ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فاعتقدوا أن الذين خرجوا من عشائرهم وقومهم للقتال ولم يسمعوا مشورتهم عليهم بالقعود وعدم الخروج من المدينة،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٤/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧١/٤)

فإنهم لو سمعوا المشاورة وأخذوا بها ما قُتِلوا مع من قُتِل. وهذا يبين أنهم عَوَّلُوا القتل على الأسباب فقط، وهو الخروج مع من قاتل، بحيث لو امتنعوا عن الخروج لما أصابهم القتل وكانوا أحياء معهم. وهذا الاعتقاد الفاسد جعل حكمهم متعلق بالأسباب، حتى يكون ذلك عليهم حسرة في قلوبهم، لأن لكل أحد أجل محدود لا يتجاوزه طرفة عين. بدليل ما أجابهم به سبحانه وتعالى في تمام الآية الكريمة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا جواب، وتصحيح لفكرهم واعتقادهم الخاطئ، بأسلوب يردهم للواقع الذي يعجزون به عن دفع الموت عن أنفسهم إذا جاء الأجل.

والأمر في الآية الكريمة تعجيزي لهم، ولكل أحد ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإذا حان الأجل ومفارقة الدنيا، فعليهم أن يمنعوا ويدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين في تقرير صحة نصيحتهم، بأن من قُتِل لو سمع نصيحتهم ما قُتِل. مما يفيد أن في إعادة الْمُخَاطب أو المعني بالخطاب إلى واقع القدرة والأمر ما يبين خطأ اعتقاده أو فكره ومنهجه. وهذا الأسلوب يفيد في المجال الدعوي والتربوي وفي كل مجال مبني على الحقائق. كما يفيد هذا النهج القرآني على أن حقائق هذا الدين مبنية على البرهان والدليل، بما يثبت أنه من عند الله تبارك وتعالى.

كما أن في هذا تقرير حقيقة اعتقادية، من أن الحذر لا يمنع ولا يدفع قدر الأجل، بدليل أن الإنسان لا يستطيع أن يمنع عن نفسه الموت، ولا يجد من الأسباب ما يدفع عنه الموت إذا حان وقته، فلا يستطيع أن يمد في عمر نفسه لحظة واحدة. ومن فوائد النتائج: أن الذين قعدوا عن القتال لم يأت بعد وقت موتهم حتى وإن واجهوا العدو فلن يموتوا، وأن الذين قُتلوا حان مفارقتهم الدنيا ولو كانوا في منازلهم. وأن من كان موته بسبب من الأسباب خرج وتعرض لتلك الأسباب، وحصل له ما كُتِب له من نهاية الأجل. والعقيدة الصحيحة في هذا تُعطي المؤمن قدراً عظيماً من التوكل والشجاعة القلبية، والراحة والطمأنينة النفسية التي تؤثر على صفاء حياته، وتغرس فيه الشجاعة والإقدام.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ
مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ
فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ
لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي
ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ
وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾

انتقل السياق القرآني الكريم في هذه الآيات العظيمة إلى بيان حال الشهداء، وجاء مطلع الابتداء بنفي الاعتقاد الخاطئ بمن يظن أن الشهداء في سبيل الله تعالى أمواتا بعد أن حصل عليهم القتل، فقال الله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا ﴾ فكان هذا المطلع لإزالة الجهل المركب، من معرفة الحقيقة على غير وجهها الصحيح، ليأتي بعده العلم المؤكد من رب العالمين، الذي هو ﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ ومن فوائد ذلك دعوياً وتربوياً وتوجيهياً: أهمية البدء بإزالة الجهل المركب. ومن الفوائد البيانية: أن لفظة ﴿ بَلۡ ﴾ في السياق تُصحح المفهوم الخاطئ، وذلك بإبطاله وتقرير ما يجب اعتقاده وفهمه، فهي تُؤكد إبطال المعنى

الاعتقادي عند من يظن أن الشهداء أموات، وتقرر ما بعدها بالإثبات، من أن الشهداء أحياء، وهي حياة عند الله تبارك وتعالى. لأن ﴿ بَلۡ ﴾ في هذا السياق تنفي السابق لتقرر اللاحق.

كما أن تخصيص حياتهم بأنها عند الله تعالى، ما يدل على مقام التكريم والعز والشرف، فهو تشريف عظيم، يحظى به الشهداء عند الله سبحانه وتعالى. يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن ﴿ عِندَ ﴾ تقتضي غاية القرب[١] وهذه منقبة عظيمة، ومنزلة كريمة، وفائدة بيانية دقيقة، توضح غاية المنزلة. وهذا يعطي فوائد جليلة القدر، وعظيمة الفائدة: من أن الموت ليس هو نهاية الإنسان، وأن منزلة الشهيد عند الله تبارك وتعالى عظيمة المكانة، وأن هذا يعزز لدى المؤمن محبة الجهاد، واسترخاص النفس لما هو بعد الشهادة، وأن الله تعالى عظيم الكرم والجود، بما أكرم به الشهداء من الحياة والمنزلة العظيمة.

ثم بين الحق تبارك وتعالى ما ينعمون به، فإنهم ﴿ يُرۡزَقُونَ ﴾ فهم يُرزقون بأنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تبارك وتعالى، وكذلك فإنهم ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ مسرورون مغتبطون بما أنعم الله تعالى عليهم من فضله وكرمه وجوده. والفرح لا يكون إلا باغتباط النفس بما تجده، فكيف وقد كان فرحهم بما أعطاهم الله تعالى الكريم من فضله.

والمتأمل في دلالة المعاني يجد عظيم البيان في عظيم المراد. فجعل الله تعالى علة الفرح ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ وأن دلالة ﴿ ءَاتَىٰهُمُ ﴾ تعني أن الفضل يأتيهم إلى حدّهم من غير تعب ولا نصب في طلبه والبحث عنه، ثم تحصيله. فكان دلالة اللفظة عميقة المعنى لوصف الحال. ثم إن دلالة لفظة الفضل ﴿ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ عامة، ولم تكن محصورة في نوع من الفضل، لِتَدُل على جميع أنواع الفضل بأشكاله وصوره وأحجامه ومقاديره التي لا حصر لها، لأن فضل الله تعالى لا حدَّ له.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٥/٤)

وكان قبلها لفظة ﴿ يُرۡزَقُونَ ﴾ التي لم يحدد لها نوع ومقدار من الرزق، لتكون بلا حدود، وليس كما هو في الدنيا. فكان فرحهم غير محصور بنوع دون نوع، أو في وجه دون وجه، بل فرح عام لا حدود له. لأن فضل الله تعالى عليهم لا حدود له. وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن الشهداء (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل)[١] وهذا يفيد أن للبرزخ نعيم عظيم لا يتصوره الإنسان.

وفيما يخص حالهم عن إخوانهم ممن لم يُستشهدوا معهم، فإنهم مستبشرين بهم خيراً، لِمَا وجدوا من فضل الله تعالى ﴿ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فهم فرحون لمن لم يلحق بهم، من أنهم إذا استشهدوا سيجدون ما يسرهم ويفرحهم، وأنه لا خوف عليهم من عقاب الله تعالى، ولن يحزنوا على ما تركوا وراءهم من الدنيا[٢] وهذا يفيد أن أهل السعادة لا ينشغلون بما فاتهم ولا بما أصابهم في الدنيا، وأنه لا حزن عندهم أبداً، وأن الله تعالى يُأَمِّنَهم من عقابه ﴿ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ والخوف متعلق بالقادم، والحزن متعلق بالماضي. فنفى الله تبارك وتعالى عنهم حصول الخوف لهم مما هو قادم، وكذلك نفى عنهم الحزن المتعلق بما تركوا وفاتهم من الدنيا. وإذا انتفى الخوف من القادم، وانعدم التحسر على الماضي اطمأنت النفس، وارتاح البال، وحصلت السعادة.

وكذلك من فرحهم ما بينه قوله تعالى ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فعندما يُقْبِلُون على الله سبحانه وتعالى يفرحون بما أنعم الله تعالى عليهم من عظيم كرمه وجوده، فيجدون أنه عَزَّ وجل قد حفظ لهم ثواب وأجر ما عملوا من الطاعات. وفي هذا الوصف من الله تعالى لحال الشهداء ما يُعزز عند المؤمنين الأحياء تصور حال

---

(١) مسلم (١٥٠٢/٣) برقم (١٨٨٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٧/٦)

الآخرة، وكأنهم ينظرون إليها وإلى أهلها، مما يدفعهم إلى مزيد الطاعة التي تقربهم من خالقهم عَزَّ وجل. ومن الفوائد أيضاً أَنْ ذَكَر اللهُ تعالى استبشارهم بِنعمة منه تبارك وتعالى وفضل. ودلالة الفضل تشمل الزيادة عن اقتصار العطاء على ما يلزم ويجب، لتتحقق النعمة بكمالها. مما يفيد أنهم يستبشرون بنعمة الله تعالى وزيادة عليها، ولو اقتصر العطاء على تحقق النعمة دون الزيادة لكفت، ولكن الله تعالى كريم في كل عطاء، وفي كل مكافأة. فالحمد لله تعالى على أنه كريم ذو فضل عظيم على عباده.

ثم يذكر الله تبارك وتعالى حال الذين أصابتهم الجروح في سبيله ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾ أي: الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد في طلب العدو، وهم منصرفون عن أُحد، وذلك أن أبا سفيان لَمَّا انصرف عن أُحد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره، حتى بلغ حمراء الأسد، لِيُري الناس أن به قوة على عدوهم.(١) حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه (ألا عصابة تنتدبُ لأمر الله، تطلب عدوها، فإنه أنكى للعدو، وأبعدُ للسمع) فانطلق عصابة منهم، على ما يعلم الله تعالى من الجهد(٢)

وفي دلالة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ ﴾ ما يفيد سرعة تلبيتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، فلم يتواروا بالرغم من الجراح والآلام التي كانوا يعانون منها. وفي جملة ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ما يفيد أمرين، الأول: أن ملاحقة العدو بحمراء الأسد بأمر من الله تعالى، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك. والأمر الثاني: أن يكون ملاحقة العدو من اجتهاده صلى الله عليه وسلم، وأن في طاعته فيما اجتهد طاعة لله تعالى. لأنه تبارك وتعالى نسب استجابتهم له ولنبيه صلى الله عليه وسلم. ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾ وقد ساروا على

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٠/٦)

(٢) المرجع السابق (٢٤١/٦)

ما بهم من جروح وألم. فلم يترك الله تعالى الثناء عليهم، بل وعدهم بجزيل الأجر ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فقد وصفهم سبحانه وتعالى بصفتين عظيمتين، هما: الإحسان والتقوى. كما أثبت لهم الأجر العظيم. مما يفيد أن تحقيق الإحسان الذي هو صلاح الأعمال والأقوال إنما هو وفق شريعة الله تعالى، وذلك استجابة للعلي القدير، وكذلك تحقيق التقوى، لما في التقوى من ضبط النفس على مراد الله تعالى، والوقوف عن ما نهى عنه تبارك وتعالى. فالتقوى تستوجب من المتقي الخوف من الله تعالى، ورجاء ما عنده، ومحبته التي تقتضي طاعته عَزَّ وجل. فبالرغم من الجراح والآلام التي يعانون منها إلا أنهم قاموا في ذلك بالإحسان في العمل، وكانت تقواهم تدفعهم لذلك. وفي هذا درس لمن بعدهم في التطبيق العملي للإحسان والتقوى، وذلك في أصعب الأحوال. ثم إن الله عَزَّ وجل أثنى عليهم، وذكرهم في كتابه العزيز، ووعدهم بالأجر العظيم.

ثم يذكر الله تعالى حال تخذيل المخذِّلِين الذين يسعون إلى تحقيق تراجع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن ملاحقة جيش المشركين حين عزم المؤمنون التوجه نحو حمراء الأسد بعد انصرافهم من أُحد، وذلك أن أبا سفيان سأل قوم أن يُثَبِّطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عن أن يلحقوا به، فقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين: أن أبا سفيان ومن معه قد جمعوا لكم ليستأصلوكم ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فكان رد المؤمنين ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فمن فوائد الآية الكريمة العظيمة: أن هناك العدو، وهناك أصحاب المصالح والمنافقون الذين يبثون وينقلون عن العدو ما يريده من وهن المؤمنين وإضعافهم، فتكون صياغة ما يريدون على سبيل النصيحة والشفقة، وهي تحمل ما يريدون به من كسر قوة المؤمنين، مما يجب الحذر والحيطة منهم في كل وقت وحين، وأن النصيحة لا تُقْبَل من كل أحد. كما يفيد ذلك أهمية الربط بين مصلحة الْمُثَبِّط والعدو، وبأنه يجب على المؤمنين التَّحرُّز بكل وسيلة يمكن أن يتحرزوا بها مما يبثه العدو ومراسلوه ومناصروه وكذلك أرباب المصالح.

ثم بينت الآية وصفين كبيرين في عملية التثبيط: الأولى: ﴿ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ والتي تعني وصف القوة التي استجمعها العدو، سواء من كثرة الناس أو من كثرة العتاد، أو بهما جميعاً، دون بيان لحجم القوة، ليتم التوهم عن حال القوة بصور متعددة، فتكون أكثر رهبة في قلوب من وصلت لهم. ثم الوسيلة الثاني: ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ وهي النصيحة المخادعة، فخافوهم واحذروهم، وذلك لإرجاف القلوب. وكلمة الخشية تتطلب الحيطة، التي تستلزم أن لا تواجهوا من قد جمع وحشد لكم الحشود. ولكن كان وقع ذلك على المؤمنين مخالفاً للمتوقع، فأول حصيلة هذا الإرجاف أن ازدادوا به إيماناً ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ فأثبت الله تعالى لهم الإيمان، وأثبت لهم أيضاً زيادته بهذا التخويف والتهويل. فازدادوا به تصديقاً، ويقيناً، وإقامة على نصرة هذا الدين. فكان قوة على قوة، ونوراً على نور. فهم مؤمنون، ومع ذلك زاد إيمانُهم إيماناً.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ أن الإيمان يزيد، وأنه يتفاوت بين الناس قوة ويقيناً، وعملاً وتطبيقاً، اللهم زدنا إيماناً.

وهذا يعطي فوائد عديدة، منها: أهمية الثبات والصبر، وأن الإيمان يزيد بالطاعة لله تعالى، وذلك بالاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما في الآية السابقة لهذه الآية الكريمة، والتي هي ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ كذلك أن قوة الإيمان هي قوة يواجه بها المؤمن المخاوف، إذ أنها تملأ القلب شجاعة وصموداً. وأن المؤمن يزداد بإيمانه طاعة بعد طاعة بتوفيق الله سبحانه وتعالى. فجاء القرار من المؤمنين مخالفاً لما كان يريده العدو ومراسليه ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وجملة ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ بمعنى يكفينا الله تعالى، وجملة ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ تمجيد لله تعالى، أي: نِعْمَ الْمُوكَل إليه أمرنا. فَنِعْمَ من يكفينا ويتولى أمرنا. وكلمة: نعم، تفيد مجامع المحامد والثناء كلها.

فدلالة ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قاعدة عظيمة في حياة المؤمن، لأنها جمعت التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه عَزَّ وجل، وإعلان ضعف قائلها، أمام قوة الله تعالى

وعظمته سبحانه وتعالى، وهي تعني أن كل قوي مهما بلغت قوته فهو ضعيف أمام القوي الكافي سبحانه وتعالى، وهي قوة يستصغر بها المؤمن جبروت الجبابرة أمامها، وأهوال الأسباب القاهرة، وذلك أمام القاهر فوق عباده سبحانه وتعالى. وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن إبراهيم عليه السلام قالها، فهي كلمته عندما أُلقي في النار[1] فنجاه الله تعالى، فتحولت خاصية الإحراق إلى خاصية السلام والسلامة، وقالها صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فانقلبوا بنعمة الله تعالى وفضله.

فهي قاعدة للمؤمن في أحواله، فإذا واجهته مصيبة، استعان عليها بقوله ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن واجهه عدو قال ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن وسوس له الشيطان، انتصر عليه بقوله ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن حَلَّ به كرب، بَدَّدَهُ بقوله ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن أحس بمكر غيره له، استنصر بالله تعالى، فقال ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن أحس أو وقع في ظلم كشفه بسؤال الله تعالى، فقال ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ وإن رأى مؤمناً قد حل به شيئاً من ذلك وعظه وأرشده إلى أن يقول ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ فإنها القوة التي تتبدد بها كل قوة ظالمة. إنها من أقوى أسلحة المؤمن من الله تعالى.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما تَحَصَّلَ عليه المؤمنون الذين ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وقالوا حسبنا الله نعم الوكيل، فقال تعالى عن ما تحصلوا عليه ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٖ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ فلما فوضوا أمرهم إليه سبحانه وتعالى، واعتمدوا بقلوبهم عليه عَزَّ وجل، أعطاهم من الجزاء أربعة معانٍ، فقد حصلوا على: النعمة،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٥٢)

والفضل، وصرف السوء، واتباع رضا الله تعالى، فرضَّاهم عنه، ورضي عنهم.[١] فانصرف الذين استجابوا لله والرسول من بعد القرح الذي أصابهم ومن مشقة سيرهم في إثر عدوهم إلى حمراء الأسد بعافية من ربهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلم يلقوا بها عدواً ﴿وَفَضْلٍ﴾ ما أصابوا فيها من الأرباح، بتجارتهم التي تاجروا بها، والأجر الذي اكتسبوه ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ولم ينالهم بها مكروه من عدوهم، ولا أذى ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وأرضوا الله تبارك وتعالى بفعلهم ذلك. واتباعهم رسوله بما دعاهم إليه باتباع أثر عدوهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾والله ذو إحسان بصرف عدوهم، وغير ذلك من الفضل[٢]

وهذا يفيد أنه بالصبر والطاعة لله تعالى تتحقق النِّعَم والفضل واكتساب رضا الله تعالى، الذي يمد به من أطاعه. لأن الله جَلَّ جلاله وصف فظله بالعظيم، ودلالة العظيم، تفيد الكثير، وتفيد: العز والضخامة والفخامة والمجد. ففضل الله تعالى لا يُحد ولا يُعد. اللهم إني اسألك لي وللمسلمين من فضلك العظيم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى مصدر الخوف وأسبابه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالشيطان يخوف أولياءه من المنافقين والمشركين، فيخوفونكم بجموع العدو، ويلقيه على مَنْ خَوَّفَكُم من المشركين لترهَبُوهُم وتجبنوا عنهم[٣] وفي التفسير: يخوفكم بأوليائه، وأيضاً يخوفكم من أوليائه[٤] فجميع الأوجه تكون وسائل من وسائل الشيطان لتخويف المؤمنين. ويفيد هذا أن الشيطان يكيد للمؤمن بأوليائه من الإنس المشركين والمنافقين والكافرين. مما يجب الحذر والانتباه من ذلك، لأنه عدو مبين للمؤمنين. مما يوجب الحذر

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٠/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٣/٦)

(٣) المرجع السابق (٢٥٥/٦) تلخيص

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٩/٢)

والاعتصام بالله تعالى. ولذلك حَذَّر الله تعالى من ذلك ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ أي إذا سَوَّلَ لكم وأوهمكم، فتوكلوا عليَّ، والجأوا إليَّ، فإني أكفيكم وأنصركم[١]

وفي قَصْر تخويف الشيطان على أوليائه ما يفيد أنه لا يستطيع ولا سلطان له على المؤمنين إلا من خلال أوليائه الذين يُلقي الرعب عليهم بما يريد، فينقلون الرعب والتخويف للمؤمنين على سبيل التحذير. كما قال تعالى عن ولاية الشيطان في سورة النحل ﴿ **إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾** ﴾ وهذا يؤكد ويبين أهمية التوكل على الله تبارك وتعالى، والاعتصام به في كل أمر، وعدم التخوف من الشيطان ووسوسته، ومن أوليائه كذلك. وأن في تقديم الخوف من الله تعالى ما يحفظ ويحرز المؤمن من مكائد الشيطان. وأن الخوف من الله تعالى وتقديمه على الخوف من الشيطان وأوليائه دلالة الإيمان. حيث بين سبحانه وتعالى أن من دلالة الإيمان هو الخوف منه عَزَّ وجل، وعدم الخوف من أولياء الشيطان ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فجعل تبارك وتعالى عدم الخوف من الشيطان وأوليائه أساس وركيزة للإيمان.

ثم يبين الله تعالى حرص رسوله صلى الله عليه وسلم على أن يهتدي الناس أجمعين ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ فيوجه الله تبارك وتعالى رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن لا يحزن ولا يضيق صدره على مسارعتهم في الكفر. وهذا يفيد أن هناك من لا تُجدي فيه هداية الدلالة، مهما كان النصح، ومهما كان الوضوح في الحق، فهو مسارع في كفره، ومسارع في ابتعاده عن دين الله تعالى. وفي جملة ﴿ **يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ** ﴾ بيان لإمعانهم في الكفر وتوغلهم فيه إلى حَد المسارعة، ويقابل هذه المسارعة في الكفر مسارعة في الهروب من الإيمان.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤١/١)

ثم يذكر الله تعالى شأنهم حتى لا يحزن عليه الصلاة والسلام من شدة رغبته وحرصه على إنقاذ الناس من الكفر ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ فكما أن إيمان المؤمن لا ينتفع الله تعالى به، فكذلك كفر الكافر لا يضر الله سبحانه وتعالى في شيء. وجاء في الحديث القدسي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[1] فالله غني عن خلقه، وكذلك يستحيل على المخلوق الإضرار بخالقه، مما يفيد أنهم لن يستطيعوا الإضرار بدين الله تعالى. ولن يتحقق بكفرهم ما يتضرر به الدين. ولا حتى بمسارعة توغلهم في الكفر. لأن جملة ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ تقتضي المبالغة في هروبهم عن الهدى، مع مبالغة التوغل في الكفر والسير فيه. ولذلك فإن الله تعالى لن يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فلن يكون لهم حظاً من النعيم والثواب بسبب مسارعتهم للكفر وعنادهم وبقائهم على الكفر. فسيكون الجزاء كما قال تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فوصف تبارك وتعالى عذابهم بالعظيم، الذي يفيد التناهي والمبالغة في نوعه وألمه وشدته.

ومن الفوائد: أن دين الله تعالى منتصر بإرادة الله تعالى، ولن يستطيع أحدٌ أن يوقفه أو يوقع به ضرراً لم يأذن به الله تعالى، كما أن مسارعة الكافر عن الهدى، والمبالغة في الهروب نحو الكفر لا يتضرر بها الدين، بل المتضرر بذلك هو الكافر نفسه، الذي أعد الله تعالى له عذاباً عظيماً.

ثم يكرر الله تبارك وتعالى ما يؤكد به ضعف قدرة الكافرين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فجاء الوصف لقدرتهم بنفي تحقيق الضرر، والذي يفيد انعدامه كلياً، ولو حتى بجزء منه ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ وفي هذا وصف لضعفهم وهوانهم، لأنهم اشتروا الكفر ودفعوا فيه الإيمان والإسلام ثمناً له. ومن كان هذا فعله فلن ينصره الله تعالى، وقد مَثَّل اللهُ تعالى صورة فعلهم بالمعاوضة في الربح والخسارة التي تظهر في البيع والشراء، بأن يكون الْمُشْتَرَى أكثر انتفاعاً بما اشترى من الثمن الذي دفعه فيما اشترى.

(1) مسلم (٤/١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧)

وهذا يفيد شدة حرصهم على الكفر، كما بينه سبحانه وتعالى في الآية السابقة بسرعة التوغل في الكفر. فكان هذا وصفاً معززاً للوصف الأول، وبوجه آخر، لتأكيد ما هم عليه، وأيضاً تأكيد ما يستحقون من العذاب.

كما أن هذا الشراء للكفر يدل على ابتعادهم عن الله تعالى بالإصرار على الكفر حتى دفعوا الإيمان ثمناً له، ثم يبين الحق تبارك وتعالى أنه لا يتضرر بكفر من كفر، ولا يلحق به عَزَّ وجل ضرر من كفر ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ وهذا يؤكد ويفيد غناه عنهم سبحانه وتعالى، فهو لا يحتاج إليهم ولا لأحد من خلقه، وبالمقابل فهم المحتاجون إليه وإلى غناه وعطائه ورحمته سبحانه وتعالى. وبالتالي يكون توعد الله تعالى لهم بالعذاب عين العدل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو العذاب الموجع.

ثم يبين الله حكمته في إمهال الكافرين، والمدُّ لهم في أعمارهم وفي عدم سرعة مجازاتهم ومعاقبتهم ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ فلا يعتقد ويظن هؤلاء الكافرين أن إملاء الله تعالى لهم، بإطالة أعمارهم وتأخير آجالهم وسلامتهم من القتل هو من باب الخير الذي لحق بهم، بل لله حكمة بالغة في ذلك، كما بينته الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فالحكمة من الإمهال هي: ليزدادوا بذلك التأجيل مزيداً من المعاصي الآثمة التي تستوجب لصاحبها العقوبة بالعذاب المهين، ذو المهانة في الآخرة.

وهذا يبين للمؤمنين حكمة الله تعالى فيما يمد به الكافرين من الآجال والعطاء والغلبة أحياناً، فإنه ليس محبة لهم، ولا نقصاً في حق المؤمنين، وإنما ليزدادوا إثماً بكفرهم، جراء مسارعتهم نحو التوغل فيه، ومعاداتهم لأمر الله تعالى بمحاربته، فيجازيهم بما يستحقون من العقوبة المتوافقة مع جرمهم العظيم.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ

وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ
ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حقائق عن الإيمان، وعن التمحيص المحقق للتمايز بين المؤمنين وبين والمنافقين والكافرين، ومما جاء في سبب النزول أن المؤمنين سألوا أن يُعْطَوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق(١) فنزل قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فينفي الله تبارك وتعالى من أن يترك اختلاط المؤمنين الْخُلَّص والمنافقين دون تميز، حتى يعزل المنافق عن المخلص(٢) فلن يدع الله تبارك وتعالى المؤمنين على ما هم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، حتى يميز ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو المنافق الذي يُبْطِنُ ويُسِرّ الكفر وبين المموَمن الذي وصفه الله تعالى بالطيب ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان. فيبينهم ويجليهم بالمحن والاختبار، كما ميز بينهم يوم أُحد، عند لقاء العدو،

---

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٢/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٥٧/١)

وعند خروجهم إليهم[١] فحكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن يميز المؤمن المخلص من المنافق الكاذب، وذلك بالأعمال الفاحصة والمبينة لحقيقة كل أحدٍ منهم، لتتأكد وتظهر الحقائق بالدليل العملي.

وفي هذا من الفوائد: تجلي وظهور حكمة الله العظيمة في تقديره وتقريره، ومن ذلك منهجه وشريعته عَزَّ وجل في تمييز الخبيث من الطيب. وكذلك من الفوائد أن الْحُكْمَ بين الناس متعلق بأعمالهم وبما يصدر عنهم، وما يجليه ويعريه الفعل والسلوك البشري. وأن المنافق مهما تستر بالإيمان عن الكفر، فلا بد أن فعله يكشف حقيقته وباطنه عند التمحيص والابتلاء.

ومن حكمته سبحانه وتعالى إخفاء الغيب، إذ لم يجعل لعباده مجالاً يَطَّلِعُون به على ما أخفاه وغيبه عهم، ليكون خاصاً به عَزَّ وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فما كان الله لِيُطْلِعَكُم على ضمائر قلوب عباده، فتعرفون المؤمن منهم من المنافق والكافر، ولكن يميز بينهم بالمحن والابتلاء، كما ميز بينهم بالبأساء يوم أُحد[٢]

فحكمته تبارك وتعالى تقتضي أن لا يجعل عباده يَطَّلِعُون على ما فرض فيه الغيب عنهم، ومن ذلك أن حجب عنهم ما يختلج في ضمائر القلوب، وما تُكِنّه الصدور، ولكن يحصل التمايز بينهم بالمحن والابتلاء. وفي هذا الإخفاء من الله تعالى ما تتحقق به مصالحهم، ومصالح الحياة الاجتماعية، إذ لو اطَّلَع المحسود على قلب الحاسد قبل أن يخرج حسده في سلوكه، واطَّلع المظلوم على قلب الظالم، والمسروق منه على قلب السارق مما غَيَّبَه الله تعالى، لكان الناس في بلاء اجتماعي عظيم، ولكن ستر الله عباده بستر الغيب، حتى يَظْهَرُوا على بعضهم البعض بأعمالهم وما يحصل منهم. ويكون الحكم على السلوك لا على ما اختلج في الصدور، فلربما عالج من اختلج في قلبه شرٌ يعالجه، ويكف عنه بتوفيق من الله تعالى.

ومن جوانب رحمته تبارك وتعالى فيما أخفى عن عباده من الغيب، أن غَيَّب عنهم مستقبل أرزاقهم، وآجالهم، ومواطن موتهم، وما أخفى للمؤمنين من قرة أعين. ولو علم الإنسان بما سيحصل عليه من ربح أو خسارة لعاش في قلق إلى أن يحصل له ما ظهر له. ولو علم بموطن موته لما ذهب

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٦٢)

(٢)المرجع السابق (٦/٢٦٥)

لذلك الموطن، ولو علم بساعة موته لما تلذذ بمتاع الدنيا لحظة واحدة. فالشكر لله تعالى في تدبيره وتقديره.

ثم بين الحق عَزَّ وجل أنه يختار ويصطفي من رُسُلِه من يشاء ببعض الغيب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فَيُطْلِعُهُ بالذي أراد من غيبه، كما أطلع النبي صلى الله عليه وسلم على حال المنافقين[١] وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أي إلا من استثناه من رُسُلِه الذي خصَّه بعلمه عَزَّ وجل[٢] ومن ذلك قوله تعالى في سورة الجن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ثم بعد أن بين تبارك وتعالى حكمه في حجب الغيب عن العباد أمرهم عَزَّ وجل أن يشتغلوا بالإيمان ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ مما يفيد أن على المؤمن أن يشتغل بما ينفعه ويترك ما لا يعنيه ولا يخصه ولا ينتفع به. فإن في الإيمان الأجر والثواب العظيم ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فبالإيمان والتقوى يتحقق الأجر العظيم من الله رب العالمين.

ثم يتناول السياق القرآني الكريم الفئة التي تبخل بما أعطاها الله تعالى من الخير، فيبين الحق جَلَّ جلاله شَرَّ ما بخلوا به ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فابتدأت الآية الكريمة ببيان الاعتقاد والظن الخاطئ، والتفسير والحكم الذي جانب الصواب، من أولئك الذين يبخلون بسبب الجشع والخوف من نقص ما عندهم بالإنفاق. فإن علة الإمساك والبخل تَنُم عن تفسير

(١) تفسير الجلالين (٧٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٦٦)

خاطئ لعملية الإنفاق، من أنها سَتُنْقِص الْمُنْفَق منه. نتيجة الاعتقاد بأنهم حصلوا عليه بالأسباب الظاهرة، التي هي بذل الجهد للحصول على المطلوب. ولكن الله تعالى صحح هذا الاعتقاد بأن خص ونسب العطاء له تعالى من زاويتين مهمتين، وهما: الإتيان، والتفضل به ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالإتيان الذي هو العطاء، مصدره من الله تعالى ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وكذلك العين الْمُعْطَاة من الله تعالى، وهي الفضل ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهي جزء من فضله، وهذه من دقة البيان البلاغي للقرآن الكريم. فخالق العين الْمُعْطَاة من مال وطعام وشراب وكساء وحدائق ومملوكات وغيرها هو خالقها ومُوجدها وصاحبها، فالفضل إذاً فضله، ثم هو الذي أعطى العبد ما بحوزته من ذلك الفضل. فمن نظر للأسباب ضاق فهمه وتصوره، وجار في حكمه وقراره، وبالتالي يستحوذ عليه المنع والبخل، ومن أدرك الوجهين في ذلك فقد وفقه الله تعالى، فأخرجه من البخل والشح إلى الإنفاق والبذل، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم موصوف بأنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. بسبب إدراكه الحقيقي للفضل ولصاحب الفضل تبارك وتعالى.

ثم يبين ويُجلِّي سبحانه وتعالى خيرية الإنفاق، وتصحيح اعتقاد خيرية الإمساك ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فلا يعتقد أولئك المسكون عن الإنفاق من فضل الله تعالى هو الخير والأفضل لهم، فيما يحسبون ويظنون من أن في الإمساك تكاثر المال، وأنه بالإنفاق يقل المال وعموم أنواع الفضل ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ فإن في الإمساك شر لهم، على نقيض تصورهم، لأن في الإمساك تطويق لهم يوم القيامة ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مُثِّلَ له يوم القيامة شُجاعاً أقرع، له زبيبتان، يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثم يأخذ

بلهزمتيه، يعني شدقيه. ثم يقول: أنا مالك. أنا كنزك. ثم تلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾[١]

ودلالة لفظة ﴿ سَيُطَوَّقُونَ ﴾ تعني الإحاطة، أي سيحيط بهم ذلك المال الذي بخلوا به، وسيكون التطويق طوق عذاب كما جاء في الحديث. وقيل: طوقاً من نار.

ثم يبين الله تعالى بقاؤه عَزَّ وجل ودوام ملكه ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل ما يتوارثه الناس، سيتركونه خلفهم، وبالتالي فما الذي يمنعهم من الإنفاق والحال هو الترك، والمآل إلى لله تعالى جميعاً. فهو غني عن خلقه، بل إن غيره سينتهي، وإليه المآل يوم القيامة، وحينها لا يبقى لأحد وارث يرثه من بعده. فتبقى المواريث جميعاً بلا وارث، فلا مُلْك لأحد من خلقه إلا هو مالك الملك سبحانه وتعالى، فيرث الله تعالى الأرض بعد فناء خلقه، وزوال تملكهم لما أعطاهم. فربنا هو المالك من قبل ومن بعد، ولكن تنزلاً لسنته الشرعية ولسنته الكونية من التوارث بعد الموت بأن يتناقل الميراث، وإلا هو الذي له الحياة الأبدية وميراث كل شيء ابتداء ونهاية بعد فناء خلقه سبحانه وتعالى، وهذا ما يوجب العطاء في سبيله، دون تردد في ذلك، فمن هذه صفاته وأحكامه وتقديره وعطاؤه فيجب على عبيده طاعته، وتقدير ما هم فيه بما يتناسب مع عظمة الخالق وضعف المخلوق.

ثم تنتهي الآية الكريمة بيان عظيم علمه بأعمال العباد، وهو عِلْمُ دراية وإحاطة وقدرة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهو العالم بكنه الأشياء، والْمُطَّلِع على حقيقتها، والذي لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد. وهذا يستدفع المؤمن نحو استحضار رقابة الله تعالى عليه في عمله وكلامه، وفي عطائه وإمساكه، لينعكس ذلك على سلوكه بالصلاح والاستقامة والبحث عن السلامة ودروبها. فيخشى الله تعالى ويخافه في الغيب والعلانية. مما يبين أن في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته واستحضارها في حياة المؤمن ما يربي فيه خصال الخير، ويبعده عن خصال الشر، ويجعل رقابة الله تعالى مهيمنة عليه وعلى حياته وسلوكه وتصرفاته.

---

(١) البخاري (٤٣٣/١) برقم (١٤٠٣)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان وكشف ما قالت اليهود عن الله تعالى، وبما رد عليهم العليم الخبير سبحانه وتعالى ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم: لما نزل من سورة البقرة: قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ قالت اليهود: يا محمد: افتقر ربك؟ فسأل عباده القرض؟[١] مما يبين جراءة اليهود على القول العظيم، ولكن الله تعالى حليم على عباده، فلا يستعجل لهم العقوبة، لعلهم يتوبون، ولعلهم يستغفرون، ولعلهم يرجعون إلى ربهم بالتوبة والاستغفار. فيخبر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وكذلك المؤمنين أنه سمع قولهم، الذي يَدَّعُون فيه فقر الله جَلَّ جلاله وغناهم، وحاجته لعباده ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ فبين الحق سبحانه وتعالى أنه سمعهم وأنه سيكتب ما قالوا ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ فتضمن كلام رب العالمين التهديد والوعيد بكتابة ما قالوا، وكذلك ما قاموا به من قتل للأنبياء. وفي هذا الربط بين ما قالوا وما حصل من قتل للأنبياء، أن الله تعالى مُحْصِيه عليهم، وأيضاً تذكير بأفعالهم وخساسة تعاملهم مع أنبياء الله تعالى، إلى درجة تجاوز التكذيب إلى مقاومة ومقاتلة الأنبياء، حتى قتلوهم. ولكن الله تعالى حليم في الرد والعقوبة. ثم يُذَكِّرهم الله تعالى بما يُقال لهم يوم القيامة، يوم يدخلون نار جهنم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وفي هذا تقريع وتوبيخ وتحقير وتصغير لهم، بما يستحقون من المهانة يوم القيامة، مع بيان شدة ما ينتظرهم من العذاب.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤٣/١)

ومن الفوائد البيانية في قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أن دلالة معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أنها على جهة الوعيد. بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء. وجعل قتلهم الأنبياء قرينة لقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وهذا إيذاناً بأنهما في الْعِظَمِ إخواناً. وبأن هذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم. وأنهم أصل في الكفر، ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الجرأة على مثل هذا القول.(١)

ثم يبين الله تعالى أن علة هذا الجزاء هو بما اكتسبوا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فتضمنت الآية الكريمة أن هذا الجزاء الذي ينتظرهم هو بسبب ما اقترفوه من عظيم الفعل والاعتقاد، وليس ظلماً من الله تعالى عليهم.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفي تام وقاطع للظلم عن ذات الله تعالى، فليس ربنا بظلام لعبيده، بل يجازيهم بما يستحقون، لقاء ما كسبت أيديهم. وفي نفي الظلم ما يفيد العدل منه سبحانه وتعالى. ومن دقائق الدلالات البيانية أن الله تعالى ذكر الأيدي فيما قدموا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فخص الأيدي ليدل على تولي الفعل ومباشرته(٢) فكان اختيار لفظة الأيدي لدقة بيانية عن معنى مقصود، ودلالة مراده في تعبيرها عن ما قصد الله تعالى بدقة بيانية ودلالية، استطاعت أن تسع مراد الله تعالى لفظاً ومقصداً وغاية. فسبحان من أعجز بيانه خلقه من الإنس والجان.

ونوه الله تبارك وتعالى عن عدله بنفي ظلمه للعبيد جميعاً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهذا التنويه بلفظ العبيد يشمل العاصي والمطيع، فالمطيع يوفيه النعيم بعدله، ولا يبخسه شيئاً مما عمل من الخير، بل يزيده من فضله لكرمه وجوده عَزَّ وجل، وأما العاصي فيوفيه

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٥٩/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٨/٤)

الجزاء الأليم لطغيانه وكفره. وبذلك ينتفي الظلم للعبيد. وهذه من دقائق دلالات الألفاظ، والإعجاز البياني للقرآن العظيم. فلن يساوي بين المطيع والعاصي.

ثم يبين الله تعالى المزيد من قبح كلام اليهود ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ فيخبر الله تعالى عن قول هؤلاء المفترين: بأنه تقدم إلينا من الله تعالى، مع الوصاية لنا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. فلا نصدق رسولاً فيما يقوله حتى يأتينا بقربان، وهو ما تقرَّب به العبد إلى ربه من صدقة. قال عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: فجمعوا بين الكذب على الله تعالى، وحَصْر آية الرُّسُل فيما قالوه[١] مما يفيد الجرأة عند المكابر، حتى يصل به الأمر إلى الافتراء على الله تعالى.

فيأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فقل لهم قد جاءتكم رُسُل من قبل رسالتي بالحجج والبراهين الدالة على صدق نبوتهم، ومنها الذي قلتم وادعيتم: من أكل النار القربان الذي تقبله الله تعالى، فقتلتموهم. فلماذا حصل قتلكم لهم، وأنتم مُقرُّون بأن الذي جاءوكم به من ذلك كان حجة لهم عليكم، إن كنتم صادقين في أن الله عهد إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رُسُلِهِ بقربان تأكله النار حجة له على نبوته؟[٢] قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: والقربان ما تقرب بها إلى الله تعالى من ذبح وغيره. وإنما طلبوا القربان لأنه كان من سنن الأنبياء المتقدمين، وكان نزول النار[٣] علامة القبول وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل يتصدق، فإذا تُقُبِّل منه أُنزِلت عليه نار من السماء فأكلته، وقال الضحاك مثل ذلك[٤]

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٢٩٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٨٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٦٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٨٤-٢٨٥)

وهذه حجة دامغة عليهم وعلى تعنتهم وبهتهم، ودليل على نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ يُخبرهم بما يعرفون ويعلمون، مما لا يعلمه غيرهم كالعرب الأميين الذين ليسوا من أهل الكتاب، كما أن في هذا دليل قاطع على أن هذا القرآن الكريم وحي من الله تعالى على نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يهَوّن اللهُ تعالى أمرهم على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ فلا يُضعفُك ويُوهِنُك تكذيب هؤلاء لك. فلك أسوة بمن قبلك من الرُّسُل الذين كُذِّبُوا مع ما جاؤوا به من البينات، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين، والكتاب المنير أي: الواضح الجلي.[1] وفي هذا البيان من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يهون على نبيه صلى الله عليه وسلم تكذيب أهل الكتاب والمشركين من قومه، وغيرهم ممن لم يستجيبوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الرُسُل قد حصل لهم مثل ذلك، فلا تحزن. وهذا يفيد أهمية التسلية بأحوال الأنبياء والصالحين لمن أصابه ما يكره من مشاق ومصاعب وأذى في حياته عموماً، وفي مجال الدعوة خصوصاً.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤٤/١)

بعد أن بين الله تبارك وتعالى ما حصل من المكذبين والمعاندين والمكابرين من التكذيب والجحود، أوضح وبين جَلَّ جلاله نهاية المطاف بالموت لكل نفس، ثم الحساب والجزاء، بما يفيد أن من كذب وعاند، وأن من صدق وآمن فستنتهي بهم الحياة، وهي موعظة تُثَبِّت المؤمن، وتعظ وتحذر الجاحد بالمآل الذي سيكون عليه الإنسان، فليغتنم العاقل فرصة الإيمان الذي يدخل به إلى المآل العظيم من رب العالمين. فابتدأت الآية الكريمة ببيان شامل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ودلالة ﴿ كُلُّ ﴾ تجمع الجميع، بلا استثناء، فكل نفس ستذوق الموت، وفي هذا تزهيد في الدنيا، وفي الأهواء، وفيما يتكابر الناس فيه، بل فيه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، ليدفع العباد إلى قبول الحق والإذعان له، والتنزه من إيثار الدنيا على الآخرة. خاصة وقد أعقبه الجزاء الوافي في الآخرة ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فكلٌ سيحصل على ما يناسب عمله من الجزاء والوفاء به، وفي هذا بشارة للمؤمن، وتهديد وتحذير للكافرين والظالمين ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ فمن أُبْعِدَ عن المكروه وهي النار، وأدخله الله تعالى الجنة برحمته وعفوه وكرمه، فهو الفائز، لأنه لقي ما يغتبط به من الخير والفضل.

ثم بين تبارك وتعالى الدنيا ومتاعها بما يستجيش القلوب نحو إيثار الآخرة على الدنيا. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ فإن ملذات الدنيا وشهواتها وزينتها وزخارفها غرور وخداع مُضْمَحِل ومنتهي، فلا بقاء له أبداً. وفي هذا من المواعظ ما تنحني عنده الرقاب، وتخشع له القلوب، وتتكسر عنده مطالب الدنيا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ فوصف الله تعالى الدنيا بالمتاع الذي هو كل ما ينتفع به على وجه من الأوجه. ولكن صفة هذا المتاع أنه غرور، والغرور هو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، والغرر هو الخطر[1] فملذات الدنيا وشهواتها وزينتها وزخارفها إنما هو غرور وخداع مُضْمَحِل، بل ومليئة بالفواجع والمكاره والمصائب. وفي هذا ما يفيد الحذر من صفات غرور الدنيا التي تتجاذب الإنسان

---

(١)الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٥٩)

نحو ما يهوي به في الهاوية. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: العيش فيها يُغري الإنسان بما يُمَنّيه من طول البقاء، الذي سينقطع عن قريب. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها.[١] وهذا يتطلب من المؤمن الحذر من غرر الدنيا بشهواتها وزينتها، وما يحمله ويزينه شياطين الإنس والجان. وهذا يتطلب الاعتصام بالله تعالى، وسؤال الله تعالى النجاة من فتنة الدنيا وغرورها.

وهذه قاعدة للمؤمن، يتبلغ بها خير الدنيا والآخرة، ويتجافى بها عن غرورها الفاتن. فإن ظهرت له شهواتها، قال لنفسه ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وإن غره الجاه والمنصب، تَغَلَّب على نفسه بقوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وإن أخذه شيء عن ذكر وطاعة الله تعالى، عالج نفسه بقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وكُلَّ ما واجه العبد ما يُبعده عن الله تعالى والدار الآخرة، انتصر عليه بالتمسك بقوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فهي قوة يتقوى بها المؤمن على شهوات الدنيا وغرورها. اللهم احفظنا بحفظك، واكلأنا برعايتك، ولا تجعل لغرور الدنيا سلطان علينا وعلى إخواننا المسلمين. وسلمنا سالمين إلى جناتك جنات النعيم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما سوف يواجه المؤمن في حياته، ليتخذ لنفسه من ذلك وقاية ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

يخبر الله تعالى عن ابتلاءات الدنيا، من أن المؤمنين سيواجهون في حياتهم أنواعاً من الابتلاءات، والتي منها: الابتلاء في المال، إما بذهابه، أو نقصه، وما يقع فيه من الآفات، أو بحبه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٦٦-٦٧)

وحب الاستكثار منه، أو فيما فرض الله تعالى فيه من الحقوق: كالزكاة والصدقة والنفقة. وكذلك الابتلاء في النفس، بالمصائب والقتل، والجراح، والأسر، والأمراض، والقلق، والاضطراب، والخوف، وكذلك ما يلحق المؤمنين من أعدائهم، من أهل الكتاب والمشركين من الأذى.

ومن الفوائد البيانية: أن في تسمية ما يلحق المؤمنين من أهل الكفر بالأذى، ما يفيد أنه مؤثر، وموجع ومؤلم ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ كما أنه مُتَّصِفٌ بالكثرة ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ مما يوجب توطين النفس، والاستعداد والحذر. كما أن في دلالة ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ ما يفيد استمرارية الأذى اللفظي بالاستماع المستمر له، لأن دلالة ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ يفيد المستقبل. فدخول اللام يفيد المستقبل، والنون تفيد التوكيد، وهو ما يسمعه المؤمنون من أهل الكتاب حتى يومنا هذا. فهذا أمرٌ مؤكدٌ متحققٌ، فسبحان العليم الذي أعلم عباده المؤمنين بما سيكون من مستقبل أمرهم، فكان متحققاً في مستقبلهم. وهذا من آيات الإعجاز. فسبحان العليم الحكيم.

وقد أفادت دلالة ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ الكثرة والتنوع، إذ لم يحدده سبحانه وتعالى بنوع معين، فهو بحسب ما يتمكنون منه. وهذه دقة بيانية، وإعجاز بياني عن حال نفوسهم المؤذية التي لا ينقطع منها الأذى. وكذلك بلاغة بيانية في استيعاب جميع أنواع الأذى المقدور عليه منهم.

كما تفيد دلالة هذه الآية أن الدنيا محطات ابتلاء، وتمحيص واختبار، فكثرة المال نعمة، ولكنه ابتلاء، فما هو فاعل فيه صاحبه من نفقة وصدقة وزكاة، أو بخلٍ وإسراف وصرف في حرام، أو الابتلاء بما يحدث فيه من الخسارة، والجوائح التي تصيبه، وكذلك ما يصيب النفس، في صحتها وفي عافيتها بالأمراض والمصائب، والقلق والاضطراب والخوف، والقتل والموت. وكذلك أنواع من الأذى المسموع من أعداء الدين، من أهل الكتاب ومن المشركين، بما يلمزون به المؤمنين، في أنفسهم ودينهم ونبيهم، وما يتوعدون به.

ثم أرشدهم الحق تبارك وتعالى إلى العلاج الناجع ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فالصبر يقتضي عدم الجزع، ويقتضي الاستمرار على ما أمر الله تعالى به من طاعته، والانتهاء عَمَّا نهى عنه، وفيما يصيب المؤمن في المال والنفس، وما يسمع من الأذى، والابتلاء والاختبار، وظلم الظالمين، والتمسك بتقوى الله فيما أمر ونهى، والعمل في كل ذلك بطاعته سبحانه وتعالى، فإن ذلك مما أمر الله تعالى به ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ والعزم والعزيمة عقد القلب على امضاء الأمر. فإن ذلك الصبر والتقوى من صلابة العزم وظهور رشده، وأن ذلك من عقد القلب الذي أمر الله به. وهذا يبين أهمية الصبر وأهمية التقوى، فهما مما يعزم عليه القلب والإرادة، وأيضاً هو من علامات ظهور الرشد، لصلابته وقوته، وفيه يتنافس المتنافسون على الأخذ به والتمسك بما يحققه، لما في ذلك من الرشد والنجاح والانتصار، فيتحقق بذلك الخير والفلاح. وهذا يفيد المسلم في جميع أحواله، بأن يستعين بالله تعالى، ويعتضد بالصبر والتقوى، فإنهما يجعلان الأمور في رشاد وصواب ونجاح بتوفيق الله تعالى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

تبين الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ على أهل الكتاب من الميثاق على أَلْسِنَة الأنبياء ما يلزمهم من البيان بشأن نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ بأن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن يبينوا وينوهوا بذكره للناس، حتى يكونوا على أُهبة من أمره، فإذا أرسله الله تعالى تابعوه، فكتموا ذلك واستعاضوا بهذا الخير العظيم الحظ الطفيف

والسخيف من أمر الدنيا، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم[١] مما يوضح ويبين تعمدهم الإخفاء، وتعمدهم مخالفة الله تعالى وأنبيائه المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فتضمنت الآية الكريمة أموراً عظيمة، والتي منها: أخذ الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو العهد، الذي بين الله تعالى وبين أهل الكتاب في شأن الإيمان والبيان بأمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ بأن تظهرونه للناس، وتبينونه، وتعلنونه، وأكده عَزَّ وجل بالنهي عن ضده ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ بما يفيد التحذير عن السكوت عنه، وإخفائه.

وهذا يفيد أهمية أداء المواثيق مع الله تعالى فيما عهد به لأهل الإيمان على لسان أنبيائه وأخرهم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، من العلم بالحلال والحرام، وما يجب عليهم، وما عهد به لأهل العلم، الذين هم ورثة الأنبياء، وما عهد به للناس فيما بينهم، وما عهد به من الحقوق بحسب درجات العلاقة بين العباد، في الأسرة والأقارب والجيران، والمعارف، وغيرهم كأهل الذمة. فإن عهد الله تعالى عظيم، حتى لا يكون المسلم مُضيعاً للمواثيق كما ضيعها أهل الكتاب.

ومن الأمور العظيمة في هذ البيان هو شأن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي نوه به فيمن سبقه من الأنبياء والكتب والأمم السابقة، مما يفيد ويدل على منزلة ومكانة هذا النبي العظيمة صلى الله عليه وسلم، ومنزلة هذا الدين العظيم الذي ختم الله تعالى به الرسالات السماوية. كما تناولت الآية الكريمة ما كان يجب على أهل الكتاب من البيان، وما يجب أن يحذروا منه من الكتمان، فجاء البيان لهم بصيغة الأمر التأكيدي ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فأكد عليهم وجوب بيان ما جاء في الكتاب، واجتناب كتمانه. فهما أمران: الأول: وجوب بيان، والثاني: نهي عن الكتمان، وكلاهما لأداء واحد، ولكن من أجل زيادة التوضيح والتأكد بالأمر على ما يجب، مع

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/١-٤٤٦)

النهي عن العمل بضده. فيدلان على الأهمية، والمسؤولية العظيمة، وهذه من الدقائق البيانية العميقة لألفاظ القرآن الكريم، ومقاصدها الدلالية.

ثم وصف الله تعالى تعاملهم مع هذا العهد بأقبح الأوصاف، مما يفيد التوبيخ والتهديد لأهل الكتاب ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ أي: طرحوه ووضعوه فيما لا يليق من الإهمال المتعمد، وهي مبالغة في الترك والمخالفة، بأن نبذوه وطرحوه خلفهم، ولم يُبالوا به، ولم يلتفتوا إليه تهاوناً وتطاولاً، وحسداً، وكان الأولى وضعه نصب أعينهم. وهذا يفيد التوبيخ الشديد والعظيم لأبشع صورة الإهمال لميثاق الله العظيم. بل ومن المبالغة في تماديهم أن صور الله عملهم بعملية البيع والشراء، لما فيهما من المعاوضة والربح والخسارة ﴿ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وقد ورد الإيضاح بعملية الاستبدال والاستعاضة التي تحملها دلالة ﴿ يَشْتَرُونَ ﴾ بما يبين للمُخَاطب عُمْق الخسارة التي أوقعوا أنفسهم فيها، وعمق خسارة الآخرة التي يتعمدون تحقيقها لأنفسهم من أجل مكاسب الدنيا القانية، وتقديمها على الآخرة، وذلك بحسب رؤيتهم القاصرة. بما ينبه ويحذر من مثل هذا المسلك الذي حدث من أولئك، وبما يفيد وجوب أن يتعظ المؤمن من غيره بما سمع وعَلِمَ.

بما يبين للمُخَاطب عُمْق الخسارة التي يحسها فيها ويراها أثناء عملية معاوضة البيع والشراء، فيكون لها الأثر الكبير في استيعاب المقصود، مع الدلالة على عمق خسارة الآخرة التي يتعمدون تحقيقها لأنفسهم، بالاستعجال الخاسر. بما ينبه ويحذر من مثل هذا المسلك الذي حدث من أولئك.

وفي وصف هذه المعاوضة بقوله تعالى ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ما يحمل كل الذم للفعل السلوكي الذي سلكوه، لأن كلمة ﴿ فَبِئْسَ ﴾ تحمل جميع معاني الذم. فبئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من نقض الميثاق، وطرحه وراء ظهورهم، وإخفاء ما أُنزل إليهم في الكتاب من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عَمَّا كان مطلوب منهم من تصديقه ومؤازرته ونصرته.

ثم يكشف الله تعالى المزيد من أخلاقهم ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴾ لا تعتقد وتظن أن هؤلاء الذين يفرحون بأفعالهم القبيحة، وهم يحبون أن يمدحهم غيرهم بما لم يفعلوا مما هو واجب عليهم، أنهم سينجون من العذاب، بل إنه واقع بهم ومدركهم إدراكاً لا مفر لهم منه.

قال الإمام الطبري رحمه الله: عُني بذلك أهل الكتاب الذين أخبر الله جَلَّ وعزَّ أنه أخذ ميثاقهم، لَيُبَيِّنُنَّ للناس امر محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولا يكتمونه[١] وقيل ذلك أن رجالاً من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا عاد وقدم من غزوته عليه الصلاة والسلام اعتذروا إليه، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا[٢] ولا يمنع اشتمال معنى الآية للأمرين معاً، لأنهما منهج سلوك، قد تضمن الكذب والكتمان والامتناع، ومحبة المدح والثناء على تَمَتّعِهِم الخسيس الكاذب، وسواء كان في إخفاء ما يعلمون من نبوته صلى الله عليه وسلم، أو أعذارهم في مشاركتهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

فيبين الله تبارك وتعالى حقائق عن هؤلاء المنافقين، الذين تلبسوا بأمرين متناقضين، وهما: الكذب، والاستئناس والفرح بما يكذبون، فجمعوا بين متناقضين خسيسين. بل من مزيد القبح السلوكي أنهم يحبون أن يُمدَحوا بالخير الذي لم يفعلوه، بل فعلوا نقيضه. فهؤلاء موعودون بعذاب أليم ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ فليسوا بناجين من عذاب الله تعالى، الموصوف بالأليم. وكفى به وصفاً لنوعه وشدته. ثم يؤكده تبارك وتعالى ببيان شدته، فقال عَزَّ في علاه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن لهم عذاب شديد في أثره عليهم، من قوة ما يتألمون منه وبه.

---

(١)لطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٣٠٠)

(٢)المرجع السابق (٦/٣٠٧)

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: ويدخل في هذه الآية الكريمة، أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك كل من ابتدع بدعة، قولية أو فعلية، وفرح بها ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره باطل.(١)

ويُستفاد من هذا خطورة الظنون والوهم النفسي الخاطئ في القول والفعل، فيعيش الإنسان متوهماً أوهاماً تهوي به في سخط الله تعالى. فيتوهم ويفرح الخائن في دين الله تعالى بتدليسه، والمارق في تجارته بالحيل المحرمة، وكذلك المماطل للناس في حقوقهم بالحيل، التي يظن بها أنه من الأذكياء الفطنين، فيفرح بسلوكه، وربما رَغِبَ من غيره أن يمدحه بفعله الذي ظن أنه ذكاء وفطنة، وهو سوء عمل، وسوء تقدير. فإنها قاعدة تربوية عظيمة لتوعية النفس وإيقاظها من وهم غفلتها في جميع الأعمال والتصرفات.

ثم يبين الحق تبارك وتعالى عظيم ملكه، وهيمنته وسلطانه وقدرته، وعظيم شأنه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإن ربكم أيها الناس هو الذي له مُلك الكون كله، مما حوته السماوات والأرض، وهو القادر على كل شيء. فمن كان ملكه كذلك، فهو الغني عن غيره، وأن غيره فقير إليه، وهو المولى، وغيره عبدٌ له، وهو الذي يفعل ما يشاء، وغيره مفعول به بما شاء سبحانه وتعالى، وهو القادر على كل شيء عَزَّ وجل، وغيره عاجز عن فعل ما يشاء، بل ومفتقر لقدرة القدير ذو القدرة الكاملة سبحانه وتعالى. وفي هذا تربية للنفس، وإيقاظ للفكر، وتنبيه للغافل، وتصويب للمتكبر، والمعجب بنفسه. فهي موعظة واعظة للنفس، ومربية للمرء، وقاعدة له فيما يواجه، فإن أُعجب بما عنده، قال لنفسه ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وإن رأى غيره أحسن منه، هذب عينه بقوله ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وإن احتاج شيئاً توجه للذي له ملك السماوات والأرض، وقال لنفسه ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهي قاعدة جليلة، يمتد سلطان أثرها إلى الفكر والنفس، بتربيتها التربية الصالحة.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٠٢/١)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
(١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ
ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى
لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى لفت الانتباه نحو عِظَم وسعة خلق الله تعالى، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوها عند استيقاظه من نومه، فقد جاء في الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: (بت عند خالتي ميمونة، فقلت لأنظر إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم في طولها. فجعل يمسح النوم عن وجهه، فثم قرأ الآيات العشر الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم ....)(١)

قال تعالى في مطلع تلك الآيات ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فأكد الله تعالى أن في خلقه وتكوينه للسماوات وللأرض آيات وعلامات ودلالات وحجج وبراهين لأهل العقول المتأملة والمتبصرة التي تستدل بما ترى وتشاهد، فتعتبر بهذا الكون العظيم على عظمة الخالق الكريم. وربط تبارك وتعالى بين أولي الألباب وبين الاعتبار بملكوته العظيم ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وصفة أولي الألباب يستبعد منها الطيش والغفلة عمَّا في السماء والأرض من عظيم الآيات الباهرات، مما يفيد أهمية التأمل

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢١٣/٣) برقم (٤٥٧٠)

والتفكر، بالنظر والاستدلال على عظمة الخالق المبدع البديع الذي أبدع السماوات والأرض، والذي يقود بتلك الآيات إلى اليقين، بما في السماء من ارتفاع عظيم، وما فيها من الكواكب المضيئة البديعة في كل ارجائها الواسعة العظيمة، فأينما كان وأينما ذهب وسار السائر على الأرض رآها مضيئة متلألئة، كما بسط الأرض وجعل فيها الرواسي والفجاج، ليسلك السائر فيها إلى حيث يشاء، وكذلك ما أودعه فيها من خيرات وثمار، وما سخره للإنسان من حيوان ونبات، وزودها بالمياه في كل مكان، ولا حاجة يحتاجها الإنسان لمعاشه وحياته إلا كان وجودها بقدر حاجته إليها، فكلما ازدادت حاجته زاد وكثر وجود ما احتاج إليه، فلما أن حاجة الإنسان إلى الهواء لا تنقطع، كان وجوده معه أينما حل وارتحل، حتى لا يستطيع أحدٌ أن يحجبه عن أحد، ولما كانت حاجة الإنسان إلى الماء بين الفينة والفينة، كان وجود الماء كذلك. ولما أن حاجته تتنوع في المطاعم، فقد نَوّع الله تعالى له الطعام أنواعاً لا حصر لها، وبمذاق يعجز عن حصر درجاتها الإنسان، كما نوع له الأحجام والألوان، بما يعجز عن حصرها الأنسان، فمن جانس بين حاجة هذا المخلوق وما هو موجود؟ أدرك عظمة ربه تبارك وتعالى الخالق العظيم. وأنه لا معبود بحق إلا الله العزيز الحكيم.

وإن تأمل في لطافة السحاب وانتقاله بين السماء والأرض كان أمره عجباً، فإنه مع خفته ولطافته إلا أنه ينزل على الأرض نزولاً لا يتضرر به الإنسان، بل بمقدار ومقياس، حتى لا يزيد فتغرق به الأرض، ولا يقل فيعطش به الإنسان، بل بقدرٍ يتحقق بنفعه الزرع والإنسان والحيوان. ثم تحتفظ به الأرض في بطنها من أجل هذا الإنسان، بل وتحافظ عليه في غير منأى عن هذا الإنسان. فمن قدَّر هذا؟ ومن عَلَّم الإنسان ودَلَّه على أن الماء في جوف الأرض محفوظاً له. أليس هو الله سبحانه وتعالى. فسبحان من خلق وأعطى وقَدَّر فسخر.

كما لفت الله تعالى إلى آية اختلاف الليل والنهار ﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي تعاقبهما، وتبادلهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا، ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك

تقدير العزيز العليم الحكيم[١] فمن قدر هذا؟ أليس هو خالق هذا الكون بدقته المتناهية، وإبداعه على غير سابق له. فسبحان الله العظيم، بديع السماوات والأرض.

فالمتأمل في تداخل الليل مع النهار يجد أن الله عَزَّ وجل يحمل الليل على النهار، ويغشي هذا بهذا، وهذا بهذا، في تعاقب متتالي لا ينقطع، ولا يتغير. ومن ذلك أنه يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، ويُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[٢] وكذلك من يتأمل تدرج دخول الليل في النهار، وتدرج دخول النهار في الليل بدقة غاية في النظام والإعجاز. فإن الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ هو الذي يستحق إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، وأنه القوي الذي لا يعجزه شيء أبداً، فإن قوله إذا أراد شيئاً أن يقول للشيء: كن فيكون.

وقد دلت الآية الكريمة على أن الذي ينتفع بهذه الآيات هم أولي الألباب، الذين من صفاتهم: قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ فهم يذكرون الله تعالى في ثلاث هيئات: فلا يقطعون ذكره سبحانه وتعالى في جميع أحوالهم، التي هي: القيام، والقعود، والاضطجاع. ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، وإن لم يستطع فعلى جنبه. فشمل ذكرهم لله تعالى كل أحوالهم، ولجميع أنواع ذكره عَزَّ وجل، فعلاً وقولا واعتقاداً، فيدخل في ذلك الصلاة وغيرها من الذكر، كالتسبيح والتهليل والحمد والتكبير. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه الذكر في الصلاة وغيرها، وهو قول طائفة من المفسرين[٣] وهذا يفيد أهمية الذكر في كل الهيئات المذكورة للإنسان، وأن لا ينقطع المسلم عن ذكر الله تعالى قياماً وقعوداً واضطجاعاً، كما يفيد سعة هذه الشريعة الغراء، ورحمة الله تعالى الواسعة، إذ أباح وأتاح للمؤمن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤٧/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٤/٥-٣٠٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٢/٢)

أن يذكره في تنوع هيئاته، فيكسب بها الأجور العظام، من غير مشقة ولا عناء، مما يدل على سماحة هذا الدين، وعلى رحمة الله تعالى، فهو الرؤف الرحيم، تباركت أسماؤه وصفاته.

وكذلك من صفات أولي الألباب التفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مما يدل على أهمية التفكر والتبصر والاستدلال بهذا الخلق العظيم على الخالق الأعظم، فإذا كانت عظمة مخلوقاته بهذا القدر العظيم، فكيف بعظمته سبحانه وتعالى، فمهما عَظُمَت مخلوقاته، فإنها تتصاغر عند عظمته تبارك وتعالى. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى قول الحسن البصري رحمه الله تعالى: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقال الفضيل: قال الحسن رحمهما الله تعالى: الفكرة مرآة، تُريك حسناتك وسيئاتك، وقال سفيان رحمه الله تعالى: الفكر نور يدخل قلبك، وربما تمثل بهذا البيت: إذا المرء كانت له فكرة .... ففي كل شيء له عبرة[١]

ويقولُ أُولي الألباب استنتاجاً مما يرون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فَلَمَّا تفكروا، تيقنوا أن الله تعالى خلق هذا الخلق العظيم لحكمة عظيمة، ولم يخلقه بلا هدف ولا غاية؛ فيكون خلقاً باطلاً. بل دلت مخلوقاته على أن هناك هدفاً وغاية من هذا الخلق العظيم، لأن التفكر في مخلوقات الله تعالى يزيد من الإيمان والتقوى، لما فيه من بديع الإنشاء وجمال الصورة، وعظيم الخلائق في أبعادها وأشكالها ومساحاتها وهيئاتها وصورها ونظامها وتنظيمها.

كما أفادت الآية الكريمة في صياغتها وبنائها: أن إثبات الحق جاء بنفي الباطل ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فتحقق إثبات ما هو ضده، وهو الحق. فاستدلوا بهذا الخلق العظيم للسماوات والأرض على قدرة الله تعالى، ثم تنزيهه عَزَّ وجل فيما خلق عن كل باطل، فما خلق الخلاق العليم ليس عبثا ولا هزلاً، ولا باطلاً ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك يا رب أن تخلق هذا باطلاً، بل إنه دليل على عظمتك وقدرتك وسلطانك وحكمتك يا الله. فيا من تنزه عن العبث

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٤٧)

والباطل إلى الحق والعدل أجرنا من عذاب النار ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وبالتالي تحَقَّق عندهم الإيمان بالبعث، وبالجزاء، والعذاب، وكذلك الإيمان بالنار وعذابها، وتحقق عندهم أن من يدخلها فقد كان مَخْزِيًّا ذليلاً عند الله تبارك وتعالى ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أي: من أدخلته النار فقد أهنته، ووقع عليه الذل والصغار، والْهتك والفضيحة، وأبعدته ومقتَّه. فأدرك أولي الألباب حال من دخل النار، وما وقع فيه من الخزي والفضيحة والهتك، فاستعاذوا بالله تعالى من ذلك. مما يبين أن هذه الآيات قد اشتملت على عظيم البيان. اللهم يا الله قنا عذاب النار برحمتك ولطفك يا أرحم الراحمين.

ثم عرفوا أن الظالم لا نصير له، ولا مخرج له من عذاب الله تعالى ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ فليس للكفرة من يُجيرهم وينصرهم من عذبك يا ربنا. فقد انتفى عنهم كل ملجأ ومنجى مما أعدته لهم من عذاب النار.

ثم ذكروا أنهم سمعوا نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيمان ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ فقد سمعنا داعياً يدعو للإيمان، وهو نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فابتدأوا مناجاتهم لله تعالى بقولهم ﴿ رَّبَّنَآ ﴾ تقريراً لربوبيته وألوهيته، واستعطافاً واستلطافاً له سبحانه وتعالى، وتذللاً له تبارك وتعالى، مما يُعَلِّمُ المسلمَ كيف يناجي ربه سبحانه وتعالى، وكيف هو حال التذلل والاستعطاف والاستلطاف له جَلَّ جلاله. ثم بينوا محتوى ومضمون نداء هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ فهو يدعوا للإيمان بربنا تبارك وتعالى، وقد استجبنا له ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ يا ربنا، وكلمة ﴿ مُنَادِيًا ﴾ من جملة ﴿ سَمِعْنَا مُنَادِيًا ﴾ تفيد وتصف: صفة ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من قوة الاجتهاد في أداء الرسالة حتى وصفوه بالنداء. فإن دلالة ﴿ مُنَادِيًا ﴾ تفيد معنى الشخص الذي ينادي في الناس بصوت عال ليخبرهم بما معه ﴿ مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ ويقول الزمخشري رحمه الله

تعالى: أن ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من منادي ينادي للإيمان.(١) اللهم صل على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، الذي بلغ الرسالة بكل ما أوتي من قدرة حتى تم وُصِف أدائه لواجب الرسالة بالمنادي الذي ينادي بها للإيمان.

ثم بهذا الإيمان وبهذا الخوف من عذاب الله تعالى يسأل أولوا الألباب المغفرة ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ فطلبوا ثلاثة مطالب: مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، وحُسن الخاتمة، وأن يلحقهم بالصالحين. يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن طلب المغفرة وتكفير السيئات: هذا تأكيد ومبالغة في الدعاء، ومعنى اللفظين واحد، فإن لفظ المغفرة والتكفير بمعنى الستر(٢) مما يفيد أهمية الإلحاح في الطلب والتأكيد عليه في الدعاء، وفي مناجاة الله تعالى وسؤاله.

وفي قولهم ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي أقبضنا إليك في عداد الأبرار، واحشرنا محشرهم ومعهم. والأبرار: جمع بر، وهم الذين بروا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إياه، حتى أرضوه، فرضي عنهم(٣) والأبرار هم الأنبياء والصالحون، وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما(٤)

وتضمن هذا الدعاء كذلك ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فسألوا الله تبارك وتعالى، ما وعدهم على لسان الرُّسُلِ الذين أرسلهم الله تعالى لعباده، وهو الفوز بالجنة. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعنون الجنة.(٥) ويشمل ذلك كذلك النصر على الأعداء، وإعلاء كلمة الحق. كما طلبوا منه تبارك وتعالى النجاة من

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٦٧/١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٢/٤)
(٣)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٦/٦)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٣/٢)
(٥) المرجع السابق (٧٣/٢)

خزي يوم القيامة ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فلا تُهِنَّا ولا تفضحنا ولا تمقتنا يوم القيامة، وفي ذلك التجاء إلى الله تعالى بأن يسمح عما يحصل من الزلات والتقصير، فلا يؤاخذهم بذلك، ثم ينتهي الدعاء بتمجيد الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ففي هذا ثناء على الله تعالى، بإثبات ما وعد به، وكذلك التصديق بما وعد، من خلال نفي المخالفة لوعده وتنزيهه عن ذلك سبحانه وتعالى، فإنك يا الله، يا عظيم: صادق فيما وعدت به يوم القيامة من الحساب والجزاء، وما فيهما من العذاب والنار، والفوز بالجنة والرضوان. وفي هذا ما يفيد تأكيد إيمانهم بالغيب، وبما وعد الله تعالى به في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

ثم يبين الله جَلَّ شأنه استجابته لأولي الألباب الذين كانت تلك صفاتهم، وتلك دعواتهم وسؤالهم له سبحانه وتعالى ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب. وقال تعالى ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفوراً. فكلكم على حد سواء [١] فجميعكم في ثوابي سواء. ذكراً كان أو أُنثى.

ثم بين الحق تبارك وتعالى ثواب الذين تكبدوا في سبيله الهجرة من أوطانهم، وتحملوا إخراج العدو لهم، متمسكين بدين الله تعالى، ولم يثنهم ذلك عن لزوم الطاعة، وتحملوا الأذى في

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٠٦/١)

سبيل الله تعالى، وقاتلوا العدو، وقُتِلُوا في سبيل الله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أن المؤمنين ذوي الألباب، لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره، فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك، بفاء التعقيب ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فقال لهم، مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أنثى. وقوله ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: جميعكم في ثوابي سواء ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي: تركوا دار الشرك، وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى الجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم. ولهذا قال ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده. وقوله تعالى ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فهذا أعلى المقامات، أن يقاتل في سبيل الله تعالى فَيُعْقَر جواده، ويعفر وجهه بدمه وترابه. فهؤلاء ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فيدخلهم الله تعالى جنته التي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم نسب سبحانه وتعالى ذلك الثواب له عَزَّ وجل، وعطاء منه لهم(١) ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فأضاف الثواب إليه، ونسبه إليه. وكذلك العطاء منه جَلَّ جلاله، ليدل على أن ثوابه عظيم في مقداره ونوعه، وبهذا فهو عظيم سبحانه وتعالى، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا عطاء جزيلاً كثيراً. وأن أحسن الجزاء عنده سبحانه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٥١/١)

وتعالى هو لمن عمل صالحاً. وفي هذا استحثاث للمؤمنين للعمل والإخلاص له تبارك وتعالى، ابتغاء أحسن الثواب وأتمَّه وأكرمه.

وفي قوله تعالى ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي: سترها عليهم في الآخرة، فلا أظهرها ولا أُوبخهم عليها بها، ولا أعاقبهم عليها. وفي هذا دليل على مغفرة الله تعالى لمن استجاب لأوامره ونواهيه، تفضلاً وكرماً منه تبارك وتعالى.

ومن الفوائد تعداد وتفصيل أعمالهم من الهجرة والإخراج والإيذاء والقتال والقتل، ما يفيد تعظيم وتفخيم أعمالهم بالتفنيد والذكر على سبيل التعداد والتمجيد لهم ولأعمالهم في سبيله عَزَّ وجل. وهذا دليل على أنه شكور حليم سبحانه وتعالى، كما في سورة التغابن ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وهذا يفيد ويبين عناية أساليب القرآن الكريم بالجوانب النفسية، وذكر المحامد والثناء عليها. وهذا يؤكد أهمية الثناء على المحسن والإشادة بما قام به، لما في ذلك من الحق المعنوي، الذي يؤكد ويبين أنه محل عناية وتقدير. وهو من عمل الكرام، فكيف والقائل والذاكر لأعمالهم هو أكرم الأكرمين، وأعز وأغنى من سُئِل وأكرم من أعطى وأجزل سبحانه وتعالى.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

يوضح ويبين الله تعالى واقع تَبَسُّط وتَنَعُّم الكفار في الدنيا، من خلال تصحيح المفهوم عن حالهم، وما هم فيه من ترف وسرور ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ فلا أحد ينخدع بحالهم، وتصرفهم في الأرض، وضربهم فيها، بما يستمتعون به من التنعم والترف. وفي هذا ما يفيد تصحيح ما قد يدركه الذهن من الواقع المخالف للحقيقة الأصلية. فبعد النهي عن الغرور بما هم فيه، فإن النفس تود وتشتاق إلى معرفة المزيد عَمَّا وراء النهي، فيبين الله تعالى الإيضاح الشافي الكافي، الذي يفسر علة النهي عن الغرور والاغترار بواقعهم، فيقول تعالى ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ

مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بوصف واقع هذا التقلب في الأرض، وضربهم فيها، وما يستمتعون به من التنعم والترف. من أنه قليل ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ لأن مَرَدَّه للزوال، فعن قريب يزول هذا كله عنهم، فيرتهنون بأعمالهم السيئة. فيكون تقلبهم متاع قليل مهما بلغ إذا قورن بمتاع الآخرة الذي لا حظ لهم فيه، وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن تقلبهم في البلاد وتصرفهم فيها مُتْعَةٌ يُمَتَّعُون بها قليلا، حتى يبلغوا أجلهم، فتخترمهم مناياهم[١] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وسماه قليلاً لأنه فَانٍ، وكل فَانٍ وإن كان كثيراً فهو قليل[٢] لأن الاستمتاع به قصي، ومحدود الأجل والزمن. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: هو قليل في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعده الله تعالى للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه، لانقضائه، وكل زائل قليل[٣] وقد اشتمل دلالة المعنى على جميع تلك الأوجه، لأنها جميعها متحققة فيهم وفي متاعهم الزائل. فسبحان من استوعب كلامه أوجه المعاني ذات المقصد الواحد.

ومن الفوائد: أن الكفار غير مُنْعَّمٍ عليهم في الدنيا، وإن كان ظاهر حياتهم مليئة بالاستمتاع، لأن حقيقة النعمة، الخلوص من شوائب الضرر العاجل والآجل، ونعمة الكفار مشوبة بالآلام النفسية والاضطراب، والعقوبات، فصار كمن بين يديه حلاوة من عسل، ولكنها مخلوطة بالسم. فلا يُقال لآكله مُنْعم عليه، وإن استلذ به، وهو فيه هلاك روحه.[٤] ومن الفوائد عدم الاغترار بالظاهر، وبالزائل، وأن العاقل يؤثر الباقي والدائم على الزائل، ويسأل الله تعالى البصيرة المباركة، التي يرى بها الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه.

وكذلك بينت الآية الكريمة نهاية مأوى الكافرين ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فالموضع الذي يأوون إليه يوم القيامة هو جهنم. وبئس الفراش والمضجع. ودلالة كلمة

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٥/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٤/٤)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤٧٠/١)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٤/٤)

﴿بِئْسَ﴾ تشمل جميع المذام، فقد استوفت جميع خصال الذم. وهو من البؤس الذي يمثل وصف سوء الحالة. ومن دلالة لفظة ﴿ٱلْمِهَادُ﴾ ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي: ما مهدوا به لأنفسهم بكفرهم، وما مهده الله تعالى لهم بكفرهم من النار[١] . وفي ذلك أشد التوبيخ لكفرهم، والوعيد الأليم، الذي يبين للمؤمنين حقيقة تقلبهم وتمتعهم في البلاد. وأن لا يغتر العاقل بما هم فيه وعليه من استباحة المحرمات.

ثم يُثبت الله تعالى حكماً للمتقين، مغايراً ومناقضا للكافرين، لأنهم أهل طاعته سبحانه وتعالى، فابتدأت الآيةُ الكريمةُ بأداة الاستدراك ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ فجاءت الآية الكريمة بلفت الانتباه إلى الحكم المخالف لأهل الكفر، من العطاء العظيم من رب العالمين لأهل التقوى، وذلك بأداة الاستدراك ﴿لَٰكِنِ﴾ ليشتد الانتباه نحو ما أُسْتُدْرِك.

ومن فوائد ﴿لَٰكِنِ﴾ أنها استدراك، يُثبت لما بعده حكماً مخالفاً لما قبله. فالمتقون لله بالطاعة واتباع مرضاته ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لهم من ربهم تبارك وتعالى جنته التي هي بساتين تجري في خلالها الأنهار، من أنواع المشارب والمآكل، وهم باقين فيها أبدا. لا نهاية لها. وذلك فضل من الله الرحمن الرحيم ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إنزالاً من الله تبارك وتعالى لهم فيها، وذلك كرم من عنده عَزَّ وجل.

ثم يبين الله تعالى التفاضل بين ما هم فيه الكفار اليوم، وما سيكون فيه المتقون في الجنة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ فالذي عند الله سبحانه وتعالى هو خير للأبرار مما يتقلب فيه الذين كفروا في الدنيا لأنه زائلٌ، فما هم فيه المؤمنون في الآخرة هو نعيم دائم لا ينتهي ولا يزول. وهذا بيان من الله تعالى لحقيقة المتاع الحقيقي من خلال أسلوب المقارنة، بين واقع زائل، ونعيم

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٠٤)

دائم ومتعاظم، وفاضل عن نعيم الدنيا من كل وجه. وفي هذا ما يُسلي المؤمنين عَمَّا يفوتهم من نعيم الدنيا، وما يُقَوّي عزائمهم ويشوقهم إلى نعيم الآخرة الدائم، الذي لا يفنى ولا يزول. كما يفيد هذا تربوياً وتعليمياً أهمية المقارنة التي تكشف المفارقات، وتدفع نحو طلب الأسمى والأحسن والأفضل، كما أن في ذلك تربية للفكر وإنضاجه بتأمل المالات النهائية للأمور، واعتماد المقاييس الصحيحة، والأوزان الثقيلة لمحامد الأشياء، وإن تأخرت قليلاً، فالعبرة بالنتائج والمحصلات الختامية.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حال طائفة من أهل الكتاب، فَيُخْبِرُ الله تعالى أن طائفة من أهل الكتاب يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، مع إيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب، وأن من صفتهم التعبدية أنهم ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ أي: مطيعون، خاضعون، متذللون بين يديه تبارك وتعالى. والخاشع هو الخائف المتذلل لله تعالى[١] وكذلك من صفاتهم ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويذكرون صفته ونعته ومبعثه، وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى.[٢] ومن أولئك الصحابي الجليل: عبدالله بن سلام ومن معه، رضي الله عنهم. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فهؤلاء لذين يؤمنون بالله تعالى، وما أنزل إليكم، وما أنزل إليهم، لهم عوض أعمالهم التي عملوها، وثواب طاعتهم

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣١/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٥٣/١)

لربهم سبحانه وتعالى[١] ثم وصف الله تعالى حسابه للخلائق بأنه سريع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا[٢] وكذلك هو سبحانه وتعالى سريع الإحصاء لأعمالهم. وذلك لنفوذ علمه في كل شيء، فهو عالم بما يستوجب كل عامل من الأجر[٣] وسرعة الحساب لا تقاس بقدرة المخلوق، بل بقدرة الخالق العظيمة، الذي يُصَرّف الأمورَ في لمح البصر، ويبين ذلك ما يراه المخلوق في الدنيا من عجائب قدرته، فالأمطار تهطل لحظات قصيرات، فإذا بها سيول تجري لأيام، فلا تقاس السيول بزمن ومقدار لحظات هطول الأمطار. فكلما تَدَبّرَ المخلوق في قدرة الخالق الدنيوية، استوعب الخبر بما غاب عنه من علم الآخرة، فسبحان الله العظيم الذي تجلت عظمته في كل ما خلق.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بموعظة جليلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فيأمرهم بالصبر، دون تعيين وتحديد فيما يصبرون فيه وعليه، فاستوعبت كل اجتهادات أهل التأويل كما جمعها ابن الجوزي رحمه الله تعالى، حيث قالوا: البلاء والجهاد، والدين، وفي المصائب، وفي الفرائض، وفي طاعة الله تعالى[٤] فالصبر مطلوب في الطاعة، وعند المصائب، وعن المحرمات. ثم أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بنوع أو بدرجة من الصبر، وهي المصابرة ﴿وَصَابِرُواْ ﴾ أي: غالبوا أعداء الله تعالى في الصبر على شدائد الحرب، فلا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتا. والمصابرة باب من الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدته وصعوبته، ثم أمر العزيز العليم بالمرابطة ﴿وَرَابِطُواْ ﴾ وهي الإقامة في الثغور، رابطين خيلكم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣١/٦)
(٢) جلال الدين، تفسير الجلالين (٧٦)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٤٧١/١)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٦/٢)

فيها[١] ثم أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والتقوى تتطلب الحذر والخوف من المخالفة، والحرص على الطاعة الخالصة لله تعالى. فإنه بالعمل بما أمر الله تعالى يتحقق رجاء الفلاح والفوز بما عند الله تعالى، وكذلك بمعنى كي يتحقق لكم الفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهو الفوز بكل خير، في الدنيا بمعية الله تعالى وتوفيقه، وفي الآخرة بالجنة. فَخُتِمَت آخر آية في سورة آل عمرآن بهذه الموعظة الجليلة العظيمة.

تم بحمد الله إتمام سورة آل عمران، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٧٢/١)